يوميات عربية

فاروق يوسف

رسوم نهارية ومسافر نائم

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء
منه أو تحزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من
الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

©منشورات المتوسط

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المتوسط

ميلانو - إيطاليا

e-mail: info@almutawassit.org

www.almutawassit.org

تابعونا على

Almutawassitit@

منشورات المتوسط

Almutawassit

استهلال

هذه سلسلة جديدة من أدب اليوميات، تأتي بعد مرور عقد ونصف العقد على تأسيس جائزة ابن بطوطة، التي شكّلت تحدّياً لإمكانات الكتّاب العرب وميولهم الأدبية، وحافزاً لكتابة أدب اليوميات، إنْ في فضاء السفر، أو في فضاء الآخر، حيث تقيم، اليوم، نخبة من الكاتبات والكتّاب العرب المهاجرين عن أوطانهم، والمنفيين منها بفعل الاستبداد والقمع والحروب وضياع الحرّيات.

وقد حضّت هذه الجائزة، الأولى من نوعها في الثقافة العربية، الكتّاب العرب الجدد على استئناف مغامرة الكتابة في هذا اللون الأدبي الذي كان قد شهد ضموراً واختفاء على مدار عقود، فأنعشت الرغبة في مقاربته، وراحت اليوميات تخرج إلى النور، إنْ من خلال منشورات "المركز العربي للأدب الجغرافي - ارتياد الآفاق"، أو من خلال منصّات وناشرين هنا وهناك في دنيا العرب.

هي سلسلة، نوسّع معها من مساحة التفاعل مع أدب اليوميات استقبالاً ونشراً، بما يتعدّى النصوص الفائزة بالجائزة إلى ما هو أبعد وأوسع، نُباشر نشرها بالتعاون مع "دار المتوسط - ميلانو"، بوصفها مشروعاً جديداً، وُلد في المغترب الأدبي العربي، ويُعبر - في كثير من منشوراته - عن نزوع أصيل إلى الكتابة الحُرّة والتفكير الحُرّ، ويشترك مع "مشروع ارتياد الآفاق" خصوصاً في بحثه عن سُبُل جديدة ومبتكرة في بناء جسور ثقافية بين ضفّتي المتوسط، وهو ما يمكّن من خدمة فكرة انفتاح الثقافة العربية على العالم وثقافاته، والتعريف بأفضل ما تُنتجه قرائح الأجيال الجديدة من الكتّاب العرب الذين لا يعدّون أنفسهم قارّة منعزلة، ولا يرون حاضراً لثقافتهم من دون التفاعل الحيّ مع الثقافات الأخرى خصوصاً في هذه البحيرة العظيمة، ولا يرون مستقبلاً زاهراً لها، ما لم تكن نتاجاتهم الأدبية والفكرية وتطلّعاتهم الثقافية جزءاً أساسياً من تطلّعات الثقافات الكبرى في البحر المتوسط.

***

شكّل أدب اليوميات عماد مشروع "ارتياد الآفاق" الذي يُعدّ، اليوم، مشروعاً فريداً من نوعه في الثقافة العربية، لكونه عَدّ أن أدب السفر والتواصل مع الآخر هو الاختبار الأهمّ والدليل الأسطع على انفتاح ثقافة على ثقافات أخرى. ولطالما نظرنا إلى سطور يوميات الرحّالة والمقيمين في المنافي وديار الاغتراب، بوصفها مُدوّنات، تُشكّل وثائق أدبية وتاريخية معاً، وهي لوحات فنّيّة مدهشة، تكشف عن مشاعر حميمة وخلجات وجدانية فيّاضة، وخواطر وانطباعات، ترصد المرئيات، وغالباً ما تُثري القرّاء بحَدس شاعري، وابتكار فنّي، وجمال في التعبير، عبر خيال يُعانق الواقع، ويُوقظ الذاكرة، فيأتي بالممتع والمدهش. مرايا تتعاكس، بلدان قريبة وبعيدة، أماكن جديدة وزوايا لم تُستكشَف، ولا يمكن استكشافها إلا بالأدب، وقد استنفد التسجيل والتصوير المباشر غايتهما. ووُلد في العصور الحديثة أدب يوميات، يجعل من أصحابه شعراء وفنّانين أكثر منهم مُدوّني وقائع. اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعياً وراء فَهم حقيقيّ لها. هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة الناس والمُدُن والأنهار والجبال، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير عبر نصوص حية عابرة للزمان، كما هي عابرة للمكان.

نبّهنا مراراً خلال سنوات عملنا في هذا اللون الأدبي إلى أن أحد أهداف ما حقّقنا ونشرناه من كُتُب اليوميات والرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكّل عن طريق السفر والإقامة في ظهراني الآخر، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الكتاب، والانتباهات التي ميّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب اليوميات، على هذا الصعيد، يُشكّل ثروةً معرفيّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادّة سرديّة مُشوّقة، تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش ممّا التقطته عيون تتجوّل، وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمّ بالأشياء، ويُحلّلها، ويراقب الظواهرَ، ويتفكّرُ بها.

محمّد أحمد السويدي

١- أتذكر لأنسى

في سوق الدجاج، كنا نتحدث عن الحرب. يومها كانت العصافير لا تزال على الأشجار، وكان الشتاء ينعم ببرده وبأمطاره ورعوده، وكانت النساء ينظّفنَ أصابع الباميا من صمغها بهدوء وأريحية، وكان البرتقال يأتي محمولاً على شاحنات من بعقوبة، وكان الطين يطلق رائحة، هي مزيج من رطوبة أنفاس الأجداد ويباس الأسماك المعلّقة على حبال الغسيل. يفكّ الشيخ جراويته، ويلقيها على كتفه؛ ليعلن عن فتوته. ذلك الفتى من بغداد غادر السوق لتوّه. المشي بدعة، بثقة، من غير التفات، باسترخاء ضمير نقي، هو هوية. النظرة الممعنة في عاطفتها المستفزّة هي هوية. كان الكون بغدادياً خالصاً. خلاصته هناك في المتر الذي لم يقع من خارطة المدينة الدائرية. وكان الحياء ينبعث مثل رائحة من النظرات التي تقع خلسة.

فُتنتُ بالأعظمية.

سكنتُ هناك ثلاث سنوات، هي ثلاث زهور، لا تزال تقيم نضرة في خيالي. من بيتي في شارع الضباط (جامع العساف) أتسلّل يومياً إلى راس الحواش عصراً. كان هناك في بغداد وقت، اسمه العصر. وقت بين قوسين، ما بين صلاتي الظهر والمغرب. هو وقت مقدّس. على شواطي دجلة مر/ يا منيتي وقت العصر. يمرّ العاشق، لتراه الصبية من وراء النافذة المواربة، لتأخذ ظلّه إلى غرفتها، لتُنيمه على سريرها، لتمزجه بأطعمة خيالها. كانت (زنود الست) ترعى الأيدي التي تمتدّ إليها ببركات شهوتها. الدعاء يتداعى. من أجل أن تصل إلى مأذنة الإمام الأعظم، النعمان بن ثابت، وهي تقف بساعتها منفردة بمعمارها، عليك أن تمشي عشرات الخطوات في الخطوة الواحدة. كيلومتر واحد تعبر من خلاله محيطاً. من أمستردام إلى نيويورك. لقد عشتُ التجربة العذبة. أمشي ولا أصل. أمشي، لكي لا أصل.

في كل خطوة هناك مصير مختلف لعاشق. جميل وإيف ومونتان وقيس وكات ستيفنس وعنترة وجون لينون وغوستاف كليمت وبشار وهادريان وناظم الغزالي وناتانيل. كنتُ أمزّ لأصطحب غريباً يشبهني. يكون دليلي وموقع شبهتي. هاك يدي، لتقودني مثل أعمى إلى الحمّام

العبّاسي. هاك فمي، لتترك قبلتي على ذراع تلك الفاتنة، كما لو أن شفتيّ قد عثرتا على الكلمة المناسبة. كانت الخطوة أقلّ من متر واحد، في فضائها تمتزج أزمنة العبّاسيين كلها. هل كانت الحواس ترعى خرافها التي يذهب أنين الناي بقدرتها على التأنّي؟ كنتُ أتوارى في لفتة حسناء، في لمعان ركبتها، بين عظمَي كتفَيها، في تدرُّج شعرها، على ظهرها، هناك حيث ترخي الخيول أعنّتها، وتنصب القرويات موائدهنّ.

العصر، يا إلهي، وهو وقت مقدّس لدى العراقيين، لا تزال رائحته تملأ رئتَيّ.

بعد القيلولة. تضبط الساعات المتشابهة دقّاتها، لتكون حقلاً واسعاً للتأمّلات. سأمتلئ نعاساً قبل أن أصل إليك. ظلّ لوليتا يسحقني. ثانوية الحريري للبنات ليست بعيدة. الإمام يصغي لتوسّلاتي.

"وبشارع العشرين لاكوني عشره/ بيهم حبيب الروح والتسعة كشرة"

كنتُ أتشمّم الدرب. أصابع قَدَمي تعبث بغباره. لم يكن موتزارت قد نسي كمنجته على منضدتي غير أنني استطعتُ أن أسرق وتراً من تلك الكمنجة، زيّنتُ بها ربابتي. يجلس جبار عكار على الأرض في الطرمة، ليتلو آياته. يستخرج أنينه من فم الأفعى. كنتُ أراه عابراً زقاقنا. الرجل الأسطورة كان يومها حياً. لم يكن إلا بدوياً متنكّراً بلباس معلّم. كانت حنجرته تقوى على مطاردة طائر الدراج في الفلوات. ياه، كم مثّ! وكم حييتُ يومها!

في سوق الدجاج، كنّا نتحدّث عن الحرب. وكانت الحرب قريبة. ربّما سيكون عليّ أن أتحدّث عن سنتمترات قليلة، ليس إلا. المليم التي تقع فيه الروح، ولا تقع فيه القنبلة. كنّا نمشي بإرادة إلهية، ببركة دعاء الوالدين. أنظر إلى ديك هراتي، وهو يقف منتصب القامة، منتشياً بذكورته، كما لو أنه طُرد لتوّه من الجنّة. آدم وقد اتّخذ هيأة ديك. تشبهني، أيّها المعتوه يوم كنتُ معتوهاً مثلك. ما أجمل العته! لا حديقة الحيوان نفعت الحمير، ولا مستشفى الأمراض النفسية نفعت المجانين، ولا سوق الغزل نفع الحمام النادر. لم تكن الحرب لتنتظر أحداً. لن يقول الراعي: "خذلتني الخراف حين أنصتُّ إلى الناي"، فلا أحد في البوداي القريبة سيصدّقه. يومها ستقوم القيامة من أجل خروف ضائع. وهو سبب مقنع. لن يتحدّث أحد عن الحرب إلا همساً. وبما ينفع في التعبئة الحربية.

يمتزج صياح الديكة في الفجر بأصوات المؤذنين.

ذلك زمن آخر. لقد انتقلنا إلى منطقة تهرب فيها الروح من مرآتها. احبسني، ولا تراني. ضعني في السطل، ولا تُطلقني مع الطائرة الورقية. اتركني في إبريق الشاي، ولا ترئني دخان سيجارتك. بغداد في علبة من الورق السميك، ومن غير فلتر. كنتُ أجلس في ظلّ الواسطي في انتظارها. نسخة جبسية من تمثال إسماعيل فتاح الذي صار صديقي في ما بعد. بنظّارة شبه شمسية، ولحية، وبنطلون شارلستون، وتي شيرت علامة التمساح. جون لينون بشيء من الارتباك المنزعج. كنّا اثنين. أراه يمرّ كما لو أنه صالح القره غلي. ويراني ألعب الشطرنج مع يوكو أونو، زوجته. قيل يومها إن جون لينون عاد طالباً في فرع السيراميك.

كانت المرأة الذهبية تأتي من الأعظمية. يسبقها فائق حسن بالفولكس واكن. لم يكن المعلّم يجيد السياقة. كانت امرأته الفرنسية تمسك بفرشاته. كنتُ حارس الفراشات. بعد سنوات، التقيتُ شخصاً في البحرين، وكان طالباً معي، قال لي: "كنتُ أظنّك من رجال الأمن السرّيين". لقد قُدّر لي، بسبب الحبّ، أن أنهض من نومي فجراً، لأرى بغداد كما تركتْها يد الخالق. كان إسرافيل يوزّع صيحته بين حناجر الديكة، وكنتُ أمرّ خفيفاً بين الصيحات.

كانت المقبرة الإنجليزية قريبة. خلف التلّ الذي يمشي عليه القطار الذاهب إلى الشماعية (مستشفى المجانين). رأيتُ أطفالاً يلوّحون بأيديهم من نوافذ ذلك القطار. هل كانوا مجانين؟ رأيتُ عشباً أخضر يغطّي أسماء الموتى. "لا يسمعون"، قلتُ لصديقتي بعد أن رأيتُها تشير إلى القبور، وهي تطلب منّي أن أخفض صوتي. كنتُ أقرأ لها شعراً من سعدي يوسف. ما الذي قد فعلتَ بنفسك؟ كانت بلاد الجزائر .. لم أكمل. كانت تتوسّل بعينين نبيلتين. فضحتَنا. حتّى لو سمعوا، فإنهم إنجليز، لا يفهمون العربية. تقول لي وهي تضحك: "مَن يدري؟ الموتي يفهمون اللغات كلها. حين يموت المرء يتخلّى عن لغته الأمّ، ليكون عالماً باللغات".

كلهم أكراد. كانت صديقتي كردية. كلهم شيوعيون. كانت صديقتي شيوعية. "ابتسمي للحظّ الذي جعلهم جميعاً موتى" قلتُ لها. "ما الذي يمكن أن يقع لو انبعث الجميع أحياء؟" كانت بغداد يومها بعيدة. كنّا في الآخرة، نجلس على العشب في حقل واسع، تتخلّله شواهد القبور البيضاء خلف تلّ أخضر. شعرتْ صديقتي بالفزع. لم تكن الحرب يومها قد بدأت.

كنا نرعى الديكة في الصحون الصينية وبين خيوط نسيج السجّاد الفارسي. ولم تكن البلاد قد وقعتْ بين فكّي التنّين. الحرب لكم، لأن السِّلْم لم ينفع معكم. متى كان السِّلْم؟ كنا نهرب من النبأ، ليس إلا. كانت الحرب في شمال الوطن تحصد الأرواح، لتصنع منها سلّماً، نتسلّقه إلى الجبل. يوماً ما سنذهب إلى الجبل.

قلتُ لها: "سنتسلّق التلّ، ونرى القطار. سترين من هناك أن بلاد الجزائر كانت واسعة مثل أفريقيا"، ولكن، أين تقع أفريقيا؟ كان الحبّ أعمى. كنا نرى البلاد صغيرة مثل يرقة. غزالة غزلوكي/ بالماي دعبلوكي. كنا قد نسينا القطار، ونسينا المجانين، ونسينا الموتى. لقد حلّ العصر. الوقت الذي تقدّسه البلاد. حدّثني نوري جعفر، وهو عالم اجتماع، أنه كان يمرّ بالمقبرة الإنجليزية يوم كان يدرس في كُلّيّة التربية، وكان يُنصت إلى أصوات غريبة، ويميّز من بينها كلمات إنجليزية واضحة.

"هل كان الموتى يتكلّمون؟" سألتُه. فصمت.

ربّما لم يكن نوري جعفر قد روى لي تلك الحكاية، بل كنتُ أنا مَن روى الحكاية له في انتظار أن يفسّر لي ما كان يحدث. ما أنا على يقين منه أن واحداً منّا قد روى للآخر تلك الحكاية.

في سوق الدجاج، كنا نتحدّث عن الحرب أيضاً. لن يجرؤ أحد على إعادة تأليف الحكاية. الحكاية تُعيد تأليف نفسها بنفسها. تفلتُ من إطارها التقليدي، فتتشظّى. ريشها يملأ الوسائد، وغبارها على كل كتف. كانت كُتُب مؤسسة فرانكلين تتكدّس في العربات الخشبية، عربات الدفع التي تقف في الأمتار الأولى من شارع السعدون، قريباً من مكتبة النهضة، ليس بعيداً عن مقهى المعقّدين. ما إن تمدّ يدك حتى تعثر على كتاب، يستحقّ القراءة. غالبا ما كنا نمشي ونحن نتأبّط الكُتُب، كتابين على الأقلّ. الكتاب بمنة فلس. الثقافة لنا، ولهم كل ما تبقّى. ولكن، مَن هم؟ الآخرون على الرصيف المقابل، في البناية المجاورة، بين صوتين يمتزجان في نسيج الحكاية.

نُنصت إلى دجاجتَين، وهما تتشاجران.

الموقف نفسه يمكن أن يعيشه المرء في مقهى المعقّدين.

هناك حروب أخرى هي الأخرى طاحنة في مختلف الجبهات. صورنا اليوم في المنافي تُظهر عجزنا عن تركيز النظر في مرآة واحدة. يمكننا

دائماً أن نرى بطريقة جانبية. نختلس النظر. لكن، لن نجرؤ على النظر المباشر إلى مرآة واحدة. أعبر الشارع من جهة مطعم تاجران، لألتقي شخصاً يُشبهني، كان واقفاً عند إحدى عربات بيع الكُتُب، وهو يقلّب كتاباً.

"هل شبعتَ؟" يسألني.

"لم أكن جائعاً. كنتُ أتسلّى" أجيبه.

يدفع منة فلس إلى البائع، ثمّ يمسك بيدي، لنمشي معاً. نتأمّل واجهات المحلات التجارية الصغيرة. فجأة يُوقفني أمام محلّ لبيع الساعات.

"أنتَ لا تحترم الوقت" يقول لي.

"ولكن، هل يحتاج الوقت إلى أن أحترمه، لكي يكون موجوداً؟" أجيبه مبتسماً.

كان أقوى منّي. الشخص الذي يشبهني كان عنيداً. وكان في الوقت نفسه رقيقاً. أتذكّر الآن ديفيد سمث، النحّات الأمريكي. وصفه نقّاد الفنّ بأنه قويّ مثل شاحنة ورقيق مثل ورقة. شبيهي وُلد بعدي بدقائق. وكان ميتاً حسب المعلومات العائلية. مُحي اسمه من السجلات. غير أنه في الواقع غالباً ما كان يسبقني إلى اتّخاذ القرار الذي لا أجرؤ على التفكير فيه. وكنتُ أعزو جرأته إلى أنه لن يخسر شيئاً. الميت لا يخسر شيئاً. ولكن ذلك ليس صحيحاً. لدى الموتى ما يُمتّعهم. ما يُسلّيهم. ما يجعلهم حريصين على أن يكونوا دقيقين في مواعيدهم.

"ليس مقبولاً أن تتأخّر هذا الوقت كله عن الموعد" يقول لي وهو يربط ساعة على معصمي بعد أن دفع ثمنها إلى البائع. نصف ساعة مشي تكفي لخفض ضغط الدم. يضحك. ساعة تكفي لهدم بلاد. يبكي. سيكون الزمن عدواً. كان الوقت يمرّ بطيئاً. في ساحة النصر هناك سوق للزهور. من وراء الزجاج، كنتُ أراقب نباتات الظلّ، وهي تتثاءب. ينزلق الوقت بطيئاً على الأوراق. ما كان يمرّ ليس هو الوقت تماماً. ذيل طاووس يجرّ وراءه حشداً من أقواس قزح. بعد سنوات، تعلّمتُ كيف ينزلق الوقت على الثلج بقَدَمَي جنّيّة عاريَتَين. تسقط لمعة الشمس، ثمّ تتشظّى على هيأة بلورات تنتقل مباشرة إلى جوف العين. من وراء الزجاج المبلّل، كنتُ ألقي نظرات أبرية على الزهور والنباتات الظلّيّة التي كانت تلك السوق تعجّ بها. هل كان الوقت يمرّ؟ فيما الحافلات الحمراء تمرّ. يمرّ الجنود بنعاسهم، البستانيون بفؤوسهم، السكارى المطرودون من البارات القريبة، الآثوريون القادمون

من أسواق البتاويين، طالبات ثانوية العقيدة، باعة الفول السوداني، الراقصات الذاهبات إلى ملهى الأوبرج، القضاة بعد حفنة أحكام، مصوّرو حفلات الأعراس، السياسيون السرّيّون وهم يتلفّتون. يمرّ المزيخ وعطارد والزهرة، يمرّ الأمير الصغير متأنّقاً بزهرته الوحيدة، يمرّ جقمجي والسعدون وخضر الياس وحسو إخوان وحافظ القاضي وناظم باشا وسيد سلطان علي من غير أن يرمش لي جفن. تقع نظراتي ثابتة على ذلك الحقل الشاسع الذي يأوي صوراً مستلّة من رسوم الانطباعيين. في المتحف الباريسي همستُ لزهورفنسنت: "لقد التقينا من قبل في حديقة والدي" كان أبي مثل العراقيين كلهم يعشق زهرة عباد الشمس، وهي الزهرة الوحيدة التي لا تأويها محلات بيع الزهور. ألأنها زهرة مرئية أكثر ممّا يجب؟ هي زهرة منذورة للشمس وللّمس العابث. لإيقاع النظرة المباشرة الذي يُلهم النسيان. تراها لتذهب معك. تلتفتُ إليك، فأنت شمسها الوحيدة. زهرة عبّاد الشمس هي الزهرة الوحيدة التي ترى بعينين متفائلتين. كنتُ أقف مسحوراً أمام تلك السوق، وحين أمدّ يدي إلى معصمي لا أعثر على ساعتي. لقد استردّها شبيهي يائساً، بعد أن أدرك أن الوقت يمرّ بي بطريقة مختلفة. ولأني لا أستطيع استعادتها من رجل ميت، فقد صرتُ أتحسّس مكانها على معصمي متذكّراً أن الوقت لم يمرّ.

"أيّها السيّد، سقطتْ ساعتُك" سمعتُ صوت المرأة، وأنا أمشي في الشارع الرئيس بمدينتي البعيدة آلاف الكيلومترات عن بغداد. كانت المرأة تحمل ساعة تشبه تلك التي اشتراها لي شبيهي في شارع السعدون، قبل ثلاثين سنة. ضحكتُ للسيّدة التي كانت تمدّ لي يدها وهي تضحك. "لن تكوني إلا وَهماً" لم أقلها لتلك الجنّيّة التي اختفتْ، مثلما انبعثتْ بخفّة خطوتَين، واحدة ذاهبة إلى المنفى، وأخرى عائدة إلى الوطن. كيف يمكنني أن أقيس سرعة الزمن؟ في سوق الدجاج، كنّا نتحدّث عن الحرب، باعتبارها الأبدية التي يرسم لها بوق إسرافيل خطّ النهاية. أغلقنا على الزمن فلّينة القنّينة الفارغة، وألقينا القنّينة في البحر. وحين جلستُ في مقهى الحافة بطنجة، رأيتُ تلك القنّينة مَرمية على الشاطئ الإسباني.

"هناك قوارب صغيرة، يمكنها أن تقلّك إلى الجانب الإسباني من البحر" قال لي عبد العزيز. ذكّرني صديقي المغربي بتلك المرأة التي أعادتْ لي ساعتي. صار عليّ إذن أن أستعيد تلك القنّينة التي تخلّصتُ منها يوم كانت الدجاجتان تتشاجران. حروب صغيرة يحملها المرء تحت ثيابه من غير قافية. يتركها مثل كتاب على سرير النوم في قطار ليلي، ويهبط من

ذلك القطار في قرية، لا يُعرف حتى اسمها. ستصلك صيحات الديكة، وهي تمتزج بأصوات المؤذنين في فجر، تقترحه عليك زهرة عبّاد الشمس، وهي تقف وحيدة في اللوحة.

هل كنتُ أكذب يوم قلتُ لشبيهي "كنتُ أتسلّى"؟

كان الوقت من حولي يتسلّى. فكنتُ أقلّده. لا يزال الوقت من حولي يتسلّى غير أني فقدتُ الرغبة في تقليده. لديّ ما أقوم به. هو الآخر لديه ما يقوم به. ذات مساء سلّمني صديقي الباريسي هيمت ورقة، كنتُ قد ألصقتُها على باب غرفته قبل عشرين سنة، يوم كان ضيفاً على دارة الفنون بعمان. "أراك غداً" كتبتُ في تلك الورقة التي لا تزال نضرة. حضر الغد، والتقينا، غير أن الورقة تلك لا تزال تعدنا بغد، لم نعشه معاً. يضحك هيمت، ويقول: "لا يزال هنالك غد يجمعنا" كان لديّ موعد مع صخر فرزات في بيته بالقرية الفرنسية البعيدة، فأخلفه، لأن صديقي فاجأني بموته. قبلها كان لديّ موعد مع جبرا إبراهيم جبرا يوم الأربعاء غير أن المعلّم مات يوم الاثنين. كانت طائرة الفجر الذاهبة إلى دمشق قد تركتني بسبب خطأ في التذكرة. قلتُ لرافيا قضماني بالتلفون: "سأعود إلى البيت" غير أنها صرختْ بصوت مذعور: "أرجوك. انتظر طائرة المساء. ستصل دمشق فجراً، وستكون في انتظارك سلّة فواكه شامية". حينها تذكّرتُ أني انتظرتُ الطائرة الكويتية ذات مرّة في مطار هيثرو عشر ساعات. فقرّرتُ أن لا أخذل صديقتي، وهي التي لم تخذل أحداً من الفنّانين الذين تعرض لهم. حين رأيتُ رافيا في صالة الاستقبال بفندق أميّة، قلتُ لنفسي: "الزمن لم يمرّ حقاً".

"الوسادة خالية" كنتُ أردّد وأنا أُنصت إلى ضحكات ابن عمّي (هوبي).

في فندق (W) بالدوحة، رأيتُ على السرير عشرات الوسائد. كان الجناح الذي خُصّص لي مترفاً. حمّامان بمختلف التقنيات الشرقية والغربية. صالة استقبال. مكتب بهاتفين. ومن السقف كانت تتدلّى كرة، هي عبارة عن مقعد، هو أشبه بالأرجوحة. ولكن، أين أنام وقد وصلتُ متعباً؟!. لاحظتُ أن الستائر تعمل بالريموت. كان الجناح أشبه بقفص من زجاج، لذلك أغلقتُ الستائر، سأنسى المكان العالي الذي صرتُ سجينه، وأنا أخاف من الوقوف في الأماكن العالية. ولكن، من المخجل فعلاً أن أنام على الأريكة أو على الأرض في الوقت الذي كان هناك سرير وثير في مكان ما من الجناح. عثرتُ على ذلك السرير فعلاً، خلف ستارة من الخيوط

الحريرية، ولكنه كان غاصاً بالوسائد، وسائد بمختلف الأحجام. صار لديّ ما أفعله. الوقت كان صامتاً وهو يمزّ. صرتُ أحمل الوسائد، وأوزّعها بين الأريكة والأرض. الآن لم يبقَ سوى وسادة واحدة. ولكنها كانت أسطوانية. أيمكنني النوم على وسادة من هذا النوع؟ وضعتُ رأسي، فلم يستقرّ. أيمكن النوم من غير رأس مستقرّ؟ لتأتي الأحلام. سأخترعها كما أفعل دائماً. ولكن الأحلام لا تحضر إلا من خلال الرأس، وكان رأسي ضائعاً.

تذكّرتُ هوبي. قفز الشابّ ببنطلونه الضيّق وحذائه الرياضي، ووقف أمامي. "سأصفُ لك لبنى عبد العزيز" "ولكنني لا أحبّها، ولا أحبّ أسمر يا اسمراني" "عاطفتُك تتأخّر. هناك ما يجب أن تفكّر به، لتقتنص لحظات الأمل. أنت سوقي. اسمح لي بهذا التعبير. فأنتَ لا ترى من الجملة سوى مظهرها. ستنام لأنك تقع في الجزء الذي يعنيك من المشهد الخرافي. الوسادة ليست خالية إلا مجازاً. هنالك ريش كثير. كل ريشة مستعارة من طائر مختلف. نمْ، صديقي".

حين نمتُ حلمتُ بأني أطير. كنتُ طائراً. أردتُ في الحلم أن أخبر هوبي بأني لم أر ذلك الطائر من قبل، ولم أقرأ عنه، غير أن ابن عمّي، المولع بعبد الحليم حافظ، كان ميتاً، ولن يسمعني. قلتُ لنفسي: "لا بأس. سأحفظ تلك الجملة. سأقولها له يوم القيامة"، ولكن، هل سنلتقي هناك؟ وإذا ما التقينا هل ستُتاح لنا فرصة الكلام الأخوي؟ هل سأعرفه باعتباره ابن عمّي؟ وهل سيعرفني باعتباري ابن عمّه؟ في الآخرة سنكون أقرباء أيضاً. ما الفرق إذن؟ هناك لن تكون لبنى عبد العزيز الفتاة السمراء، ولن يكون عبد الحليم مغنّياً. وقد ألتقي هوبي، ولا أكلّمه. سيكون الوقت ضيّقاً. سيكون الوقت شاسعاً، لكن، بالنسبة لزهرة عبّاد الشمس وحدها. كانت الشمس تضرب بعنف على الزجاج الذي أخفيتُه بالستائر.

عرفتُ أن الليل مرّ، وأنني كنتُ نائماً، على الأقلّ، لأنني لا أستطيع أن أنكر حلمي.

لم تكن الوسادة خالية. كانت معبّأة بالريش، وبالأحلام أيضاً. أتذكّر أنني مضيتُ إلى كرسي في حديقة لكسمبورغ بباريس، كنتُ قد جلستُ عليه قبل حوالي ربع قرن. ما بين جلستي الأولى عام ١٩٨١ وبين جلستي الأخيرة عام ٢٠٠٥ جلس آلاف الناس على ذلك الكرسي الخشبي نفسه. كنتُ واحداً منهم. ربّما كان صاموئيل بيكيت واحداً منهم. لمَ لا؟ كان الرجل يذهب إلى لكسمبورغ في أثناء جولاته تائهاً. حينها شعرتُ بالضيق، أو

بالاحراج. ربما كان بيكيت مختبئاً بين الأشجار، في انتظار أن أغادر الكرسي، ليجلس. لكن بيكيت كان ميتاً يومها.

"سنكتب حتى الموت"

"سنجلس حتى الموت"

كان الكرسي واسعاً. في إمكان بيكيت لو كان حاضراً أن يجلس بصمت إلى جانبي. لن أكلّمه، ولن يكلّمني. فأنا أعرف ما يعرفه: غودو لن يأتي. لن أقول له إنني رأيتُ ذات مرّة غودو. ذلك لأنه لن يُصدّقني. لقد رأيتُ غودو يوم كنا نتحدّث عن الحرب في سوق الدجاج. كنا يومها في حاجة إلى شخص لا يحضر. شخص ينتظره الجميع، ويدّعون معرفته، ولكن، حين يمرّ ذلك الشخص لا يعرفه أحد منهم. كنا نهذي. كانت الأشياء من حولنا تهذي. القصر العباسي، القشلة، باص أبو طابقين، جسر الشهداء، المقبرة الملكية، ساحة السباع، كبّة أبو علي، شربت زبالة، خان مرجان، سوق الملابس المستعملة، باجة الحاتي، سوق حنون، مقبرة الشيخ معروف، برنامج قل ولا تقل، شارع عشرين، تمثال الملك فيصل، حديقة الأمة، سينما غرناطة، مطعم الشباب، مكتبة المتنبي، الكرنتينه، وبار تونتي وان. كان غودو يجلس معنا من غير أن يُكلّمنا. وكنا ندفع ثمن ما يشرب. كان يغادر المائدة من غير أن يمدّ يده إلى جيبه. لن يقول أحد له "لا تذهب"، فنحن نعرف أنه لن يذهب إلى مكان بعينه.

كان غودو بالنسبة لنا نوعاً من المهدي المنتظَر.

يا إلهي، كم متنا! يا إلهي، كم عشنا!

بقليل من الضجر، يمكننا أن نكون متفائلين. الكثير منه يقتل.

كنتُ قد درّبتُ نفسي على النسيان. تمارين شاقّة في المحو مارستها، لكي أكون مستعدّاً لتحمّل عبء نهار عراقيّ جديد. كنتُ أظنّ أن تلك السلسلة الخيطية لن تنقطع، غير أنني شعرتُ فجأة بأني حين ألتفت لا أرى إلا سراباً. صار عليّ أن أتذكّر من أجل أن أصدّق أنني عشتُ تلك الحياة، وأن تلك الحياة كانت موجودة حقاً. غير أنني لا أتذكّر إلا حين أكتب. ما معنى هذا؟ صار التذكّر نوعاً من التأليف. فأنا في الحقيقة أكتب عن حياة عاشها شخص آخر. قد يكون هو ذلك الشخص الذي يشبهني، بالرغم من أنه لم يعش سوى أشهر قليلة بعد ولادته. عن طريق التذكّر، صرتُ أسعى إلى التحقّق من أن الحياة التي صرتُ أتذكّرها في أثناء الكتابة لم تكن

حياة متخيّلة. لقد عشتُ هناك. أعرف ذلك. ولكن هذه الوقائع التي صارت تنبعث من بين الكلمات هل عشتُها شخصياً؟ أم أن شخصاً آخر كان قد رواها لي بعد أن عاشها؟

أتذكّر جيداً صيحات الديكة في الفجر البغدادي، وهي تمتزج بأصوات المؤذّنين، ولكنني لا أتذكّر ما الذي كان يحدث في سوق الدجاج. يبدو أن بغداد كلها كانت هناك. الحرب أيضاً، ببدوها وقروييها وعميانها. في سلال الخضروات والفواكه، في أحواض السمك، في أوعية التوابل والمكسّرات، في أقفاص الحمام، كانت الحرب تتثاءب. كان الظلّ قد اكتسب لوناً زيتونياً، هو مرآة لزيّ المحاربين.

"ولكن الحرب انتهت؟"

"هل انتهت الحرب حقاً؟"

بالنسبة لي، فإن الحرب لم تنته بعد، وهي أيضاً انتهت منذ زمن بعيد. من حقّي وأنا الضحية الكاملة أن أكون متناقضاً في لحظة الغياب التاريخي، بل ومزدوج الموقف في لحظة استيعاب ذلك الدرس الذي كنتُ ماذته. كنتُ الحصاة التي رُميت في النهر من أجل أن يستقيظ السمك مذعوراً. ارتبك السمك قليلاً من الوقت، ثمّ نام غير أنني غرقتُ. المنفى هو تلك الأرض الغاطسة التي انتهيتُ إليها، باعتباري أداة مُستهلَكَة. لن تهمّ الصفة التي سأحفلها أحداً من بين الأطراف المتحاربة. شهيداً كنتُ أم مفقوداً أم أسيراً أم مشرّداً أم لاجئاً. بالنسبة لهم، فإن هناك ملفّاً ينبغي أن يُغلَق، لكي تُفتَح ملفّات جديدة. الحياة تستمرّ. هنا ينبغي أن نعترف أن الشعوب لا تحبّ استعادة أبناءها المشرّدين، فهم ينتمون إلى الماضي الذي يجب أن تُطوى صفحته. هل تصدّقون أن الدول لا ترغب في أحيان كثيرة في استعادة أسراها؟ لكنها لا تقوى على إعلان تلك الرغبة. كانت عودة الأسرى العراقيين من إيران واحدة من أكثر المشكلات تعقيداً. المجتمع نفسه لم يكن قادراً على استيعابها. لا أحد في إمكانه أن يتخيّل أن هناك دجاجة عائدة إلى السوق بعد أن انتهت زيارتها إلى بيت مَن اشتراها.

الذهاب إلى الحرب هو شيء شبيه بذلك. حين تذهب إلى الحرب، فعليك أن لا تفكّر بالعودة. وحين تنتهي الحرب، فإنك تذهب معها. يتذكّرك الآخرون باعتبارك بطلاً، ولكن، ليس من حقّك أن تكون حياً. البطل لا يُرَى إلا من خلال حكايته. في إمكان ظهورك أن ينسف الحكاية، ويهدّد خيالها. لذلك فإن الحرب، لمَن شارك بها، لن تنتهي أبداً. الذي يطوي صفحة الحرب

هو المنتصر. ولن يكون ذلك الشخص مقاتلاً. فالحرب بالنسبة له ما هي إلا صنعة مجانين وعبيد.

التقيتُ الكثير من الأسرى العراقيين الذين عادوا من إيران، وكان بعضهم أصدقائي. ولكنني لن أنسى مشهد (سمير)، وهو ابن مربّية ابني، العائد لتوّه من الأسر، وهو يرفع صوته بالغناء في لحظات صمتنا: "نحبّك، والله نحبّك/ يا صدّام، نحبّك" ثمّ يبكي. يومها فكّرتُ أن الفتى المسيحي، وهو من أصول هندية، لم تكن بعيدة، قد وجد خلال الأسر سبيلاً إلى مقاومة عمليات غسل الدماغ التي مارستها عليه السلطات الإيرانية، فصار التفكير بحبّ صدّام نوعاً من الارتباط العفوي بالعراق. لم يتذكّر من العراق سوى صدّام.

حربي لم تنته إذن. بل أنا أمشي بقَدَمَي محارب ذاهب إلى حرب جديدة.

تقع بغداد العبّاسيين على نهر دجلة. كانت هناك دائماً. كانت لمياه دجلة خزائن من الصور. مكتبات وقصور وجامعات ومساجد وبيوت وأسواق ومقاه وحدائق ونافورات وساحات عامّة. من الزوية حتّى الكريعات يمتدّ خيط الرصافة منغّماً بالذكريات المأهولة بالموسيقى والقصائد وأصوات المترجمين. كانت بلاداً واسعة، أقبل عليها طلاب العلم من كل مكان. آسيا كلها كانت هنا. لمَ لم نتعلّم الصينية؟ يومها كان الصينيون يتعلّمون العربية. رأيتُ ذات يوم كتابات صينية على جدار بغداديّ قديم. غير أن هناك عوائل في العراق لا تخفي وجوهُ أبنائها نَسَبَهَا الصينيّ. كان من الممكن إذن أن نحارب من أجل آسيا موحّدة. حرب أخرى يمكن إضافتها إلى السجلّ، ولا شيء يتغيّر. سنسخر لأننا خرجنا أحياء. لكننا لم نكن كذلك تماماً. للهاربين من الحرب كلام مختلف، غير أن المطحونين بالحرب هم أبناء لحظة لم تنته بعد. سيضيق القاموس ببلاغتهم النزقة. سأعود دائماً إلى خيال تلك الدجاجة العائدة من الموت إلى سوق الدجاج. الجملة نفسها يمكن أن نقولها بطُرُق مختلفة.

كنّا نتحدّث عن الحرب، في سوق الدجاج.

في سوق الدجاج، كنّا نتحدّث عن الحرب.

عن الحرب، كنّا نتحدّث في سوق الدجاج.

اختفى سوق الدجاج، ولم تختف الحرب.

"ما الذي تفعله هنا؟" تسألني فتاة الإعلان.

"ربّما كنتُ موجوداً في المكان الخطأ" قلتُ لنفسي. الفتاة السمراء هناك تبتسم للعابرين. كنتُ أجلس في موقف الحافلة، كما لو أنني أنتظر الحافلة فعلاً. ربّما توهّمتْ فتاة الإعلان ذلك، فرغبتْ في أن تسلّيني. كنتُ وحيداً. لا أحد من المارّة أشفق عليّ، وجلس إلى جانبي. لم أخبرها أنني جلستُ كثيراً في مواقف الحافلات، وفي محطّات القطارات، وعلى الموانئ، من غير أن أنتظر حافلة أو قطاراً أو سفينة. لن أُلقي بالجمال في موقد الحيرة والارتباك. كانت الفتاة تقف بطريقة متحذّية، مُستعارَة من أفلام رعاة البقر. كنتُ منتشياً، وأنا أنظر إليها جانبياً. حياء ريفيّ جعلني أمارس النظر إليها خلسة، لكن، ببطء ومتعة. في الوقت نفسه، كانت فتاة الإعلان تنظر إليّ مباشرة وبجرأة. "أنتَ في بيتي" تتخطاني نظرتها، لتتنزلق على الثلج البعيد. هناك تحت الجسر، بين آنيتي ورد يابس، على شبّاك المطبخ في شقّة تقع في الطابق الأرض. "ولكن، فعلاً ما الذي تفعله هنا؟" بدلاً من أكون هنا ينبغي أن أكون هناك. أهذا ما تقصده؟ ولكن، أين يقع ذلك الهناك؟ سأسألها في المرّة القادمة من أجل أن نتسلّى. ابتسمتُ لها. "أنتَ مَنسي إذن"، لم يكن ما قالته سؤالاً. كان شيئاً يشبهني. يقع عليّ من سحابة عابرة مثل خيط من البرق. ثمّة هلاك عظيم في ذلك الهناك الذي تلوحين به، وتريدين منّي الذهاب إليه. كان النسيان ضرورياً، من أجل أن تخترع قَدَمَاي أسلوباً جديداً في المشي، من أجل أن تنزلق الكلمات على لساني، من غير أن تجرحه، من أجل أن تلمس يدي حجراً، وتقول له: "يا أخي". لن أعذّبك. أنت تحتاجين إلى أن تتذكّري ألوان القمصان والسراويل والتنّورات والشالات والأحذية والقبعات التي في خزانة ثيابكِ. تحتاجين إلى الساعات المنزلية الصغيرة التي تُبعثرينها في كل مكان، من أجل أن تعرفي ما الوقت. تحتاجين إلى الدفاتر الصغيرة وقصاصات الورق الملوّنة، لكي تُدوّني عليها مواعيدكِ وملاحظاتكِ وما تنوين القيام به، أو تسوقه. تحتاجين إلى حقائب اليد، هناك حيث تضعين أشياءك الناعمة والصغيرة، التي تحملينها معكِ أينما تذهبين.

"نحن مختلفان، إذن؟"

"ليس تماماً"

سألتفتُ إليكِ هذه المرّة. أتعرفين لمَ لا أودّ الذهاب إلى البيت مستعجلاً، كما يفعل المُسنّون هنا؟ لأنه لا بيت لي هنا، يا صديقي. تُغمض

الفتاة عينيها إشفاقاً. خُيّل إلي أنها قامت بذلك، في اللحظة التي كنتُ فيها أسعى إلى أن أرى تأثير كلماتي على وجهها. "لن أراك غداً" سيكون عليّ أن أبحث عن مأوى آخر. لا يصلح موقف الحافلة مأوى لمرّتين في حياة المرء. "كنتُ أتبعكِ" اعترفتُ لها. قلتُ لنفسي سيكون ليل الإعلان مريحاً. لا بأس. سيقع ذلك أمام المازة في الشارع، ولكنه الفعل الذي لا يعاقب عليه القانون. ستكونين معي في السّراء والضّرّاء. ستدفعين عنّي الشّرّ. الفتاة الحلوة التي لم تغادر بيتها إلا قبل نصف ساعة، وستعود إليه متأنّقة ومهذّبة وطاهرة بعد نصف ساعة، على الأكثر. لقد عدتُ إلى هنا، لكي أبحثَ عنكِ. "وهل كنتَ هنا من قبل؟" كان لديّ دائماً هنا. هنا أضع رأسي على وسادته لأحلم، أُطعمه حبّات الفول المطبوخ، وأنسج لرأسه تيجاناً من القصاصات الورقية وعيدان الثقاب وأغصان النعناع، أجزّه مثل تلميذ إلى كرسي الدرس، وأملأ عينيه بضوء الكُتُب، أدسّه بين الخرائط، فيتسلّل بدعة مثل قنفذ بين التضاريس. في الماضي، كان لديّ هنا، يا صديقتي. ولكنه صار يفتقد إلى الفراغ الذي يأويه بعد أن غادر صفته مكاناً. لم يعد ذلك الـ (هنا) مكاناً. صار إصبعاً سادساً في اليد، كلمة فالتة من المعجم، ولا معنى لها، رشقة ضوء تقع بين صفحتي الليل والنهار، نبتة استوائية، حملها مغامر إلى القطب، وزرعها بين ضلوعه، تحت القلب مباشرة.

التقيتُ غرباء كثيرين في حياتي. بل يمكنني القول إن معظم الذين التقيتُهم كانوا من الغرباء، رسّامين، وكتّاباً، وأباطرة سابقين، وشعراء متقاعدين، ومحاربين معزولين، وأنبياء من غير شعوب ولا كُتُب، ومشعوذات، وقارئات فنجان وكفّ ورمل، وفاتنات سابقات، وبائعي طيور، ومؤجري سحب، ومشّائين، وكهّاناً مطرودين من المعابد والصلوات، ومخترعي أمجاد وصولات، وشيوخ قبائل لم يكن لها وجود. عشتُ غريباً، فصار قَدَري أن لا ألتقي إلا الغرباء من أمثالي.

"كم كنتَ وحيداً، يا صديقي"

كنتُ غريباً بين الغرباء ووحيداً وحدي. التقيتُ ذات مرّة رجلاً يمشي وحيداً على سطح البحيرة المتجمّد. حدث ذلك في هلستا همر، البلدة الأسوجية الأولى التي أقمتُ فيها. قال لي يومها ذلك الرجل: "وما ذنبك؟" تساءلتُ مندهشاً: "كما لو أنك تتحدّث عن عقاب؟" أمسك الرجل بيدي، وقال لي: "منذ أيّام وأنا أراك تمشي على سطح البحيرة وحيداً. تذهب إلى الغابة وحيداً، وتعود منها وحيداً. أفهم أن المرء يمكنه أن يكون غريباً. ولكن، من الصعب عليه أن يكون غريباً ووحيداً في الوقت نفسه"، وحين

دعاني إلى مقهى قريب لنشرب القهوة معاً، صار يحكي لي عن تفاصيل يومه، فاكتشفتُ أن الرجل كان مثلي غريباً ووحيداً.

"ولكنك مثلي، يا صديقي، غريب ووحيد، وأنت في بلدك!"

تأملني صامتاً، ونفث دخان سيجارته، وقال: "ولكن البلد ناسها. هل رأيتَ بشراً في هذه البلاد؟" ولأنني كنتُ في تلك اللحظة المحلّقة من حياتي قد مزجتُ البشر والبقر والحجر في عجينة متجانسة من الإيقاع الموسيقي اللين، فقد كان صعباً عليّ أن أهتدي إلى دروب المتاهة التي كان صاحبي قد مشى فيها قبلي. كان الجمال يباغتني في كل لحظة تأمّل، وكانت الإنسانية تحيطني بكرمها ونبلها من الجهات كلها. صمتُّ، واعتبرتُ صاحبي متشائماً. في الحقيقة، لم أكن يومها في حاجة إلى سبب مضاف للكآبة. ربتَ صاحبي على كتفي، وهو يبتسم: "ليدم فرحك".

المثني جملته. كانت عنواناً لرواية جان جينو التي لم أكمل قراءتها. لقد تركتُ ذلك الكتاب مفتوحاً على المنضدة يوم غادرتُ بيتي، ولم أعد إليه. لسنوات ظلّ ذلك الكتاب مفتوحاً. ذات يوم انتبهتْ فتاة، كانت مُكلّفة بتنظيف البيت بين حين وآخر إلى ذلك الكتاب، وقلّبته. يومها شعرتُ بالحيرة، فاتّصلتْ بي تسألني: هل تُبقيه كما هو؟ أم تُغلقه؟ بالنسبة لي، كانت الإجابة صعبة. لقد اختلطت أصوات كثيرة في رأسي. غير أنني حسمتُ الأمر، وقلتُ لها: "أغلقيه". انتصر الصوت الذي كان يقول: "لن تعود". لن أعود، ولكن فرحي سيدوم. صرنا اثنين. صار المزارعون والحطّابون يرون شبحينا، وهما يعبران البحيرة، يمشيان على الماء مثل موسى ورعيته، يختفيان في الغابة، ويرسمان الغزلان، ويجلسان في المقهى، ويتسوّقان ويقفان في انتظار الحافلة. ذات يوم وفي لحظة نشوة، التفت إليّ صاحبي، وقال: "ما أزال غريباً. لكني بسببك لم أعد وحيداً" قال لي الجملة التي كنتُ أود لو أنني سبقتُه إليها.

حين التفتُّ إلى فتاة الإعلان وجدتُها لا تزال تبتسم.

لا تعرف فتاة الإعلان أن صياح الديكة في الفجر يمتزج بأصوات المؤذّنين.

كانت الشوارع الحجرية ملساء. فيما كنتُ أتسلّقها ذاهباً إلى المقبرة. ضحك شبيهي. "سيكون العظماء في انتظارك" في محيط المقبرة، لم يعد هنالك شيء من باريس. كنتُ أتسلّى في التقاط الصور، وما من شيء

لأصوّره سوى الخواء. هل مات الذين أحبهم، وبقيتُ مثل السيف فرداً؟ هادئين وكسالى ومسالمين ينامون. أقرأ أسماءهم ذات الدويّ. هم الآن أسماء، ليس إلا. كما لو كنتُ أقف أمام واجهة مكتبة. الكُتُب التي أحبها هناك. كانت هناك ساعة في معصمي غير أنها لا تشير إلى الوقت الذي يهمّ الراقدين تحت التراب. كانت لديهم أوقاتهم السعيدة. صار الوقت بالنسبة لهم عبارة عن فكرة عن زمن لا معنى له. صرتُ أفكّر بالأبدية. في مسقط، وفي أثناء محاضرة، كنتُ ألقيها، انتبهتُ إلى أن رحلة جلجامش بحثاً عن الخلود ما كان لها أن تكون موجودة، لولا الملحمة التي سجّلتها. وهذا يعني أن الكتابة هي التي تمنح الأفعال معانيها. الخلود فكرة أدبية، ليس إلا. هؤلاء النائمون هم كُتُبهم التي نعثر عليها في المكتبات.

سنكون قُساة أكثر ممّا يجب، لو تساءلنا: "الحياة؟ أم الكُتُب؟"

فتاة الإعلان هي صورتها. هي التي شيرت وبنطلون الجينز اللذان ترتديهما. سأكون معك. أنا وحيدة أيضاً، فتاة الإعلان تقضي الليل وحيدة. نحن ننسى. ما إن ندخل إلى البيت حتى ننسى البشر والبقر والحجر. فتاة الإعلان تسهر على بضاعتها البصرية. شيء منها يظلّ مستيقظاً في انتظار الغرباء. لها زمن مختلف. الفتاة التي من بسكويت وزعفران وفراولة وأناناس وزيتون معتّق تقاوم البرد والثلج ونظرات السائقين، من أجل أن تُثبت أسطورتها: البضاعة لا تنام.

نحن نرث الأرض. هذا صحيح. ولكننا نرث ما تُنتجه تلك الأرض من بضائع أيضاً. فتاة الإعلان هي حارس ليليّ، أنحني له، إذ أغادر موقف الحافلة. ليس هناك رَقْم يناسبني. لقد انتظرتُ الحافلة رَقْم (٠) ولم تأت.

لن تأتي تلك الحافلة التي تأخذني إلى وسادتي، حيث الريش المستعار من دجاج سوق حنون. أتبع خيطاً من مادة فسفورية تلمع، مشى به أحدهم، ليكون دليلاً لي في اتّجاه متاهته. تذكّرتُ صديقي الذي تركتُه في هلستا همر. خلع ذات مرّة قميصه، ونزل بالبنطلون القصير إلى النهر الصغير الذي كانت مياهه تتدفّق بقوّة، بسبب قرب الموقع الذي كنّا فيه من مضخّة للمياه. "أنا سعيد" صار يصرخ. كرّر جملته الوحيدة عشرات المرّات، وهو يتلقّى بجسده ضربات الماء. كان شجاعاً وقوياً، الأمر الذي جعلني أشعر بالاطمئنان عليه، لأجلس على صخرة رطبة، وأبدأ بتأمّل ذلك المشهد النادر. حين خرج صديقي من النهر، ارتمى على صخرة، وهو يلهث. بعد ذلك، وفي طريق عودتنا، أسرّني بأنه كان يصرخ بتلك الجملة من أجل أن

تسمعها الكائنات الخفية التي يعرف أنها ترافقه، لتحميه من الأذى. كان يرغب في إسعادها وطمأنتها. غير أنه أخافني حين أمسك بيدي بقوّة، وأوقفني وهو يقول: "تعرف؟ إن هناك خيطاً لا يُرى يربطنا بتلك الكائنات، لو انقطع ذلك الخيط، فإن موتنا سيحلّ" حينها صرتُ أسأل نفسي: "هل كان شبيهي نوعاً من تلك الكائنات؟ كان الخطّ الفسفوري لا يزال يلمع تحت قَدَمي. لم ينقطع حين وصلتُ إلى البيت، فتركتُه على أمل أن أتابع المشي وراءه غداً. ولكنني لم أعثر عليه صباح اليوم التالي. مشيتُ في أكثر من اتّجاه بحثاً عنه، من غير جدوى. كان قد اختفى. هل كان ذلك الخطّ خطّاً للكتابة؟ أم خطّاً للحياة؟ لو أني عثرتُ على المتاهة التي يقود إليها، لانفتح أمامي باب الطلسم.

حينها ستختفي المدينة.

حلمتُ الليلة الماضية بخطط المقريزي. كانت المرأة الصينية تمسح زجاج الشرفة من الداخل في شقّتها الأرضية. من بين ساقَيها، أرى غرامفون قديماً. تذكّرتُ أسطوانات بيري وايت التي كانت تدور في بغداد، فيما كان الوقت يمرّ بطيئاً. صوتٌ أجشّ يعظ من غير شفقة، يرتطم كما لو أنه يرغب في شقّ الشيء الذي يقف أمامه نصفَين. يُخيّل إلى مَن ينصت إليه أنه يرتقي سلالم حجرية من قرون الماعز الجبلي. ثور وحشي فالت من مخيّلته. في ما بعد رأيتُ جاموسة، وهي تطوف في محيط البيت بحثاً عن المياه المقدّسة. تذكّرتُ المعدان. كانت الحضارة تسيل من بين أقدامهم. سلّمني وايت بعد فترة قصيرة من التعذيب الأخوي إلى سعدي الحلي الذي سلّمني بدوره إلى أبي بكر سالم في وقت لاحق. مع الأخير اكتشفتُ أن جازاً عربياً يقيم تحت الجلد هو حلّ أفضل. لن تمنحك الأشباح أجنحتها. يتدفّق الزئبق في عروق المرآة من غير أن يرتبك العشب في عينيك. الحديقة الآسيوية تفتح أبوابها للزائرين الطارئين. تفتحها للفجر، للرعاة، لعازفي الناي، للمشرّدين الأنيقين في شوارع برلين الخلفية، لعباقرة اكتشاف الأسماك الملوّنة في المياه الضحلة. كان صوت بيري وايت يمنعني من التجوّل في الحيّ. قلتُ لجارتي الصينية ذات مرّة: "ولكن، هناك غناء صيني" بلغتها المقطعية سدّت عليّ الطريق: "كما لو أنك تقطع حجراً بدقّة، لا تقبل الخطأ. الصين بلاد هندسية. لا تقع النقطة إلا في موقعها. أقصد قطرة المطر. الموسيقى الصينية مُملّة، يا صديقي. أنا هاربة من الصين".

تذكّرتُ أنها أخبرتني أنها لا تعرف ماو، ولا شوان لاي، ولا الثورة

الثقافية، ولا المعجزات اليدوية، ولا الكتاب الأحمر. حين تزوجت أسوجيا، فإن ذلك كان خياراً عاطفياً. لم تهرب من السياسة. كانت الحياة هناك تدعو إلى الضجر. "شانغهاي؟". لم يعد الأمر ينفع، فكل شيء جاء متأخراً. لقد وقعت على الثلج مثل دمية فارغة من الهواء. ذابت وصارت صينية في المطبخ. أنا هناك، لكي أرعى جيلاً جديداً من الباندا. تضحك. العمر قصير، يا صديقي. لنترك قضايا الكون للخالق، ومشكلات الحدود بين الدول للسياسيين. لديّ مجموعة من الأواني الخزفية وسجّاد شرقي وساعات قديمة ورسوم مائية. كانت العصافير تملأ البيت بالزقزقة.

"هل هي عصافير صينية؟"

"صارت كذلك. اخترعها الرسامون. الرسم يزيّف الواقع".

أبعدي المعزى عن قَدَمي. كانت جارتي الصينية تضع طبقاً على طبق، وتنظر إليّ. شعب يتنفّس في الخفاء. في الصورة، لكن، من خلال أعصابها الخفية. في اليد، لكن، من خلال أصابع لا ترى، حيث ترقص العصي. الصينيون هناك. مشيتُ وراء الجاموسة التائهة. لم أرها من قبل. تلك الجاموسة. يا بلدي، ويا بكاء الأمّهات، ويا قَدَمَ الخضر على الشاطئ، يا رعشة الأخضر في ورديّ المياه، ويا خسارتي الذهبية التي تطفو مثل جثّة. لقد نسيتُ أننا اثنان، فصرتُ واحداً. المرأة الصينية لا تزال تمسح زجاج شرفة بيتها من الداخل، وأنا أمحو البلدان من الخارطة الورقية. كانت خطط المقريزي تطاردني. في ذلك الوقت، كان حجم الحماقة أكبر. لن يكون لي بلد بعد الآن. وضعتُ على المنضدة قفّازين وغطاء للرأس وشالاً أحمر. ها أنذا أستعدّ للنوم. عبرتُ البلد كله، لكي أكون من غير بلد. يمكنك أن تقول ذلك أخيراً. أنت في حِلّ منه إذاً. أنا ضائع. "مثل كرة" سيقول الغريب. ولأني أرى البئر، أرى الحقل من حولي واسعاً، لا أعاتبه. بل أكرّر جملته قائلاً: "مثل كرة".

في وقت سابق، اقترحتْ عليّ جارتي الصينية أن نتبادل الرسائل من خلال الهواء. القبلة لا تقع على الأرض، إن لم تصل. تظلّ عالقة في الهواء في انتظار مَن يقبض عليها. منتشياً بالمرور بها، باختراق حليبها، يصلني الضوء. أبيض مصفزاً مثلها، يرتمي على سياج الشرفة. يشقّ طريقه إلى أوراق الصبّار. يغرز حنانها مثل إبر صينية في مختلف أنحاء جسدي. كانت المرأة لا تزال تحلم، لذلك كان الضوء يتأمّلني مثل كائن يمشي في نومه. مخدّته لا تزال ساخنة. رأيتُ أثر رأسها هناك. شعرها القصير وجبهتها

العريضة وفمها ملموم مثل زهرة، لم تنفتح بعد. أنبثُ هناك. في الريشة التي تسقط عصفوراً على الورقة البيضاء من غير أن تلمسه. في الخطوة التي تتسلّق جبلاً، لتصل إلى معبد وَهمي، لم يره أحد من قبل.

أتسلّق الجبل.

كنّا نخرج إلى الجبل حاملين أكياساً ملوّنة. نلتقط الأعشاب بخبرة المسنّين. نعرض العشبة على الشمس، نختبر ضوءها، ونسمع ضحكتها التي تتلألأ بين سِنّين من أسناننا اللبنية. وحين نُلقيها في الكيس، نسمع زفرتها الأخيرة. على جسر تلك الزفرة، نمشي إلى العشبة الثانية. تتنقل أصابعنا في العتمة بحدس فراشة نضرة. وحين تعثر على زهرة لا تزال نائمة، تبطئ من حركتها، كما لو أنها تودّ أن تعتذر. بخفّة تنسحب. أصابعنا تلمس الحجر الذي يجرح أقدامنا، لتُهدّئ من غضبه. حجر طائش وعنيف. أنت وأنت وأنت. مثل رشقة ماء يدور الحوار المتبرّج. حجر صيني هو الآخر يتبعنا بنظرته الميتة. ألا تعرف أن الجبل هو حجر ثقيل، قرّرت الأعشاب أن تهبه شيئاً من الخفّة؟ أنشدها: "أنا عندي من الأسى جبلُ/ يتمشّى معي، وينتقلُ" لغة الشعر تخون المعنى، يخذلها المعنى. كنّا ثلاث بنات. تعبث الريح بثيابنا المزركشة. حين اختفت واحدة منّا تخيّلنا أن ذئب الحكاية قد خرج من الكتاب السِّحري الصغير، والتهمها. اثنتان بقيتا عند منتصف المسافة التي تفصل بين البيت والمدرسة. ركضتا في اتّجاه الجبل، لتعثرا على منديل الفتاة الميتة وسلّتها التي كانت ملأى بالفاكهة. "قيل لنا إن الفاكهة كانت مسمومة، وإن الفتاة الميتة قد تحوّلت إلى شبح، صار يدور بين البيوت بحثاً عن نافذة مفتوحة" أغلقي النافذة، يا أمّي. الغزاة في نهاية الشارع. عند بائع المعجّنات. مطحنة القهوة لا تعمل. في المقهى، صار النادل يُوزّع حبّات القهوة على الزبائن. أنجديني، أيّتها اللغة. مثل عصفور صيني، اسحبيني من الورقة، لأحلّق في فضاء، لم تلوّثه رايات الغزاة. سأغطّ في النوم، يا أمّي، ولا توقظيني. في النوم حدائق ومدارس وفنادق وأزقّة ومطابخ وحرّاس ليليون وعربات ومصابيح.

"فزعك حصان يركض" تقول رسالتها الأخيرة، وتطفئ جارتي الصينية الضوء في قريتها البعيدة.

حين رأيتُها ظهيرة اليوم التالي كانت ترعى غزالاً في الغابة. اختبأتُ وراء جذع شجرة، لكي لا أحرجها، أو أخيف الغزال. كانت جارتي تُخرج من سلّتها ورقاً أخضر، فيمدّ الغزال رأسه، ويأكل. سألتُها في ما بعد "هل كان

ذلك الغزال مسحوراً؟" نظرتْ إليّ باستغراب، وقالتْ: "لم يكن هناك أيّ سِحر. جلبتُ له ما يحبّه من الغذاء، فصار صديقي. ولأن الغزلان لا تُخدَع، فقد عرف ذلك الغزال أني كنتُ صادقة معه. ألا يزال حصانك يركض؟"

أنا أكتب مثل حصان مذعور. لم أقلْ تلك الجملة. لا، ليست الكلمات هي السبب، بل الأفكار. ليست الأفكار، بل بالأحرى المعنى. يُخيَّل إليّ أن هناك شبهة هي التي تحيل المعاني إلى هواء، وهي التي تكثّف ذلك الهواء، فتُحيله إلى سائل. أدفع بزورقي إلى النهر، وأقفز إليه، ليأخذني بعيداً عن البيت التي لا تزال نافذته مفتوحة. مذ تعلّمتُ النقر بالأصابع، صارتْ أصوات البيانو تهبط مثل حشرات خفيفة وناعمة، لتحيط عينيّ بأجنحتها.

أكونكِ لكي تكوني. تكونين مثلما أرغب في أن أكون. نكون معاً، لأننا خُلقنا، لكي نكون معاً. أنت جرس الباب، وأنا مزلاجه. أنا الخطوة التالية، وأنتِ إيقاعها. تستجيب الموسيقى لأذرعنا. المشية في الهواء الطلق، وعلى الرأس غيمتان. لقد محوتُ قطرات المطر من أجل أن تظهر النبتة. محوتُ النبتة من أجل أن أرى الأرض. محوتُ الأرض من أجل أن أراك. مرآة وراء مرآة وراء مرآة، ولم تتعب العين. نقبنا في المرج بحثاً عن الدمية، ولم نجد سوى أحشاء الذئب. قلت لي: "صديقك مات" قلتُ: "الليل وحيد من غير ذئب" سنمشي معاً حتى نهاية الطريق. الرسائل لن تصل. غبطة البطريرك يقف على الجانب الآخر من النهر. ليس من أجل الفالس أنزع حذائي، بل من أجل أن تضرب قَدَمي الأرض بقوّة. طبل لخاتم في أصبعك. ناي لكنيستك وجوقة منشدين من أجل صدرك.

كنّا نقف صفاً واحداً في لحظة استعداد قتالي. كان نهر دجلة قريباً منّا، فيما تحيط بنا الأشجار المرحة من كل جانب. كوميديا حجرية. إنه مشهد واقعي. صباحاً يصفّر نائب الضابط محمّد الدليمي، فتهرب العصافير. كان هناك عصفور صيني وحيد، هو ذلك العصفور الذي يضعه نائب الضابط في فمه. صافرة بلاستيك على هيأة عصفور. يضربنا الهواء بنعومة أنفاسه. كان الوقت مبكراً للذهاب إلى الكسرة. صيدلية شارع المغرب لم تُفتح بعد. لدينا ما يكفي من الوقت، لنحجّ. لن ينسى المرء يدَيه في مكان غامض. ضروري أن تكون للمرء قَدَمان. أهرب من أجلك، يا حبّي. كانت الحرب ناعمة هناك. ولكننا لم نكن مطمئنّين. الحافلة رَقْم (٠) لم تأتِ بعد، ولكنها قد تصل في أيّة لحظة، لتحمل واحداً منّا أو أكثر إلى الموت.

"ولكنك لا تفهم شيئاً في الأوبرا؟"

"وهل هناك أحد يفهم شيئاً في الأوبرا."

تقع الفكرة على العشب الرطب. للأنوثة قَدَمَان، تهرب بهما. كنّا ملوكاً على رقعة شطرنج. البيادق الساذجة وحدها تبكي في مكان تبديل الملابس. نركض. الرجل الأربعيني قائدنا يبدأ في اللهاث، ثمّ يقف وهو يصرخ: "اركضوا" مَن قال إننا نودّ أن نقف؟ نحن نرغب في أن نستمرّ في الركض إلى آخر الأرض. تضرب فخذها بحجر. يقول لي محمّد الجالوس، وهو رسّام فلسطيني: "لقد تركنا على شاطئ المحرس جثّيات يُردّدنَ أشعارنا" عام ١٩٩٢ كنّا صغاراً بما يستدعي الحيطة. طلع الفجر علينا، ونحن نعوم في مياه البحر المتوسط. أتذكّر الشمس وهي تطلع من البحر. كان هناك كلام مبهم من غير صوت. لم ننم. ما الذي سنفعله في ذلك النهار الطويل؟ لقد خذلتنا المغامرة. مع الفجر أخذنا الجثّيات إلى بيت العائلة، وصرنا نفكّر في النوم. كان الجالوس هو النائم الوحيد من بيننا قد رأى الجثّيات وهنّ يتسلّلنَ إلى البحر، فيما كنّا نظنّ أنهنّ ذهبنَ إلى أسِرّتِنا.

لديك واحدة. لديّ واحدة. ولكن مصير الباقيات لا يزال يُقلقه. تلك الشمس لم تغرب بعد. ذلك النهار كان طويلاً بالنسبة له. لا يزال في إمكانه أن يرى الصخور التي جلسنا عليها، ونحن نداعب المياه بأقدامنا. هناك قَدَمَان لا تصلحان للمشي. قَدَمَان تستدعيان السمك. يقول لي بحرقة: "في المحرس، تركنا أقداماً عزيزة" صرنا إذاً نمشي بأقدام مستعارة. لقد انتهث مسيرتنا هناك. لديك ما تقوله، يا صاحبي، لتنقض أقوالك. لقد مشينا من البحر إلى أزقة المحرس بأقدام ثابتة. لم نكن نرى. هذا صحيح. ولكننا كنّا نغنّي.

وضعت على وجهها قناعاً من الأصباغ الملوّنة، وقالت: "لأفهمك".

تركوه مثل جيفة. نظّفوا ثيابهم من رائحته، وراحوا ينظرون بمشقّة إلى حبال الغسيل. مثل خراف تذهب إلى الذبح بسعادة. يسأل أحدهم الآخر: هل جلبتَ شيئاً من الحجر الذي ارتقيتَ به الجبل؟ وهو يعرف أن ليس هناك في الحقيقة جبل، ولا حجر. كانت الأكاذيب تتثاءب. ليس لديك من الأسبوع سوى جمعته، من السنة سوى تموزها، من البيت سوى سقفه. كنّا نطير فوق الغابة المشتعلة، ونرى أحذيتنا من فوق وهي تمشي. لا تكفي الحواسّ للوصف. إن كنتَ ميتاً، فعليكَ أن لا تُزعج الأحياء بصمتكَ المريب. بعينيكَ اللتين لا تكفّان عن الإلهام. وإن كنتَ حياً، فعليكَ أن تكتفي بدُنوّكَ من الماء. واقعة نادرة تهبكَ فرصة الالتحاق بأجدادكَ

الغابرين. ألا تحبّ الماضي؟ صار التاريخ طوع يديك. نظّفوا آذانهم من صرخات الأطفال في المستشفيات، مسحوا أنوفهم بالحائط الذي حاكث نسيجه أيادي العميان، وقالوا: وَلِيّ صالح. هنا ينبغي أن نحفر. الأرض يباب غير أن المشيئة الإلهية تهب الأعمى فرجاً في النظر. سنمحو بالحنّاء أسماء الوافدين من الجنة، لنكتب أسعار البضائع التي لا تزال في الحقائب.

"هذي بلد ليست لكم"

"وليست لكم أيضاً"

ايكو أي صدى. مسافة خاوية أو سراب. ويحقّ لنا أن نبحث عن اللغة بين أوراق شجرة النارنج، في أفواه سمك الكطان، على عيدان الرّزّ العنبر، بين أسنان يوسف عمر، على قبة الخلاني، في قلْ ولا تقلْ لمصطفى جواد، عند التقاء النهرين "متى حدث ذلك؟" أحدهما جفّ، والثاني في طريقه إلى الجفاف. بلد من غير ماء. بلد أصمّ. تهمّني قناعتك. ولكن، لمَ تتعب نفسك؟ لنكن عمليّين. العراق وهو بلد الاختلاف، لمَ لا يقع في مصيدة اختلافه؟ سألجأ إلى الملوية. هل هرب المسيحي الذي أقامها من بعد ما رفعوا الأذان؟

سيكون على الذبابة أن تمرّ باحترام، لتؤكّد أنها كانت موجودة في الحساء. الفكرة عَصية على التنفيذ. لكني سأجدكَ بين حشود المغادرين في الليل. كنتُ حارساً ليلياً. بجناحين لا مرئيّين حلّقتُ، ولم أر أحداً. كنتُ نائماً في سريركَ. المسيحيّ في المرآة، كما لو أنه أنا. الفكرة وقد أسرَتْني لن يكون فضاؤها الورقي بعد الآن ممكناً. أقصد المئذنة الملوية في سامراء. باعوا العباد بعد أن باعوا البلاد. المطر لا يحبّ جملاً من هذا النوع. الله وهو راعي كل المعاجم يلتفت، لكي لا يرى تلك الجمل. خطيئتنا وقد تجسّدت على هيئة نمر آسيوي.

الليل ظُلمته هناك لا تُطاق. خذوا قطعة منه: ظلّ شجرة، شاهدة قبر، حقيبة طفل، حزمة قصب، ربطة رأس. املؤوا أوعيتكم دبساً. فمذ غرقت الشمس في نهر عيسى، وكانت صغيرة، أصغر من نافذة، صار علينا أن نخترع ضوءاً للسان، وفأساً للعين، وقبلة لليد. لقد غادروا جماعات وأفراداً. حملتهم السفن والطائرات والقوارب الصغيرة وفقاعات الماء وبخار القطارات، ونجوا، من غير أن يتوبوا من عادة التلفّت. لو أن القلوب وحدها تلفّتتْ، لَنَمَتْ لسنابل القمح أجنحة، ولكن العقول، وقد كانت مسمومة، قد اخترعتْ صوراً لخراب مقبل.

وضعت على وجهها قناعاً من الأصباغ الملوّنة، وقالت: "لن أفهمك".

سنفكّر بشيء آخر: إعادة الخلق من أجل أن يكون الكدر أقلّ. لا تتعبوا أنفسكم في تنظيف المرآة. الرمل أسود، والعين أشبه بخرزة ميتة. ما كنّا رأيناه في أوقات سابقة، لم يكن إلا سراباً. ماء يشفّ عن ماء، وما من فصوص تلهث في أعالي الأشجار. تلك المُدُن ليست سوى مكعّبات من الثلج، وناسها الهائمون ليسوا سوى أشباح عابرة. لنخطّ الدائرة من جديد. نملأ البئر زئبقاً، ونحثّ الساعات على أن تُسرع في المشي. سنركض جموعاً. ندور مثل الأرض، لنصنع محيطاً للدائرة بعَرَقنا، أعضائنا، بلهاث كلابنا، وصفير حناجرنا. نركض عشّاقاً وبؤساء ويائسين وأرامل ويتامى ومقهورين، وبقايا سجناء على أرض، ليست هي بأرض، ولن تكون أقدامنا سوى الخيوط التي سنلحم بها أقنعتنا الممزّقة. نركض ونقضّ خطّ المحيط الذي ترسمه خطواتنا. تخيّلوا المنظر: يمكننا أن نلمس أرواحنا هناك. يمكننا أن نقبض على السماء بنظرتَين هاربتَين. يمكننا أن نجعل الوطن يعتذر.

صلبوه من أجل أن يعتذر. الجريمة تبكي في يوم، لن ينتهي.

صلبوه، ليشفى بعد أن يُجنّ.

صلبوه، ليتكثّف بعد أن يتبخّر.

صلبوه، ليستفهم، ومن ثمّ، يعتذر.

في المسلخ العمومي، بين الخنازير المعلّقة من أقدامها، على البلاط الذي تنبعث منه رائحة الديتول. فوق أزرق القاشاني، حيث يسيل الأرابيسك بوحشية هامدة، نسوه. قطعة منه تكفي طعاماً لسنة، من بعدها يمكننا العودة. من غير المتوقّع أن يُرفَع عن الصليب في المستقبل المنظور. من أجل أن يكون هنالك شعب، من أجل أن تكون هنالك فكرة عن حُرّيّة مُستقطَعة من التاريخ الضائع، عليه أن يبقى معلّقاً هناك على الخشبة. وأيضاً من أجل أن يُقال إن عصر الصيد لم ينتهِ بعد. القنّاصون في شرفات المنازل. مع الغُزاة، بين ثنيات ثيابهم، قبل اللحم الذي تهرسه الدبّابات، بعد الدخان المحلّق من حفلة قلي بالدهن الحيواني الحُرّ، على أنغام السيمفونية التي تمنّى أن يسمعها هولاكو، يتقدّم الذئاب، ليلتقطوا الغنائم. الفريسة لا تزال ساخنة، غير أن الدم الذي في الشوارع صار يُلوّث المشهد.

"تمنّيتُ أن لا أفهمك"

كان محمد الجالوس نائماً في تلك الليلة التي كنا فيها نلهو مع الجنيّات على شاطئ المحرس. حين عدتُ إلى البيت منتشياً بما رأيتُ، أيقظتُه بعنف. صرتُ أصرخ به: "المطلق هناك"، وكنتُ أتوقّع أن يستيقظ صاحبي مذعوراً، غير أنه فتح عينيه بهدوء، وقال لي باستسلام: "معك حقّ"، نهض من فراشه، ورافقنا. كانت الساعة هي الخامسة صباحاً، ولم يكن البحر قد هدأ، ولم تكن هناك جنيّات. كانت الكذبة أصغر من فضيحة وأكبر من مزحة. غير أن براءة الجالوس أنقذتني حين قال لي: "انظر إلى الأفق. المطلق هناك". كأن الله أعاد مسيحه إلى الخزانة، ومسح بالزيت فم العذراء، وأطلق الملائكة، لكي تغنّي لسليمان. كان هناك نوع من الشبهة، أزاحتها صرخة ملتبسة، تقول: "المطلق هناك".

غير أنهم عادوا. الأبالسة من غير إبليس. تلاميذ القهر وعصارة اليتم. عادوا من أجل أن لا يجدوا شيئاً. من أجل أن يستعيدوا أسباب شجارهم التاريخي. خرقة باعتبارها قميصاً، وراية باعتبارها فضاء وفلكلوراً، باعتباره إرثاً سماوياً. عرفوا من قبل أن ليس هنالك من أرض. عرفوا أيضاً أن السماء التي انطبقت على البلد ذات ليلة من ليالي جهنّم صارت حظيرة لخيول الغرباء، غير أن أنهم نصبوا مائدة بثلاثة أرجل، ووضعوا عليها الخرائط، ووزّعوا الحصص.

لقد شُبّه لهم.

لا، لم يُشبّه لهم.

لو أن الحقد كان أقلّ. لو أن الرغبة في الانتقام كانت أقلّ. لو أن النسيان هو الآخر كان أقلّ. لقد سقطت على بغداد قنابل، لو أن الله استعملها، لحدث انفجار عظيم جديد، ولولدت مجرّات وكواكب جديدة، ولما كانت الأرض التي نقيم عليها هي ذاتها. لقد هلك شعب، نظنّ أنه لا يزال حياً. "المطلق هناك" كان الجالوس محقاً، ولكن، أين يقع الآن ذلك الـ (هناك)؟ كنّا نتمنّى لو أنهم بقوا هناك. لو أنهم ماتوا قبل أن يسمحوا لخطواتهم أن تمتزج بغبار عربات الغزاة. لو أنهم تأخّروا عن الطائرات المغادرة في اتّجاه ذلك الهناك، بسبب مرض طفل، عطل في السيّارة، طلاق أخت، موعد مع طبيب، ولكنا نغفر لهم هفواتهم السابقة. ولكنهم وقد ذهبوا إلى المسلخ، لم يعد في الإمكان الحديث عن شبهة، يُراد لها أن تكون واقعاً. كنّا نكذب. كان الواقع يكذب. مَن يكذب على الآخر؟ أكعد أعوج وأحجي عدل. كان علينا أن نُنصت إلى الموعظة. لقد اطمأنث أجسادنا إلى

البلاد الجديدة. ولم تعد البلاد القديمة لتُذكّر إلا في المراثي. طعنة سكّين لا تترك إلا أثراً قديماً. تحت السرّة، بعيداً عن القلب.

حين أنزع قناعي، لن تتذكّر وجهي.

أراك، كما لو أنني أخترعك من الطين الحري، ولم يكن هنالك وقت سابق يجمعنا.

"ولكن، إلى أين تذهب الأوقات السعيدة؟"

تحت السرير، لنبكِ، فلا تسمعنا المرآة. بين طبقتَي البصل، لكي لا ترانا صيحة الديك في الفجر. تدمع عيناي، فلا أرى. كان لدينا أوقات للصمت. "ما معنى ذلك وأنت تعيش صمتاً هو أشبه بالأبد؟" في لكسمبورغ، جلستُ على حافة نافورة، وكان كمال سبتي يُصوّرني، وكنتُ سعيداً. حين فتحتُ النافذة في غرفتي بالفندق، ورأيتُ قبر نابليون، سمعتني زوجتي، وقد كانت نائمة، وأنا أصرخ: "أنا سعيد بهذا اليوم" في البيغال كنّا، هيمت وأنا، سعداء، ونحن نلتقط صورة فورية، ونضحك. في مياه بحر العرب، كنتُ سعيداً، وقد عاد محرّك القارب إلى العمل ثانية بعد أن توقّف لدقائق. في الدوحة، كنتُ سعيداً، وأنا أقود سيّارتي مستمعاً إلى غناء كوكوش الإيرانية واليمني عبد الرّبّ إدريس في شارع قصير، يتّجه إلى البحر. في أسواق شعبية كثيرة، ومنها سوق (واقف) كنتُ سعيداً وأنا أنقل عينيّ بين أكياس التوابل الهندية والأعشاب والأسماك الصغيرة المجفّفة. سِخر وقع نعلين، وأنا أمشي وراء فتيات الكنيسة في الغدير يطلق في فضاء روحي عصافير من ورق ملوّن. حدث لي أن التقيتُ سيف الرحبي قريباً من سوق الظلام، وكان سعيداً بزوجته وطفليه. في فندق المنزه بطنجة، غمرني خشب الأثاث القديم برائحة غرفة جدّتي، وكان عبد العزيز جدير ينظر إليّ مشفقاً. كنتُ سعيداً بالنوم بين أحضان الحكاية القديمة. لقد عدتُ طفلاً، لا يفكّر بالمرض. خرجتْ عروستي من الباب الخشبي، لتضع يدها في يدي، وذهبنا معا إلى الجنّة. حدث ذلك عام ١٩٨٠. قبل ثلاثين سنة، أكثر، غير أنني لا أكفّ عن المشي إلى تلك اللحظة. لا أستعيدها، بل أستفهمها. كيف استطعتُ أن أقف بثبات ثلاث دقائق؟! وكيف مشيتُ تلك الأمتار الثلاثة من غير أن أقع؟ في مقهى زجاجي عائم بأمستردام، كنّا ننظر إلى المياه من حولنا بسعادة. في برلين، كنّا نأكل الدجاج في مطعم تركي، رُصفت مناضده في الشارع، ونحن نشعر بالسعادة. كان التيّار لكهربائي قد انقطع في الغرفة الدمشقية، ولم تنقطع ضحكاتنا. لم يكن ياسر صافي يتذكّر

الجهة التي كان يشير إليها حين سألني: "هل أنت منهم؟" قال لنفسه بعد أن تأمّلني: "مَن هم؟" صارت رسومه تقفز من عينيه، لتصطدم بزجاج نظّارته الطّبيّة. كائنات طيّبة قُدّر لها أن تُمحى.

هل يستحقّ الأمر أن نحفر بإبرة، أن نبعثر تلال الشعير، أن نربط خيوطاً بين أغصان الأشجار، على أمل العثور على الكنز الضائع؟ تأخذنا الطُّرُق، تأخذ خطواتنا، تأخذ حواسنا، ومن ثمّ، تُلقي بنا في مناطق فارغة. كنّا نحبو من أجل أن نصل. في خزانة معتمة، ننظر إلى بواطن أكفّنا التي انمحت منها الخطوط، ونتساءل:

"لماذا يقهرنا النسيان؟"

حملت المرأة الصينية معها حقيبة ملأى بالصور، غير أنها أضاعت تلك الحقيبة في طريقها من المطار إلى البيت. في محاولة منها للعثور على تلك الحقيبة، صارت المرأة تتبع الطريق التي سلكتها من المطار إلى البيت. ذهبت إلى قاعة القادمين، جلست على مصطبة خضراء. لمست بيدها حقيبة وَهمية، تشبه حقيبتها المفقودة، ذهبت إلى المقهى الصغير، وطلبت فنجان إكسبرسو صغيراً، وكانت عيناها مصوّبتين في اتّجاه الحقيبة. حين عادت، كانت الحقيبة لا تزال موجودة، وضعت الفنجان عليها، وصارت تتأمّل وجوه الخارجين من صالة استلام الحقائب. حين خرجت، لتأخذ الباص الذاهب إلى العاصمة، اكتشفت أن عليها أن تنتظر نصف ساعة، فتلفّتت من حولها، ورأت كرسياً فارغاً، ولأنها لم تدخّن لأكثر من عشر ساعات، فإنها اتّجهت إلى ذلك الكرسي، وفي طريقها إليه، أخرجت من جيب معطفها علبة السجائر، لكنها لم تعثر على علبة الثقاب. سحبت حقائبها، ووضعتها حول الكرسي الفارغ، ووقفت في انتظار أن تطلب من أحدهم أن يُشعل لها سيجارتها. لم يستغرق انتظارها وقتاً طويلاً، حينها جلست على الكرسي محاطة بالحقائب، وصارت تنفث الدخان باستغراق. ربّما كانت قد غفت قليلاً. هي غير متأكّدة. حين استيقظت، رأت كلباً صغيراً مندسّاً بين حقائبها، وهو يتشمّمها، فيما وقف صاحبه يراقبه. لم يسعفها الوقت للنظر إلى الكلب، فقد رأت سائق الحافلة، وهو يفتح مخزن الحقائب، فأسرعت إليه، وهي تسحب حقائبها، ووضعتها في المخزن، وصعدت إلى الحافلة. ما إن جلست على الكرسي حتّى نامت. هي متأكّدة من أنها لم ترَ من الطريق الذي يقع ما بين المطار ومحطّة القطارات الرئيسة شيئاً. كانت نائمة. غير أنها تتذكّر أنها حلمت بالصور التي جلبتها معها. رأت حلماً طويلاً، هو عبارة عن سلسلة من صورها العائلية. كانت

حياتها كلها هناك. فصارت تبتسم وهي تحلم. رأت نفسها في الحلم مبتسمة. في محطة ستكهولم، فُوجئت أن القطار الذاهب إلى بلدتنا الصغيرة سيتحرّك بعد ربع ساعة، فصارت تُهرول جارّة حقائبها، وهي تلهث. وصلت إلى القطار في الوقت المناسب، وساعدها أحد الركّاب في حمل حقائبها إلى عربة القطار. حينها وقعت على المقعد بسعادة. صارت تتسلّى في النظر من خلال زجاج النافذة إلى مشاهد الطبيعة. هذه المرّة لم تنم. في محطة بلدتنا، كان زوجها في انتظارها. وما إن بدأت بوضع حقائبها في صندوق السيارة حتى اكتشفت أن حقيبة الصور لم تكن موجودة.

ذهب زوجها مرّتين لانتظارها في محطة القطارات، في المرّة الثالثة، لم تجده، فعادت إلى البيت غاضبة. "لمَ لم تنتظرني؟" قالت له. فأجابها ببرود سويدي:"أحياناً الأفلام العظيمة تُنتِج مرّتين".

"معه حقّ" صارت تهذي. "لقد أعدتُ تمثيل الرحلة، وسألتُ الاستعلامات في كل الأماكن التي عبرتُها من غير جدوى" "ولكن، هل كانت تلك الحقيبة موجودة فعلاً؟" سألتها. فصارت تنظر إليّ بعينين نصف نائمتين "وهل تظنّني مجنونة؟" "أقول ربّما لم تجلبيها من الصين، أو ربّما فُقدت في المطار الصيني!" أنتِ أيضاً تخطئين في الغد، يا صديقتي. بالنسبة لها، فقد كانت القيامة قريبة، لأن صورها ضاعت. وماذا عن صوري؟ أتذكّرها، ولا أراها. بل إنني لن أراها ثانية، لأنني لن أستطيع الوصول إلى بيتي في بغداد، هناك حيث تركتُ صوري. يمكنك أن تصلي إلى شنغهاي. عشر ساعات ليست مثل عشرة قرون. صوري هناك نائمة خلف السور. ولكنه السياج الذي لن يغادره الليل. العثمانيون هناك. من قبلهم كان المغول. من بعدهم، جاء الهنود بلباس إنجليزي. الصين قريبة، إذن، يا صديقتي.

"ربّما لم تكن تلك الحقيبة موجودة؟" قالت جارتي. "كنتُ أفكّر في أن أرث شيئاً. وكانت تلك الصور تعبث بخيالي. سأجلب حياتي كلها من خلالها إلى الـ (هنا) الذي صرتُ وديعته. أنا هنا لأن هذا الـ (هنا) أصبح مكاني الوحيد. يقولني كل صباح مثلما أقوله. هناك عصافير لا تُشبهني صارت تنادي باسمي. أنا ابنة هذا المكان.

"لقد تركتكِ نائمة على العشب. مثل مانييه كنتُ أنظر إليك"

"هل تعبت، يا صديقي، من الحكاية؟"

كانت قد روث لي أن الصينيين لا يملّون من رواية الحكايات. كانت شهرزاد صينية. تضحك. كانت هندية. ولكن بغداد كانت ملعب خيالها. مثل نيويورك الآن. باريس من قبل. روما قبلها. أمستردام هي الأخرى. كل المُدُن ممكنة لخيال عاشق، هو في حقيقته حقيبة سفر. كانت حقيبتي هناك. لتبقَ هناك إذن مثل شهرزاد التي بقيتْ هناك هي الأخرى. اجلبْ لي حقيبتي، وسأجلب لكَ شهرزادكَ. كنّا نرتقي الجبل. من حولنا الأعشاب خضراء نضرة، ولكن، لا أحد يمسّها، ولو بأطراف ثوبه. لم نكن نحمل مقصّاً، كان لدينا كتاب نقرأ فيه الحكاية نفسها. "قل لي إن حقيبتي كانت موجودة" "لا أفهم" "حين اتّصلتُ بأهلي أنكروا أنهم شاهدوني أحمل حقيبة من هذا النوع" "ولكنكِ وضعتِ فنجان القهوة عليها في مطار ستكهولم" "ربّما أنا اختلقتُ تلك الحكاية".

"البحر كان في حقيبتي. ركضنا إلى السفينة، وكانت الأمواج عالية. نزل البحّارة، والتقطنا معهم صورة. هل كنتُ ذلك الطفل الذي يبكي؟" "كنتُ حينها أجلس على سياج حديقة الأمة. كان أبي حريصاً على الإمساك بي، تتأمّلني رقّة بشرته، كانت يده الأخرى ممدودة خارج الصورة. هل كان يمسك بكِ؟" من غير صور، يمكننا أن نتكلّم. يمكننا أن نرى. ستسبقنا الأشباح، أشباحنا إلى قاع البئر. أعطني يدك، لنركض سوية في الحقول. سيظهر الربيع. تقول هي: "لن ترى الفراشة. الفراشة نائمة. أهذا هو الفراق؟" تقول أنت: "لا تمدّي يدكِ إلى الزهرة. الزهرة تتأمّل. عطرها يسيل على شفتيكِ" تقول هي: "بعد زنبقتَين يحلّ الشتاء. المعبد في الجبل، والصلاة في قلبي" تقول أنت: "قاربه لم يصل. أور لا تزال بعيدة. في رأسه صقر".

جلسنا على الرصيف، نبكي من أجل حقيبة، ربّما لم تكن موجودة. جلب نادل المقهى قدحَين من عصير التفّاح، وقال: "هدية من صاحب المقهى الذي يطلب منكم مغادرة المكان، وإلا سيستدعي الشرطة". نظرتُ في عينَي صاحبتي، ووجدتُها قد كفّتْ عن البكاء، وصارت تنظر إليّ بدهشة. لحظة صمت. بعدها انفجرنا ضاحكَين. ابتعد النادل، وهو يهزّ يده.

لدغتها أفعى، فقفزتْ مذعورة، وصارت تتمايل وتدور، وهي تشير إلى بقعة في الأرض. كان هنا منذ شهور رجل ثلج. نحتَهُ الأطفال، وتركوه، لكنه صار كل ليلة يدخل إلى المقهى، ويشرب كأساً من النبيذ الأحمر، وبعد أن يغازل النادلة، يعود إلى مكانه. ولأن النادلة كانت صديقتي، فقد أخبرتني بحكايته الظريفة تلك. كنتُ أحضر له كل صباح سلّة ملينة بالعنب،

وأطعمه، ثمّ أرقص معه. ولأني كنتُ أشعر بأني أقف في حضرة العمّ ماو، فقد كانت رغبة شديدة في التعزي تجتاحني. يستضعفني الحزن، وتتراكم صوري شابّة في مكان مجهول من جسدي، فأحسّ بأن كل شيء منّي صار ثقيلاً. احتضنتُها، وقلتُ لها: "سأروي لكِ حكاية من شبابي".

كنّا نغنّي:

"نحن الشباب، لنا الغد"

كنّا نقفز من فوق أسوار المدرسة الثانوية، لنكون مباشرة في السوق. نخفي كُتُبَنا، لنبدو عشاقاً صغاراً، مثل عبد الحليم في فلم الخطايا. نُسقط الخطوة الأنيقة، فلا تقع على الأرض التي رأيناها يابسة، لا بحر يحيط بها. نحلم ببدلات الوظيفة من غير أن نتذكّر أننا قد كُتب علينا أن نمرّ بطور اليرقة، قبل أن نصل إلى الوظيفة. سيكون علينا أن نخدم العَلَم، الذي سنراه في ما بعد بين يدَي القائد، وهو يخطّ عليه جملة مقدّسة. جملة لن يجرؤ قَتَلَتُهُ على مَحوها. كان العَلَم يومها ممدّداً مثل ميت على طاولة التشريح. ولكنّ العَلَم لا يموت؟ كنّا منذورين للموت من أجله. من أجل أن يكون مرفوعاً هناك. في الأعالي وفي القمم. فوق دائماً. العَلَم مكانه الذرى، فيما كنّا نسير مرتبكين إلى دوائر التجنيد، لنحلّق مثل فراشات حول تلك القماشة التي كنّا نتخيّل أنها تُجلَب من مكان مقدّس. من المعبد الذي يقع في نهاية العالم. مصنع تُزوّده الحوريات برحيقهنّ المجلوب من الجنّة. ما تيسّر لنا أن نقبّل تلك القماشة، لنمتصّ شيئاً من ذلك الرحيق، أو نشمّها، أو حتى أن نلمسها بأطراف أصابعنا. حقّ الشهداء وحدهم. نصيب الذاهبين مباشرة إلى الجنّة، من غير أن يحملوا كُتُبهم بأيديهم اليمنى.

"موطني موطني" "نحن الشباب".

خارج النشيدَين لم تكن هناك سوى الكلمات المبتذلة. لم تكن هناك سوى الحياة التي تقبل النقض. نُنشدهما للحجر والبشر والبقر، فيفهم الجميع المغزى المدوّي. قبل (نفُذْ، ثمّ ناقش) كنّا ندور مثل ثيران مكبّلة حول المطحنة مردّدين: "ها الليلة حلوة وجميلة"، ولم يكن هناك سوى ليل مجازي. ليل يقبل من (أجمل الشعر أكذبه)، ولم يكن هناك جمال يكفي لنسيان جوع المعدة والعين والقلب والعقل واليد والغريزة. في لحظة غفلة، تخيّلتُ أن جميع الجالسين في مطعم الشباب الذي يقع في الربع الأوّل من شارع السعدون ببغداد كانوا يردّدون قبل أن يأكلوا طعامهم "نحن الشباب لنا الغد"، ولكننا كنّا نصعد السلّم مهرولين إلى الكهولة. ليتنا

صرنا الكَهَنَة في آخر طبقات الزقورة السومرية، لكي لا يسألنا أحد عن أعمارنا، فنُساق إلى الجندية، ومن ثمّ إلى الموت. كان هناك عثمانيون يقفون في طريقنا دائماً.

كنّا شباباً. ما معنى تلك الجملة؟

ساحة العرضات، حيث التعداد الصباحي والظهري والليلي وبكاء الديكة في القرى المجاورة وأذان الفجر، حيث الصلاة خير من النوم. قبلها العمل الطوعي (الإجباري) في مشاريع عبثية، يُشرف عليها رفاق بعثيون، من أجل أن لا يكون هناك خطأ شبابي في الحساب وفي الضمير. بعدها انتهك جيش المهدي بمخيّلة وَليّ العصر وأمير الزمان الأزقة، ليكون الذبح شبابياً. لطالما تمنّى العراقيون أن لا يكونوا شباباً، وأن يذهب بشارة الخوري ومعه الأخوان فليفل إلى المطعم، ليأكلوا على حسابنا وجبة (علي شيش) طيبة، وليُنصتوا لألم الطائر الذهبي. لنا الغد. أيّ غد؟! كان هناك غد يسبح مع البطّ في حديقة الأمة، ولكننا أهملنا النظر إليه من أجل ساقي بلقيس. الآلهة عزيزة، ولكنها هي الأخرى تكذب مثل الشعراء تماماً. سنكذب كثيراً من أجل أن يكون الأخطل الصغير صادقاً. لنا غد مبهم وطريح الفراش. معتوه ربّما. "واكف على المسعودي" نعم، غدنا يقف هناك مثل شبح متوتّر. ولكنه لا يقع في المستقبل. غدنا يمحو يومه من التقويم الميلادي. إن ذهبتَ إليه في الجمعة، فإنه يعيدك إلى سبت، كنتَ قد عبرتَهُ. خدمة ذلك الغد ستأكل شبابنا. البعض ذهب إليه، ولم يعد. التهمه الغد. التهمته جنّيات ذلك العَلَم الذي لم يعد مَرئياً إلا واقفاً وراء القائد، وفوق دوائر التجنيد. ليت الغد كان لسوانا. نحن الشباب لم يكن لنا غد. كانت لنا البندقية والعدوّ المجهول وكفر المَنسيين وعبث المقامرين. كان الغد يجرّنا بقوّة إلى ماض، صارت براءته محلّ شكّ.

الآن بعد أربعين غد (كل غد هو سنة)، بعد أربعين شمساً (كل شمس هي جهنّم)، لم يأتِ ذلك الغد. (يها الخلك/ من شاف ولفي واعرفه/ طلع خاين ذات/ ما عنده وفه) شيء من هذا القبيل الذي يجب أن نعترف به، ونحن لم نخرج من الحرب سالمين. مَن لم يقتل، ولم ترتطم قَدَماه بجثّة، ولم يغشّ في الامتحان، ولم يدفع رشوة، ولم يحمل هوية مزوّرة، ولم يلفّق حكاية، لم يعشها من أجل أن يُشفق عليه الآخرون، ولم يخنْ أصحابه دفعاً للشبهات، ولم يتواطأ مع الباطل، ولم يسكت على الحقّ، ولم يثنِ على الخيانة، ولم يصفّق لبلاغة الببغاء، كان نبياً.

لم نكن أنبياء.

بعد ١٩٧٥، صار اللبنانيّ يقتل لبنانياً لا يعرفه. ما الذي كان يفعله قبل تلك السنة؟

بعد ٢٠٠٥، صار العراقي يقتل عراقياً لا يعرفه. ثلاثون سنة، والسبب نفسه. هنا وهناك، كان لسان حالنا يقول: "نحن الشباب"، وكنا نتدرّب على القتل. الغزاة أكثر معرفة بغيرتنا الوطنية من آبائنا. لم نرَ إلا قطعة من السماء، هي التي تُظلّل كوخَين: كوخي وكوخ عدوّي. لم نرَ من الأرض إلا ما تقع عليه أقدام الناقة التي نسوقها في خطّ، لا يراه أحد سوانا. ملكنا الأرض، لأننا لا نرى، وملكنا السماء، لأننا لا نسمع سوى النشيد. نحن الشباب، ولكن، من غير أن يكون لنا غد. غدنا الممكن الوحيد أن نكون كهولاً، يائسين، مدفوعين خارج الطريق ومَنسيين. سيكون العلم في غنى عنا. سيكون الوطن في حاجة إلى قَتَلَة آخرين.

أنا شخصياً أقيم الآن في الغد. ما هذا الغد؟

لم أكن أتخيّل أن يكون ذلك الغد نوعاً من مقام سيكاه. أحصد الآن نباتات خيالية، تذهب الفكرة بي إلى الجريمة. يمكننا أن نكون شباباً من غير أن يُرافقنا ذلك التاريخ المضني. يمكننا أن نلمع مثل فراشات منتحرة. يمكننا أن ننزلق بهدوء على صخرة رطبة إلى الهاوية. ليس إلى هذا الحدّ من الحزن، يكون الشباب مجازياً. "هل كنتُ شابّاً يوماً ما؟" القلب قبل العقل يبكي. سيكون للجنون دائماً هامش عريض في حياة العراقيين. في يومي الجامعي الأوّل، انتشر خبر انتحار أحد الطلاب الزملاء. قدم من العمارة (جنوب العراق)، ليقفز من الطابق الخامس من بناية إسكان الطَّلَبَة في الباب المعظّم. اختصر زميلنا الطريق إلى الغد. لم يعذّبه عيسى ولا بناته النصرانيات، ولم يذهب إلى شارع النهر، لتلمع في عينيه سبائك الذهب، ولم يُحرج نفسه في نقاش عبثي حول جدوى العمل التطوّعي في مزارع عبثية. ولم ينتظر المشاركة في حفلة إعدامات. اختصر الدرب، ليصل وحيداً.

كان زميلنا الذي لم نتعرّف إليه قد سبقنا شابّاً إلى الجنّة. كان له غد هناك. غد مختلف عن غدنا. يوماً ما سيستقبلنا بنشيد الأخوين فليفل، وهو يضحك. لكننا، يا صديقنا، قد بكينا من بعدك كثيراً، ونحن نردّد النشيد نفسه. كان شبابنا عقوبة. كان ذنباً ارتكبه الآخرون، ودفعنا ثمنه. لقد كنّا نحثّ الكهولة على المجيء سريعاً. ربّما كنّا في حاجة إلى إعادة تعريف

مفهوم الشباب. كنا في حاجة إلى ترويض الذئاب التي كانت ترافق خطواتنا. "كانت الخراف من حولنا كثيرة". ولكن الذئاب لا تنفع في حالة من هذا النوع سوى في ارتكاب جريمة جديدة. أمن أجل هذا نكون شباباً؟ كان علينا أن نرقص بعيداً عن المأتم. أن نقود الذئاب إلى الغابة، ونعلّمها كتابة الأشعار، والعزف على الناي، والتمتع بأكل العشب. كان علينا أن نُعلم النهار أن شمساً جديدة تليق به، أن نُعلم الغد أن يثقَ بنهار مختلف، وأن نحظى بلقاء ذئاب نباتية. وكان علينا أن لا نثق إلا بغد يُشبهنا. ولكننا خذلنا النشيد حين لحقنا به. خذلناه حين اعتبرناه جزءاً من أمسنا. عليّ الآن أن أقطع الجملة، فأقول: نحن (مَن نحن؟) الشباب (ما عمرنا؟) لنا الغد (أين يقيم؟)

حين فتحتُ عيني، لم أرَ أمامي سوى ألكسي، أما جارتي الصينية، فقد اختفت.

كان صمتي يضيّق الخناق على ألكسي، الرجل الذي ساعدني قبل أيّام في تشغيل جهاز التصوير في المكتبة. كان مُحرَجاً وهو يقول: "حزنتُ بسبب تلك الحكاية"، لم أسأله لماذا عيناه تشعّان وقلبه ينبض بسرعة؟ كانت تقنيات الصداقة بيننا لمّا تزل بعد ناقصة. كنتُ أفكّر في المعادن والخبز، بالقوّة نفسها. طائر برانكوزي الذي أخذ هيأة فتاة تركية تبيع الخبز في أحد أحياء برلين. كان صباحاً وَهمياً، حين مشينا أنا وحسن حدّاد تحت الندى، لنشتري الخبز والقيمر (قشطة عراقية). أخبرتُ صديقي الرسّام أن هنالك حياً في الشام، اسمه (القيمرية). صرتُ أفكّر في نساء ذلك الحي، القيمريات. لو كنتُ بائعاً جوالاً، لما فارقتُ ذلك الحي. الأندلس، يا صديقي، كلها هناك. نافوراتها وحدائقها وزخارف قصورها وموشّحاتها ونوافذها وأروقتها وخمورها وأنهارها وبنو الأحمر. بنو الأحمر رسّامون، خلقهم الله ليكونوا أصدقائي. "لقد تأخّرنا، يا صديقي" يبتسم حسن مستفهماً. يتوقّع أني أقصد شيئاً آخر. كانت الفتاة التركية قد وضعتْ رغيف الخبز في كيس، وتنتظر أن أدفع لها ثمنه. سوف يكون علينا أن نمشي في الزمن بالمقلوب، فيكون الأمس غداً، وما بعده بعد الغد، والأسبوع الماضي أسبوعا قادماً، والسنة المنصرمة سنة جديدة. "يستحقّ الخبز أن نأكله ساخناً" قال حسن في محاولة منه لاختصار المسافة، أو على الأقلّ، لانتشالي من فكرة طارئة وغامضة، تتعلّق بعلاقتنا بالزمن.

قلتُ لألكسي: "نظنّ أننا نمشي. في الحقيقة هناك مَن يمشي بنا" "أقدامنا" قال ضاحكاً وهو يشير إلى أقدامنا الأربعة. تخيّلتُ صورة من

مارسيل دوشان. عارية على السلّم. قَدَمَان. أربعة. عشرات الأقدام. السلّم نفسه كان متعدّداً. تهبط تلك الفتاة أم تصعد؟ لا أحد منّا يمشي إلى الوراء. ولكن، هل هذه الفكرة الواقعية صحيحة، إذا ما كانت الحقيقة هي الميزان؟ كنتُ أراقب قَدَمَي حسن، ونحن نمشي في حديقة القيامة. أنا أسميتُها هكذا. قَدَم على الأرض، ولكن القَدَمَ الأخرى التي لا تزال محلّقة في الهواء لا تقع إلا بعد أن تمتلئ بنبوءات حالمة. هناك مكان آخر كانت تلك القَدَم تحلم في الوقوع عليه. الخطوة التي لم تتحقّق لا يلغيها الاضطرار. يعيش صديقي مكتفياً بذاته. رسومه تلحق به. أما علاقته بالخارج، وهو معنى بذلك الخارج أكثر من أيّ رسّام عرفتُه، فإنها لا تُرضي الشروط التي وضعها لحركته. ينفعل بما يراه، لكنه ذلك الانفعال لا يرضيه. ذلك لأنه يفكّر في تحرير ما يراه من صورته مثلما يحلم في أن تقع قَدَمه، الأخرى دائماً على المكان المناسب لها، وهو ليس ذلك المكان الذي ستقع عليه واقعياً. عاريات دوشان يقدّمنَ صورة مثالية عمّا يكون عليه حال المرء وهو يعيش توزّعاً حائراً ومرتبكاً بين حيوات متعدّدة. لكل حياة من تلك الحيوات مكانها وزمانها الخاصّان.

"الأقدام لا تمشي بنا، بل نحن نمشي بها"

مزّة أخرى نُخطئ التقدير.

كنّا قد عثرنا الليلة الماضية في أحد الأزقة القريبة على مطعم هندي. ضربة قَدَم واحدة تنقلك إلى مكان بعيد. ليكن ذلك المكان كلكتا، لكن، كما يتخيّلها قارئ لأشعار طاغور. مدينة الحكاية التي تُلهم التحليق، وقبضة الورد المنثورة على قبر عاشق شابّ. كانت الفوانيس الزرقاء في تلك العتمة تُطلق أبخرة، تُذكّر بتلك الأبخرة التي لا تزال تنبعث من مصباح علاء الدين. الفراشات ميتة على الزجاج الساخن، أجنحتها لا تزال تتحرّك في مشهد، يقبض على الاحتضار في أنفاس الكلمات الأخيرة. اخترنا منضدة فارغة، وجلسنا من حولها، وبدأنا بقراءة دليل الأطعمة والمشروبات. بعد لحظات من الدهشة، صرنا نضحك. الأيكة البعيدة على جانب النهر. الفيل وقد عطس في الإبريق. مظلّة مطرية في يوم مشمس. الفقاعة النائمة. ذكرى ليلة قائظة. التلويحة الأخيرة لمسافر، لا يحمل حقائب. هذه أسماء بعض الأكلات. أخبرتُ زوجتي أن أسماء الحارات والأزقة في دمشق هي الأخرى تحيل إلى الشعر. كنتُ أفكّر بأفعى الكوبرا التي ترقص على أنغام الناي. ربّما تكون نائمة تحت المنضدة التي كانت مغطّاة بشرشف فسفوري الألوان. تذكّرتُ خطوة حداد الضائعة، فاقترحتُ

على زوجتي أن نؤجل الإبحار إلى جزيرة المأكولات إلى الغد، ليكون صديقنا القادم من لايبزغ معنا. "لنكتف اليوم بنقيع الأعشاب الغامضة". رشفة واحدة تكفي. اللون والطعم والنكهة تآمروا، من أجل تتوقّف الأرض عن الدوران.

ضحك ألكسي حين اعترفتُ له بأن صديقي الرسام كان محظوظاً، لأنه لم يكن معنا تلك الليلة. لقد رُمينا خارج المعجم. لم تكن الأشياء لتقع على الأرض إلا عن طريق الخطأ. طوى اللسان معجزاته البلاغية مثل قدّيس أعمى، وبلعت الحنجرةُ أناشيدَها، وصارت المعدة تقرأ مقامات مَنسية. السائل الذي ذهب جزء منه إلى الدم أيقظ في متحفي الخيالي صور نهر الغانج المكتظّ برؤوس مئات الألوف من الهنود. من هناك، من معدتي، وقد انزلقتُ إليها محترقاً، كنتُ أنظر بحيرة إلى تلك المخلوقات المجازية. "كنتُ أمشي على الماء والرؤوس من تحتي".

في اليوم التالي، وفيما كنّا جالسين، حسن وأنا، على مدرج إسمنتي في شارع كودام، صرتُ أنظر إلى قَدَمه التي قُدّر لخطوتها أن لا تقع على ذلك الشارع الذي ضبَّبته أبخرة السائل الهندي، وكدتُ أحدّثه عن نجاته، ولكنني أحجمتُ. أيّة نجاة بعد الغرق! أيّ حضور بعد الغياب! كانت سفننا المحطّمة ملقية على شواطئ، صار الوصول إليها عسيراً، وكانت جملنا تصنع أقواساً من رماد، يمرّ من تحتها بشر عابرون. كنّا نتذكّر. وحين يتذكّر العراقيون، فإن الديدان تبدأ بالتهام أجزاء من أقدام العرش. تلك الأجزاء غير المَرئية هي المشاهد الأخيرة لجنازة، لم تصل بعد إلى مستقرّها.

"متى يرتاح الميت؟" يتساءل حسن.

"حين تقع أقدام الماشين به على الأرض" أجيبه.

كنّا نهذي. كانت أقدامنا تسبقنا، وهي تمشي إلى الوراء. أسمع وقع خطواته في (بلد)، وهي بلدة صغيرة، مُحيت عنها البساتين. "هل قلتَ بلد؟" يسألني. ولكن، هل كانت بلد بلداً حقاً؟ لم أسأله. في المرّة القادمة، سأحرص على أن لا يسمعني. جرّب أن يذهب وحيداً إلى هناك. درّاجته الهوائية لا تزال مركونة على سياج المزرعة. لم يقبض على مقودها، لم يلمسها. أراد أن يخبر أمّه أنه يعاني من امتزاج الدم بالحليب. في لايبزغ، وهي التي كانت شيوعية، لا يعترف الأطبّاء بمرض من هذا النوع. أراد أن يقول لها إنه يودّ لو ألقى نظرة صافية أخيرة على غرفته، لكي لا يُربكه العيش في الغرف الأخرى. أراد أن يخبرها أن سلّته لا تزال ملأى بالنعناع

الذي قطفته يداها، وأنه لا يدخّن، لذلك لا تزال أنفاس قُبلتها نقية في رئتَيه. لم أخبره عن وقائع ليلة أمس، لأنني أدركتُ أن أمسه صار يتدحرج على سلّم دوشان بين قَدَمَين، تصعدان وتهبطان، في الوقت نفسه. كان لنا وقد اتّخذنا هيأة المنتظرين مزاج مَن يعبر من لغة إلى أخرى. من شاطئ إلى آخر. كان النهر ضيّقاً، لذلك فإن الأسماك لم تكفّ عن الارتطام بنا. "هل رأيتَ أحداً؟" أسأله "أنا في شكّ من ذلك عميق".

سنكذب، إن لم نعترف أن الأندلس كانت بالنسبة للكثيرين بمثابة الحياة المفقودة (المستعادة على مضض، وعلى شكل قطرات وَهمية). لو أن واحدة من القيمريات قرأت ما كتبتُه عن حيّها الخرافي، لربما ضحكتْ، ولربما اتّهمتني بالجنون. يمطّ حسن لاءه حين أسأله عن بلد. "لا يابه، لاءءء. أية بلد؟" ولكن، لديك يد هناك لا تزال ترسم. لديك شمس خبّأتها بين سعفتين. لديك أمّ أطبقت عينَيها على مشهد السياج الذي ركنتَ عليه دزاجتك الهوائية. بإطارات ومن غيرها، ستأخذني، يا حسن، بدزاجتك تلك في جولة بين بساتين بلد. كانت الكنيسة القديمة التي جلسنا قريباً منها تضحك.

رأيتك

نائماً في الحرب مثل قطعة جبن

تركتْه الأمّ مَنسياً في الرحم. لم يُنزله الحوذي، ولا سائق الحافلة، ولم يقل له أحد إن القطار لن يقف مرّة أخرى. لكي تكتمل الحماقة، وجد أن عليه أن يقتفي أثر يده على وجهه. كان يوزّع نومه على حواسه. العين وقد باركها الرّبّ بالعمى، الأذن وهي المنذورة للصفير، وقد تجشّم عناء المشي بعكّازتين في دروب الغابات، الأنف الرقيق الذي صارت خيوط الحرير تشدّه إلى روائح الأوراق الميتة. نائم في نومه. نائماً يحلم. حالماً ينام. في البندقية المَحشوّة أناشيد، في رغبته في أن يكون حياً حالما يغادر النوم. في النافذة، حيث تسيل المرئيات. ليته استيقظ ليرى، ولكنه يرى وهو نائم. في غريزته تلمع الإبرة. "يا بلادي" سيقول لأنثى الوعل، وينام. الغربية نائمة، ولا قطعان بقر وحشي. تنبأ أن تكون ليلته موحشة، وها هو يمدّ يده إلى الكأس، فيلمس جيشاً من الهوامش المَنسية في قعر الكأس.

صورتك مَنسياً في المرآة هي غدك الجالس على ظهر جاموسة.

ألم أحدّثك عن المعدان؟

سأجد متّسعاً بين قتيلين، لأروي الحكاية.

هناك كانت المياه أرضاً. يمكنك أن تذهب إلى السماء بالمشحوف. حافي القَدَمَين، وبفم يملؤه الماء العذب، ستلعب يدك بالأسماك، فيما الأشعار لا تفارق شفتيك. أضمن لك شعراً لا يستهلكه غنج نسائه. لك أن تُمحى، فلا تراك الطواويس في الطريق. لك أن تصمتَ، فلا تسمع صوتَك طيوزُ الماء. ينزلق بك المشحوف، كما لو أنك دمعة على صحن صيني. "هو ذا ابني" ستقول الزخرفة، ويقول الماضي إنك ابن سبعة. لك شهران من الحياة الغضّة ناقصان. يمكنك أن تستعيدهما حين تريد. لكنك تهوى أن تذهب إلى جزر، لم تطأها قَدَمَان من قبل. ترضى أن تضع على رأسك إكليلاً من البرغش، لترتقي سلّماً يقود إلى آلهة المعدان.

"ولكنهم مسلمون"

"نعم، ولكنّ ربّهم أنثى"

"....."

"مَن قال إن الله ذَكَرٌ؟!"

نائم على المشحوف. في تلك البزّيّة المائية، على سطح الفكرة المتحرّكة، بين زرقَتَين: زرقة الفجر، وزرقة روحك. لن يتّهمك أحد بالبذخ، في الوقت الذي كان فيه شبحك يضع قَدَمَه بين قَدَمَي ملاك، ليُسقطه، ويأخذ مكانه.

"هل كنتَ ترى؟"

"رأيتُ الله"

تضحك جذلاً، كما لو أنك رأيتَ صديقاً قديماً. في تلك البقعة، تلك الفجوة، تلك الفرصة المثالية، ما الذي يمكن أن يراه المرء؟ لا فرق هنا بين ما يتخيّله المرء وبين ما يراه. ما من عتمة، لكي نتحدّث عن وَهم بصري. العين ترى وتتخيّل في الوقت نفسه، وهي لا تخون وظيفتها في الحالين. تمرّ الأشكال والمساحات والخطوط من خلال العين، لتتنفّس معانيها في الدماغ. العين تتخيّل بالطريقة نفسها، فيكون الله صديقاً، لأنه يعمل بالطريقة نفسها. هناك مختبر للخليقة التي لم ترَ النور بعد. الشعير في المزرعة. المطر في ليل صيفي. قَدَمَا صديق بين الباب وغرفة الضيوف.

نائم على المشحوف. تلك وصفة لنعيم فائت.

كان الله قريباً، ليس لأن السماء كانت قريبة.

لم تركتني إذن؟

لن أسأل أحداً بعينه.

أجلس على الحافة في نهار صيفي. تصل قدماي إلى الماء. كانت الأسماك الصغيرة تلهو من حول قدمي. لن يمز الغزال بي. كنت بعيداً عن الغابة، وعن البيت. حين قررتُ أن لا أكتب إلا ما أراه، خُيل إليّ أن الرسام صفة تليق بآدم. ولكنه الرجل الوحيد الذي فقد امرأته. الرجل الذي يتكتم على حزنه، ويسعى إلى العبور إلى الجانب الاخر من النهر وحيداً. "لن تكون قوياً دائماً، يا صديقي" قلتُ له حين عبر شبحه قريباً من جثتي. كنتُ الميت السعيد على الضفة. صارت الأعشاب تستلهم خضرتي. سأكون أيقونة للضفادع. غنّي، يا بلادي، بصوتي الثمل. هناك قبرة تتذكرك. أخبرتُ رافيا قضماني أنني حملتُ في حقيبتي صابونة، صُنعت في حلب. "من السويد؟" سألتني مندهشة. الوصفة الوحيدة التي تتماهى مع كيمياء جسدي. قالت: "سأغرقك بالصابون البلدي". أستسلم لهواء الصابونة، وأنجو من هلع الجلد، وأحلّق بجناحي حسناء دمشقية. أرتجل أغنية للحمام، حين يسيل الماء بكلماتها إلى المجرى، تنبعث رائحة الياسمين من الفراغات التي تقع بين حرف وآخر من حروف تلك الكلمات. هذه الشام تتثاءب بفم روماني. نهار طويل مثل راقصة فلامنكو أخذنا بين الأزقة. في ذلك الوقت، كانت الصابونة التي عادت إلى وطنها نائمة في الفندق. رائحة الأزقة حملتني إلى باحات البيوت الدمشقية. رصفنا الكراسي بشكل دائري حول النافورة، وحين جلسنا، رفعنا أقدامنا، ووضعناها على سياج رطب من الآجر. كنا أربعة، ولم يعد أحدنا يرى الآخر إلا متقطّعاً، من خلال مياه النافورة. أما الموسيقى، موسيقى المياه؛ فقد تسلّلت عصافيرها إلى حواسنا. كانوا من حولي يضحكون، فيما كنتُ صامتاً أفكّر بصابونتي التي لم ترجع إلى بيتها تماماً.

من أجل أن تصل إلى قلب الصابونة، عليك أن تخترق سطوحاً متراكمة ومتداخلة بعضها بالبعض الآخر. هناك نسيج من مادة متناغمة، يمكن تفتيته أو تقطيعه من غير أن يفقد الإيقاع الداخلي الذي يجذب بعضه إلى البعض الآخر. يمتزج ذلك الإيقاع بالجسد، ما إن يمسه، من غير ماء حتى، ليترك شيئاً من نغمه هناك. حتى عن طريق الشمّ يتسلّل ذلك النغم خفيفاً،

منساباً، هادئاً، وإن كان قوياً. تثق الصابونة بنفسها، من خلال امتزاجها بما تفعله. الأهم من هذا كله أن صابونتي الحلبية صارت بمثابة المُنقذ الذي ألجأ إليه في الأحوال كلها تحاشياً لأعراض مرض حساسية الجلد الذي انتفض فجأة، وبشكل شرس.

لن أنصت إلى أحد سواكِ، يا مخلّصتي.

لا شامبو، لا صابون سائل لحوض الاستحمام، لا معطّر إبط، لا دهن للشعر، لا عطر بعد الحلاقة، ولا بلسم. وحدكِ أنتِ، وليذهب باكو رابان إلى حقوله. بل لأذهب أنا إلى جحيم الصابون الذي لا يُطلق عطراً. الصابون الصامت والناعم والمهذّب في الوقت نفسه. ذلك الصابون الذي يلتحم بالجسد في معركة مائية، من غير أن يطلق صوتاً. يفقد أجزاء منه، ويسرق أجزاء من جسدي، من غير أيّ ضجيج. كلّما مسحته بجسدي، شعرتُ بنكهة الأعشاب التي هو صنيعة مؤامرتها، وهي تتسلّل إلى خلاياي. حقول في البرّيّة، مشاء وحيد وذئاب كثيرة تنظر إليه من بين الأشجار. من قبل، كنتُ أمرّ برفوف العطور في الأسواق الحُرّة بالمطارات، وأقف مستنشقاً الروائح التي تأخذني شرقاً وغرباً، باحثاً عن ملهمي الخيالي. وبعد أن حلّت بي الكارثة، صرتُ أتحاشى النظر إلى أقسام العطور في تلك الأسواق، وأنا أشعر بالأسى والظلم. ذات مرّة، قضيتُ عشر ساعات في مطار هيثرو في انتظار طائرتي الذاهبة إلى الكويت، من غير أن أسترق النظر إلى ما كانت تعرضه الأسواق من عطور. كان شعوري بالألم عميقاً، ولا يساويه إلا حرماني من التدخين.

صابونتي مخلّصتي صارت مستقبلي.

"نحن هنا في دمشق"

"دمشقك أنتِ"

بدلاً من أن نذهب إلى مقهى الروضة، كما اتّفقنا، قزرنا عادل السيوي وأنا أن نجلس في حديقة عامّة، تقع قريباً من فندق الفورسيزن. كنّا نتحدّث عن علاقة المرء بأثاث بيته. كانت وصية الأشياء المفقودة تلحّ عليّ. أقام فاضل مزاداً، وباع أثاث مَرسمه في سويسرا، وغادر البلد الذي يحمل أوراقه الثبوتية، بشكل نهائي. لم يعد لديه أيّ شيء هناك. بل إنه لا يملك شيئاً في أيّ مكان من العالم. حقيبة سَفَره هي كلّ ما يملك. صار الحاسوب خزانته الخيالية. يحمله معه أينما ذهب. صار الجزء الأعظم من

حياته افتراضياً. قلتُ لعادل: "لقد بكيتُ حين عرفتُ أن بيتي في بغداد قد أفرغ من أثاثه الذي لم يكن في إمكاني أن أتخلّى عن قطعة واحدة منه. لقد شعرتُ بأن جزءاً مهماً من حياتي ذهب إلى الغياب. ذهبت نظراتي ولمساتي وعواطفي وغيرها من أسباب الحنين والذكرى إلى العدم" حين لمحتُ نظرة الإشفاق في عينيه، تذكّرتُ أنني لم أستعمل ذلك الأثاث منذ عشر سنين. هذا يعني أنني لم أعد في حاجة إليه. قبل ربع قرن، أنجز فاضل عملاً فنياً، هو عبارة عن حقيبة سفَر مليئة بالأحجار، هل كان ذلك العمل نبوءة؟ له أم لي؟ فكّرتُ أنني لم أكن أجرؤ على التخلّص من ذلك الأثاث الفائض. لعب القدر لعبته بشكل حسن هذه المرّة. كان هناك عبء عاطفي، أحمله معي أينما مضيتُ. علاقة غامضة، غير عملية، ولا معنى لها. مثل تلك الأحجار التي ملأ بها صديقي حقيبته. كان عليّ أن أنفصل عن ذلك الأثاث، ما دمتُ قد استبدلتُه أثاثاً اخر، وإن جرى ذلك الاستبدال في مكان آخر. قال لي عادل: "أفهم ما تعانيه. خاصة وأن لك بيتاً دائماً هناك. في بغداد. مادام الأمر كذلك، فإن البيوت الأخرى كلها التي تقيم فيها بعيداً عن بغداد هي بيوت مؤقتة. هذا الأمر ينعكس على نظرتك إلى الأثاث الجديد. سيكون مؤقتاً هو الآخر" "ولكنني داخلياً مقتنع أني لن أعود إلى ذلك البيت الذي وصفته بالدائم" قلتُ له: "لقد خدعنا باشلار حين أوهمنا بأن لقطع الأثاث أرواحاً. لم تكن خزانة الملابس إلا صندوقاً خشبياً". كان الطقس جميلاً. يقترب منّا بائع شاي متجوّل، فأشعر بالدهشة. كنتُ قد نسيتُ أن ذلك المشهد كان مألوفاً في شوارع بغداد وأسواقها. نشرب الشاي في ظلّ شجرة صفصاف، كانت أغصانها تهتزّ بهدوء. حدّثته عن صديقي الشاعر الذي كان كلّما دخل في نزاع مع زوجته، يبدأ بتكسير الصحون، إلى أن أُصيبت زوجته بالعادة نفسها، فصار الاثنان يتسابقان إلى المطبخ لتكسير الصحون كلّما تنازعا. كأنه لم يسمعني، سألني عادل:"إذا كان مشهد باعة الشاي المتجوّلون مألوفاً لديك، فلماذا اندهشتَ؟" قلتُ له:"لم أصدق. لقد خُيّل إليّ أنني أنتقل إلى مكان آخر. وصرتُ للحظة في حيرة من أمري. إما أن يكون المشهد الذي أراه خيالياً أو أننا، أقصد أنا وأنت والحديقة من حولنا، كائنات خيالية. لم يكن في إمكاني أن أصدّق أن في إمكان الواقع أن يستوعب المشهدين معاً". كان يمكننا أن نكون في مكان اخر.

"هل حملتَ معك شيئاً منه؟"

"أبداً. مع أني كنتُ متأكّداً أنني لن أعود إليه"

"ألم تحتط لفشل مغامرتك؟"

"لم يكن لديّ عرض واضح، لذلك لم أخطط سوى للاستمرار في هربي بعيداً"

"بأيّ معنى؟"

"قلتُ لنفسي هذه المرّة لن أعود. بغَضّ النظر عن الثمن الذي سأدفعه. ليكن الشقاء كاملاً، ولأبدأ حياتي من نقطة غربة حقيقية".

قلتُ له إنني اكتشفتُ أن حياتي كلها كانت كذبة. كان الأصدقاء يأتون من الخارج، ليُزوّدوني بهواء الإنعاش، ومن ثمّ يرحلون. اكتشفتُ أنني غرّرتُ بنفسي، واستعملت الكتابة من أجل أن تكون الخديعة ممكنة. كنتُ أستمدّ من الكتابة شجاعة، ما كان لها أن تجد لها صدى في الحياة المباشرة. كانت الكتابة بمثابة تمرين على العيش. أقبل على أصابعي ملوّثة بالحبر، وكأنها إله أخير. لقد كنتُ أكتب كمَن هو على يقين من أنه يقوم بكتابة نصّه الأخير. كانت الوصية تلتهم سطورها. شيء مثل الكذب، ولم يكن كذباً، ذلك الشعور الذي كان يتسلّل إلى سلوكي في الحبّ والانفعال والسعادة والحزن والرغبة والكتابة والحلم والوعد والتأمّل والتخيّل والارتباك. لقد سمّم ذلك الشعور قدرتي على أن أعيش حياتي مطمئناً. كنتُ في قلب الفجيعة. كان الكاتب مني في خطر، لذلك قرّرتُ أن أمضي إلى الأقاصي. أنا على يقين من لا أحد سيقف معي. لا أحد سيتبنّى ما أقول. وحدي سأقف في الغربة، كما لو أنني لم أغادر بيتي. سأقول لهم: "التحقوا بي" وأطلق ضحكة عالية. لن أكون خائفاً.

قلتُ له إنني نجوتُ بالكتابة، ومن خلالها، وهذا يكفي.

في الجانب الآخر من النهر، كانت هناك متاهات كثيرة.

خشيتُ أن يكون النهر عميقاً، لذلك لم أجازف في عبوره مشياً، لأنني لم أكن قد تعلّمتُ السباحة بعد. من بين الأشجار، صرتُ ألقي نظرتي بحثاً عن جسر أو قنطرة خشبية. رسم أحدهم على جذع شجرة خارطة، كانت تشير إلى وجود قنطرة، تقع على بعد مئات الأمتار، فقرّرتُ أن أمضي إليها. على القنطرة، في وسطها، رأيتُ صيّاداً بقبّعة من القشّ. كانت الشمس، وهي تقع عليه، تقسمه نصفين: نصفاً معتماً، ونصفاً مضيئاً. تقدّمتُ من النصف المعتم، ووقفتُ إلى جانبه، وحيّيتُه. بدا الرجل منشرحاً، وبمزاج حسن.

"رأيتُك من بعيد، يتوهّم المرء حين يراك بأنه لم يرَ مسافراً من قبل. ضياع كثير يتعثّر بقَدَميك. أين حقيبتك؟"

"جئتُ للقاء صديق صديقي، ولم أجده"

"في إمكانك أن تعدّني ذلك الصديق، إن رغبتَ"

"ولكنك تبدو مشغولاً؟"

"لا عليك. اجلس على تلك الصخرة. إذا ما توفّقتُ في صيد سمكة كبيرة، ضمنا غداءنا".

كان الوقت أزرق.

رأيته يقبّل السمكة التي اصطادها.

كنّا في انتظار الغداء حين أقبلتْ. قال: "إنها زوجتي" قالت: "لقد رأيتُك صباحاً" كانت تقطف الأزهار البرّيّة. قال متسائلاً: "تعرفينه إذن؟" التفتنا إليه سوية. لم يقل شيئاً. قالت: "هل تهوى الصيد، وتمارسه؟" "الأسماك لا" قلتُ لها، فابتسمتْ. كانت تنّورتها قصيرة، فكانت تلامس الأريكة التي جلستْ عليها بفخذين عاريين. حين قلتُ لها إنني كنتُ في باريس. تساءلتْ: "لديك أقارب هناك؟" قلتُ: "لا، لديّ أصدقاء". "اروِ لي ما حدث لك هناك. أنا أحبّ القصص الباريسية. أعجبني فلم غودار باريس والآخرون" قالت.

قال لي: "ما إن تخرج من محطّة سانت لازار حتّى تجدني واقفاً في انتظارك" كدتُ أشكره على أنه وهبني فرصة لرؤية تلك المحطّة التي لم أغادر الميترو فيها من قبل. ولأني أهوى التنقّل في باريس عن طريق المترو، فإن الذهاب إلى محطّة جديدة يُعدّ بالنسبة لي اكتشافاً يزيد من سعة معرفتي بالمدينة التي أنا مُغرم بقاعها، مثلما أنا مُغرم بفضائها. فرشتُ خارطة المترو، وصرتُ أمشي بدلالة إصبعي على الخطّ الذي يؤدّي إلى تلك المحطّة. كنتُ في قمّة نشوتي، وأنا أغادر قطار الأنفاق، لكنني بعد دقيقتين، أو ثلاث، شعرتُ أنني قد وقعتُ في فخّ معقّد. لم تكن تلك المحطّة سوى متاهة متشعّبة ومتشابكة الدروب. وسط آلاف الناس الذين كانوا يركضون ذاهبين إلى أهدافهم المحدّدة، كنتُ الوحيد الذي أخطأ الطريق إلى هدفه. بعد عشر دقائق من المشي تحت الأرض، تأكّدتُ من أنني لن أعثر على منفذ للخروج. كلّما شعرتُ بأني أقترب من الفرج،

تأخذني قدماي إلى مكان مغلق. حين تأكدتُ من ضياعي، صرتُ أتسلّى في النظر إلى العابرات، مهتماً بالتعرّف على ذائقتهنّ الجمالية في الملبس والمكياج وقصّات الشعر وحين يخلو المشهد من عابرة مميّزة، كان بصري يذهب إلى الجدران المزيّنة بصور مشوّقة، حيث المكائد البصرية المتنوّعة. رسوم وإعلانات وإشارات ذات دلالات ثقافية، غاية في السعادة. أخيراً قرّرتُ أن أجلس على مصطبة، لا لأنني كنتُ متعباً، بل رغبة منّي في نسيان صفة (ضائع) التي صارت تُلحّ على مخيّلتي. بالنسبة لي، لم يكن الوقت ضاغطاً. كان لديّ من الوقت الفائض أكثر من نصف ساعة. ولكن، ما إن جلستُ حتى صرتُ أتخيّل نفسي، وقد حُبستُ وقتاً طويلاً تحت الأرض من غير أن تُتاح لي الفرصة، للوصول إلى صديقي في الموعد المحدّد. حينها فقط شعرتُ بالإحباط.

صار الوقت يقرصني ويقوّض نشوتي.

أنظر إلى الساعة في معصمي، وأتخيّل أميالها تركض. الوقت عدوّ. يُبطئ حين نريده مسرعاً، ويُسرع حين نرغب في أن يكون بطيئاً. في وضعي، كان الوقت يركض مثل عذاء إفريقي. "لن أسبقه مهما فعلتُ" قلتُ لنفسي. وقفتُ مستقيماً مثل جندي في حالة تأهّب، ومشيتُ واثق الخطوة. بسبب تلك الثقة، قرّرتُ أن أغيّر عادتي في عدم السؤال في أثناء السفر. كانت تلك العادة قد أخذتني إلى أماكن، ما كنتُ أحلم في الوصول إليها. فجأة كنتُ أقف أمام تمثال بلزاك الذي نحته رودان. ذات مرّة، عثرتُ على يدي لويزا بورجوا عن طريق المصادفة. في حدائق توليري، رأيتُ أعمالاً لكارل أندريا لأوّل مرّة. كان المشي من غير سؤال يُتيح لي الوصول إلى مناطق مدهشة. لكنني هذه المرّة كنتُ محاصراً بالوقت. صديقي الذي لم أره منذ ربع قرن قد يشعر باليأس، إن لم أحضر في الوقت الذي اتّفقنا عليه، ويذهب متهماً إيّاي بأنني لا أزال أنتسب إلى شعب، لا يحترم الوقت. كنّا في الماضي نقول: " موعد إنجليز" للتثبّت من أن الموعد لن يكون عراقياً، أي ممطوطاً ومرتخياً وسائباً. وبالرغم من توتّر أعصابي، فقد قرّرتُ أن لا أستعرض لوعتي إلا في حضرة فاتنة. ومن حسن الحظّ أن أوّل الجميلات العابرات كانت تُجيد الإنجليزية. قالت لي بصرامة: "اتبعني".

تبعتُها كمَن يذهب إلى غيبوبة. كانت الممرّضة التي نشرت المخدّر في جسدي تسبقني بإيقاع خطوتها الذي صار يتسلّل إلى جسدي بحيوية أعضائه. مباركة، أيّتها الأرض، وأنت تقودين إلى السلالم التي صار ضوء النهار يسترخي على درجاتها العلوية. حين تركنا السلالم الكهربائية، التفتتْ

إلي، وفتحت ذراعيها، وكأنها تقول: "كلّ هذه الأرض المقدسة سانت لازار" انحنيتُ لها، وتمنّيتُ لو أني قبّلتُ يدها. غير أن عينَي ألهمتني اشتباكاً بصرياً اخر، جعل من مؤخرتها مشهداً ماضوياً. كانت ساعات (أرمان) أمامي. كم أنتِ كريمة، يا باريس. أرمان كله هنا. ابن تاجر الأنتيك، المغامر الذي بعث الحياة في المواد المهملة، المواد الهشة من وظيفتها الأصلية، ليصنع منها نفائس، تهب الزمن لمعان الموشّح الأندلسي. يا زمان الوصل، ساعات أرمان تُطوّق الزمن بجيوش من الأحبة، الشعراء العشّاق المثاليين، البنائين، الحرّاس الساهرين على الرقة، الأرقين في لحظة إشراق، المجانين، وقد تمّ الاستغناء عن العقل في سباق الخيل، الجالسين إلى جوار البجعة النائمة. كان الوقت يهذي، وقد أمسك أرمان بقرنَيه، ليهمس في أذنه كلاماً عفا تبقى من العمر.

"أهبك شيئاً من المدينة من أجل أن تكون عاقلاً"

وإذا ما رأيتَ رجلاً عند أرمان (الفنان الفرنسي الذي عاش بين عامي ١٩٢٨ و ٢٠٠٥)، فلا تسأله عن الوقت. سيُشير بسخرية إلى الساعات. ساعات أرمان التي تقول إن للوقت معنى واحداً، لكنه غير محدّد. الأوقات متشابهة، بعضها يدخل على البعض الآخر، كما يفعل اللاجئون في مخيّمات اللجوء. ما من وقت في إمكانه أن يستغني عن الأوقات الأخرى. وقت للمغول، وآخر لقياصرة روما، ولك أن تجتزئ وقتاً للخلفاء العبّاسيين، وآخر لأباطرة الصين. لن نهبط ثانية إلى العالم السفلي. للوقت شبابيك وأبواب وحقول شاسعة وقوارب ومناطيد وأجنحة ومناديل بيضاء للوداع وقطارات وأفندة وعيون مائية وزرقة وفساتين للسهرة وكعوب عالية وحوريات يصلحن لجلسة شاي بعد القيلولة. كان هناك رجل أكاديمي، يغني لشارل أزنافور. صوته مُعتّق غير أن النبيذ الرخيص أفقد ذلك الصوت القدرة على التحكّم برقبة الناقة. كان الرجل يلوي الكلمات، كما لو أنها كانت حبالاً للشنق.

أجبرني أرمان، وأنا أنظر إلى منحوتته، على أن أقيم صلحاً مع الوقت.

"صلحاً نهائياً" صرتُ أقول لنفسي.

يقع الوقت خارج النسيان. وهو إذ يمرّ بالذاكرة، فلا يفعل شيئاً سوى أن يتخيّل. الوقت صديقنا. كنّا سذّجاً حين عَدَدناه عدوّاً. لا يليق بنا ولا به أن نعده عدوّاً سابقاً. أرمان يمكر بنا. ابن جامع التحفيات يُلقّننا درساً في الخيال. لك أن تنسى كل شيء. لكن، عليك أن تتذكّر ما تخيّلته. أنت هناك.

يوماً ما سيكون لك حصة مثالية في ما تخيلته. ولأن الوقت لا يُسفى إلا مجازاً، فليس هناك أمس ولا غد، وما بينهما ما من يوم، ذلك لأننا لا نعيش إلا يوماً واحداً. تطلع شمسه حين الولادة، وتغرب حين نموت. هي ذي أوقاتكم كلّها، أيها الفانون.

"في أيّ وقت نحن الآن؟"

"في الأوقات كلها"

ألأنني عثرتُ على أرمان، صار صديقي يقيم في وقت سائل؟

"اتبعني" قالت الفاتنة، وتبعتها. يدي على قلبي، وعيني على مؤخرتها، وقدماي على السلّم الكهربائي، وفي أذني طنين أعشاب منقرضة. وحين وذعتني، سلّمتني لملائكة صارمين. وظّفهم أرمان لصيانة فكرته. كان الهواء ليناً، وكنتُ قد اكتسبتُ خفة الطائر الذي فوجئ بقدرته على الطيران. هناك قوّة غير متوقّعة تسلّلت إلى أعضائي. أنا حي في زمن، هو الأزمنة كلها. أنظر إلى ساعات أرمان، وأمزج عصير الرمّان بأبخرة المانكو وحساء السمسم. لقد وقعتُ على الفكرة. اهتديتُ إلى سلم روحي. كنتُ كلّما دخلتُ إلى المقهى البرليني يستقبلني فيفالدي بفصوله الأربعة، وها أنذا أجلس الفصول الأربعة كلها على ركبتي، وأبكي. "كان الجمال يهذي" قلتُ لصديقي الذي لم يحضر حين اتّصل بي معتذراً. ولأنه كان مرتبكاً، فإنه لم ينتبه إلى أني شكرته، لأنه أهداني فكرة عن الوقت الأبدي.

قالت:"كنتُما تبكيان، إذن" قلتُ:"ونضحك أيضاً" كنتُ قد نمتُ في سرير الطفلة. حلمتُ بأننا جلسنا متعبين بعد أن كنّا قد انتهينا من نقل الخشب عبر النهر. قالت:"رأيتُكما جالسين، وبيد كل واحد منكما كتاب، وسمعتُ ما يُشبه الترتيل" قلتُ:"كنّا نصلّي" كان الربفيون ينظرون إلينا من وراء النوافذ. كانوا يُتمتمون بكلمات، ولم نكن قادرين على قراءة الكلمات التي تنبعث من شفاههم المرتجفة. قالت:"كنتُما أشبه بشبحين" قلتُ: "اللذان رأيتِهما كانا بالفعل شبحَينا. أما نحن، فلم نغادر سريرَينا" قالت:"كان ضوء القمر يخترق جسديكما اللذين كانا يشفّان عن قلبَيكما المذعورين" كانت القرية كلها مستيقظة، كما لو أنها تستعدّ لاستقبال ابنها الغائب. قال:"لقد التقيتُها إذن من قبل" قلتُ:"لم يكن لقاء. التقت عيوننا، وذهب كل واحد منّا في طريق" قالت:"لقد كنتَ تكذب" كان الفجر قد زحف لتوّه على الغابة حين رأيتُها. المرأة التي تسلّلت من وراء الشجرة. أوقفتني. كانت الشمس برتقالة في عينيها. قالت:"أشبه بثعلب كنتَ. لصّ دجاج يتسلّل إلى المزارع

خفية" قال:"يمكنني أن أصدقك، غير أني أصدق حدسي أكثر" قلتُ:"النبوءة تحضر ضعيفة، إن لم تبتسم" ألقى الكتاب وراءه. ذهبتْ نظرتي إلى الكتاب مفتوحاً على العشب المبلّل. هممتُ بأن أقوم لأجلبه. أمسك بيدي بقوّة، وأجلسني. كان مزاجه رمادياً. بعينَين باردتَين أومأ لي. قالت:"كان سرير الطفلة ضيّقاً، ولكنه اتّسع لكلَينا" كان هناك شبح عند النافذة. قلتُ:"سأغادر" قالت:"مثلما تفعل الثعالب" ضحكت. كنتُ خائفاً. قال:"ولكنك أحببتَها، على الأقلّ" قلتُ:"لم يتّسع الوقت للحبّ" قال:"دقيقتان للاعتراف. الثالثة للقتل" قلتُ:"بماذا ينفعك الاعتراف، إذا كنتَ جاهزاً للقتل؟" قالت:"ألم تكن خائفاً إذن؟" في غرفة الطفلة، كنتُ أرتجف هلعاً. كان الشبح قد غادر النافذة. أوهمتُ نفسي بأني قد تخيّلته. ضحك وقال:" حين لا تعترف بالحقيقة أقتلك" قلتُ:"ولكن الحقيقة بالنسبة لك هي ما تريد أن تسمعه" قال:"أنتِ رأيتني؟" قالت:"تطاردك الأشباح منذ أن غادرتَ بلدك. لكل واحد منكم أنتُم اللاجئون شبحه الحارس" لا تزال عيون المتلصّصين تطبع نظراتها الزرقاء على زجاج النوافذ. لم ينم أحد في انتظار النهاية. كنتُ خصم بطل الفلم الذي لم يُقتَل بعد. جان فالجان. قلتُ:"أنا لا أرى الطبيعة من غير نظّارتي" قال:"أنت ترى في نومك حتّى" قالت:"يخيّل إليّ أنك قد تخيّلتَني" أسمعها تشوي الكلمات في أذني. من أين طلعتِ لي، أيّتها الساحرة. امتطي مكنستكِ، لتحلّق بي إلى بلادي. أعرف أن الوقت لا يزال مبكراً. قال:"إن لم تكن تحبّها، فسيكون قتلك واجباً" قلتُ مبتسماً بحزن:"ضع ما تشاء من الكلمات بين قوسَين، واقتلني" هزّ رأسه. قال:"هل قلتَ إنك مؤلّف؟" قالت:"كان عليك أن تهزمه منذ اللحظة الأولى. ألم تهزمه على الفراش؟" قلتُ:"لم أكن منتصراً. كنتُ أنا الآخر مهزوماً. لم أفعل شيئاً سوى الاستجابة لغوايتك" قالت:"كان نهاراً طويلاً ذلك النهار الذي فصل بين وقتَين إلاهيين. الفجر حين طلعت عليّ مثل شيطان والليل حين أكسبت ذلك الشيطان قوّة الوحش" قلتُ:"إنها تستحقّ أن تحبّ. امرأة الفصول الأربعة أكثر سعة ومرحاً من خريفي" قالت:"سيقتلك" كان هناك عصفور قد أضاع الطريق إلى بيته واقفاً على الشجرة يُزقزق بحثاً عن الكلمة المناسبة التي تُرشده إلى بلاده. فكّرتُ في بلادي البعيدة، وكنتُ في انتظار الرصاصة. قالت:"كم كنتُ مطمئناً إلى الموت" قلتُ:"كنتُ أنوي القفز من الحافة إلى الهاوية في أية لحظة" وقف، ثمّ أمسك بيدي، وأوقفني. نظر إليّ بعينَين دامعتَين، واحتضنني. رأى الريفيون صبيَّين يرقصان. شعروا بالغيظ، فناموا. قالت:"كم تمنّيتُ أن أرقص بينكما عارية" في لحظة الرقص تلك، لم أنتبه إلى أن كتابي، بسبب

ضربة، كان الآخر قد وجّهها إليّ، قد قفز إلى النهر. قالت:"رأيته، وحزنتُ من أجله" قال:"سنعود إلى البيت مثل أخوَين" كانت النافذة مفتوحة، وكان الفجر قد مدّ أجنحته على بساط العشب الأخضر حين استيقظتُ من النوم. قالت على مائدة الإفطار:"تركناك تنام ليلتَين" ابتسم لها، وهي تدهن قطعة الخبز السمراء بالزبد.

أمشي في دروب القرية بيدين بريئتين. أترك الثعلب نائماً بعيداً عن المراعي، وأغادر ممتطياً حصاناً وَهمياً. جعلتني المصادفة أقضي ليلة في بيت مسكون بالأرواح التي لا تنام. المرأة تملك على الأقلّ مفتاحاً من مفاتيح الغيب. تدخل إلى حلمي بقوّة سخرها، وتحصي كلماتي، حتّى تلك التي خُيّل إليّ أنني فكّرتُ بها، ولم أقلها. الرجل يزيح عن عينَيّ الدمع القديم، ليسكب فيهما دمعاً جديداً، يقول إن زوجته كانت مُلهمته. مُلهمة الدمع. هو وهي. اثنان ضدّ واحد، أو ضدّ شبح لواحد، لم يعد قادراً على تلمّس جسده. هي التي انبثقت من الشجرة، واستولت على شمس الفجر، جرّبتُ أن تصف المتاهة التي مشيتُ في دروبها، وأنا نائم على سرير الطفلة، وأقنعتني بأن ملاكاً طيّباً هو الذي حملني إليها في تلك الليلة التي قرّرتُ فيها الانتحار. هو الذي لا يزال شبحه يرعى سمكة، لم تُخرج رأسها من الماء، جعلني أشعر بالذنب، لأني خنته من غير أن يقول كلمة جارحة واحدة. كان يودّ لو أني بقيتُ لأكون عبداً للندم في ما تبقّى لي من الأيّام. هو وهي، سواء اتّفقا أم لم يتكلّما في الأمر في أوقات سابقة، كانا قد خطّطا لاستقبال ضيف، تُربكه ذكرى حياة، لم يعشها، وتوهّم أنه عاشها. هل رأتني هي وأنا أتلفّتُ باحثاً في غبش الفجر عن ضربة عصفور بزيّ؟ هل رآني هو، وأنا أتلفّتُ باحثاً عن قفص لحمامتين ضائعتَين؟ بعد أن مشيتُ أكثر من ساعتَين، صرتُ متأكّداً من أنهما لن يصلا إليّ، فجلستُ على العشب الأخضر، وصرتُ أنادي الله.

تنبعث الموسيقى من بين ساقَيّ. أنظر إلى قدَمَيّ. مشيتا، تسلّقتا، تألّقتا، تورّمتا، تساءلتا، ثرثرتا، كبرتا في عتمة أحذية ضيّقة، ولا تزالان قادرتَين على حملي. أأنتما تمشيان بي؟ أم أنا مَن يمشي بكما؟ تعلّمتُ أن لا أصل، وكنتُ أسمع هذيانكما. كل خطوة لها معنى. كل طريق لها هدف. معي لن يكون الأمر كذلك. سنتكلّم قليلاً عن الشعر. كان موسى كريدي ينعتني بالسوريالي. ولم أكن سوريالياً. كنتُ أتقط الجملة في لحظة إغماء مُتخيّل. تحضر كاملة مثل صورة. تحضر صورتها، ويُثيرني بُعدها الشخصي. لقد سبقتُ الجميع إلى التقاط جملة سائبة ونادرة من نوعها،

كان من الممكن أن يلتقطها أحد غيري، لو أنه سبقني إليها. صارت تلك الجملة ملكي، وبها، ومن خلالها، صار في إمكاني أن أتسلّى، لاعباً باللغة. هي ذي جملة منك، لكنها لا تشبهك. حين استخرجتُها، لم أكن واعياً لتقنياتك المتقلّبة. كنتُ ميتاً في لحظة ذهاب إلى مستقبل، يغلب عليه الغموض.

لقد ذهبتُ إلى المدرسة الثانوية، وأنا أكتب الشعر، وليس الإنشاء المدرسي. كنتُ أكتب ذلك الإنشاء بخيلاء شاعر. ولم يكن ذلك السلوك يعجب المعلّمين غير أن أحدا منهم لم يجرؤ على السخرية مما كنتُ أفعل. قال لي أحدهم ذات مرّة بلطف شديد: "ابني، لغتك العربية ممتازة، لكنك تهدرها في كلام غامض" بسبب طيشي، تخيّلتُ تلك الجملة مديحاً. بعد سنوات طويلة، وكنتُ أكتب عموداً يومياً في جريدة الوطن القطرية، اقتحم شخص يرتدي الملابس العربية مكتبي، وهو يصرخ: "أنت، يا فاروق، يا يوسف. أقرأ ما تكتبه يومياً، وأتمتّع به، ولا أفهمه. كلامك كله ليس عربياً، وكم تمنّيتُ لو أنني عثرتُ على خطأ واحد في عربيّتك" قال جملته الغاضبة، ومضى. وإذا ما كان عليّ أن أعترف، فإن سلوكي كله، في الحياة كما في الكتابة إنما ينبعث من لحظة شعر أعيشها. سأزيد وأقول إني أحبّ الرسم أكثر من أي شيء آخر، وأفضّل الرسامين أصدقاء على سواهم من البشر. ولكنني في الحقيقة أحبّ الرسم الذي ينبعث من لحظة شعر. وأحبّ الرسّامين الذين يخلصون إلى لحظة الشعر.

ولكن، ما هي لحظة الشعر؟

لن أكون عاقلاً، لو أجبتُ على ذلك السؤال. "سأكون مجنونة، يا صديقي" تقول. قبل ربع قرن، قالت لي:"أحبّك" كنتُ أبله الكواكب البعيدة. الرجل الذي وضع كُتُبه على ظهر سلحفاة، وصار يتأمّل مشهد النساء وهنّ يدفعنَ الشموع إلى النهر. يمكنني أن أضحك، لأعلن عن براءتي من كل ما يحدث من حولي. كان عليّ أن أصدّق النمل، أن أرتقي مع الفراشات سلّم النار، أن أحذف الخطوة من قَدَمي، فتظلّ تلك القَدَم عالقة في الهواء. كنتُ مرتبكاً مثل قبطان سفينة، عثرتْ عيناه في طريقه على جزيرة، لم تذكرها الخرائط. جزيرتي هي إذن. ولكن، من يصدّق ذلك؟ أنا لا أصدّق، فكيف يصدّق الآخرون ما أتوهّمه؟

"أنا أحبّك" جملة خالدة.

قريباً من حوض السباحة في الفندق بمسقط، كنتُ أجلس مسترخياً

وأنا أتساءل: "ما الذي يحدث لو توقف البشر عن الحركة دقيقة واحدة فقط؟ دقيقة يعمّ السكون في أثنائها أرجاء الكرة الأرضية. دقيقة من غير وقع خطوات تائهة، ولا أغاني صيادين تعوم في الماء، ولا ضربات فؤوس على جذوع الأشجار، ولا قطارات تخترع صفة رعوية للبهائم السارحة في الحقول، ولا طائرات يشعر المرء حين يغادرها بأنه قد لا ينجو في المرّة المقبلة، ولا طبخ، ولا طباخين، ولا برامج صباح تلفزيونية، ترش البهار الهندي في عيون الأمهات، وهنّ يعددنّ سندويجات الجبن والبيض لأولادهنّ الذاهبين إلى المدارس. سيتأخّر البعض في المضاجعة. دقيقة مضافة من اللذّة هي مسافة بين زمنين. سيقع الطائر ميتاً في محيط المقهى من غير أن يتمكّن أحد من إنقاذه. أكفّ عن الكتابة، وأنسى السطر القادم من رحم اللحظة التي لن تحضر أبداً. سيخسر المرابون، وتسود الفوضى أروقة البورصة. يطيل نقّار الخشب من نشيده. ما من طبل يعد بحرب مؤجّلة، وما من قطرة مطر تُوحي بقدوم غيمة كريمة.

"انتظرني"

لن يقولها أحد، ولن يسمعها أحد، ولن يصدّق أحد أن الكون سيخرج من غيبوبته مستعيداً هيأته التي كان عليها قبل أن تقع تلك الواقعة. هذا كله لن يكون مُقنعاً لها، فتكفّ عن الصراخ بعبارتها في وجه الغرباء.

تقول: "انتظرني"، وهي تعرف أن لا أحد سيقف في انتظارها. ولأنها لا توجّه عبارتها إلى أحد بعينه، فقد صارت تبحث عن تأثير نغم حروفها المتفخمة في كل وجه تراه. أخبرها أن انتظارها صار فكرة، مجرّد فكرة، فتضحك بابتذال مقصود، وتقول:"فكرة؟ إذاً أنت ترى الفكرة. لا يزعجك جسدك اليابس، فيما تطلّ عليك فكرة نضرة من بين ثديَين، لا يزال الحليب ينشر زرقته في عروقهما" لم أقل لها إن كلامها وقد صار يعبث بشفتين غير مَرئيّتين، لن يسمعه أحد. لذلك فإن الجنيّات غالباً ما تقوم بأفعالها بصمت. لستُ سوى جنّية ثرثارة.

لقد التقيتُها في اللحظة التي كنتُ قد شعرتُ فيها باليأس من حواسّي المباشرة.

كانت عصافير (مسقط) تهذي، فيما كان ريش كثير يتساقط بهدوء على سفوح الجبال الجرداء. هناك ملائكة ترقص بانفعال في الجانب الآخر من المرآة. في النقطة التي تتّسع كلّما أغمضنا عيوننا. تقول باتريسيا، وهي نحّاتة هنغارية، التقيتُها مصادفة هناك:"يصعد الشبق من القدَمين، ليصل

إلى العينين متعباً. تعيش مادته حالاتها كلها في طريقها إلى الخيال، تتبخّر وتسيل وتتصلّب. الشبق يتغذّى على أجسادنا. تتسلّل مادته إلى الدم حتى يضجّ بتمرّدها". قلتُ لها: "وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه" استهوتها الجملة مترجمة بطريقة قلقة، فصارت تتسلّى بتكرارها، كما لو أنها صارت تحلمها. "عبارة تصويرية تصلح للنحت. أتخيّل طائراً يمسك بمنقاره بحنجرتي. له ما يقوله من خلالي، ولي ما أقوله من خلاله. لقد زادتني العبارة عطشاً. سأشرب ماء، لكي أستردّ ذكرى صحراء الربع الخالي"

قبل سنوات، كنتُ في الصحراء. هناك تكفّ القَدَمان عن المشي. الصوت يصل هامساً إلى أماكن بعيدة. وليس ثمة مكان بعينه. تتحرّر العين من شروط النظر المباشر. إنك ترى مثل أعمى. يروقك أن تمرّ المشاهد، كما لو أنها تنساب بخفّة، تتنقّل بين الأسود والأبيض، لتريق أشكالها الهائمة مثل غيوم منسية. هناك رأيتُ الألوان كلها غير أنني لم أرَ لوناً بعينه، منفصلاً ببداهة قوّته. ألهذا كان البدو ضعيفي النظر؟ لديهم ما يعوّضهم في السمع. إنهم يُنصتون إلى دبيب النمل. يُنصتون إلى خفق أجنحة الملائكة. ليس غريباً إذاً أن تكون الصحراء حاضنة للأنبياء. كلّ بدوي هو مشروع نبيّ. هناك يرى المرءُ اللهَ في صورته الأنقى، الأكثر استقلالاً، والممتلئة غفراناً. للبدويّ في ذات الله حصّة. لقد أشرقت الصحراء بكلام الله، منغماً بلغة أنبيائه. كانوا جميعاً آراميين من جهة اللغة. لن يتمكّن أحد من سماع خفق أجنحة الملائكة في مدينة مثل باريس أو روما أو شنغهاي أو طوكيو، أما الخرطوم ومقاديشو ونواكشوط وقندهار وقم، فلا أعتقد أن الملائكة مهتمّة في التحليق في فضاءاتها، ذلك لأن الإنسان في تلك المُدُن صار يفكّر كما لو أنه الله.

"كنا نتحدّث عن الحرب، في سوق الدجاج.

في سوق الدجاج، كنا نتحدّث عن الحرب.

عن الحرب، كنا نتحدّث في سوق الدجاج.

اختفى سوق الدجاج، ولم تختف الحرب"

في الدائرة نفسها نقع، لنتذكّر. يتأمّل جلال الحنفي قبّة كنيسة اللاتين. يقول لي: "هذا لقلقٌ بغداديٌّ. صار بغدادياً. الأب أنستاس مار الكرملي جاء من فلسطين، وقد أنبأته العرّافة بأنه سيلتقي لقلقاً. لقد تحقّقت النبوءة. كتب الأب الكرملي كُتُبه في ظلّ جناحي لقلق. هل لمست لقلقاً؟" صمتُّ، لا

في انتظاري جوابي، بل لأنه سمع ضرباً على الباب. همس لي: "أفضّل أن أكون في سوق الغزل، على أن أقضي وقتي بين أناس، لا همّ لهم سوى السؤال عن رأي الدين في مسائل سخيفة".

كانت الطيور والحيوانات النادرة في انتظارنا في سوق الغزل.

نسيتُ سوق الغزل، ووهبتُ نفسي للدجاج.

لا يزال النقيق الذي سمعتُه هناك يملأ روحي بالبحيرات. قاربي ينساب. أقترب من يديك. أشقّ الطريق إلى قلبك. "اترك لي تلفونك مع الحارس" اختفتْ. كان الحارس ينظر إليّ بطريقة مريبة. حين قدّمتُ له قصاصة الورق، هبّ واقفاً باحترام. كان شخصاً آخر. أربكني منظره. في الثانية، ما بعد الظهر، كان عليّ أن أنتظر اتّصالك.

"هل تأخّرت؟"

"قليلاً. كان قلبي يلهث"

"سلامة قلبك"

"لم أتوقّع"

"يائساً مثلما أنت في كتاباتك"

"سأكون آخر. ربّما"

"تعدني"

"لا أملك سوى هذا الوعد"

انقطع الصوت.

في الزرقة ما بين موجتَين، على الصخرة، حيث الأعشاب المائية تصفر بنغم ليّن جلسنا. في آخر متر من القيامة لمحنا طائراً. تبللت ثيابنا. كان الماء قد تسلّل إلى أرواحنا. صرنا كائنَين مائيّين. ألمسها، فتغيب يدي، تلمسني، فتتحسّس يدُها جدرانَ رئتَيّ. ها أنا ذا أتنفّس عطرك. تمشي وحوشي الصغيرة على معصميك. صارت تحدّثني عن بلاد، لم تشهد غيابها. قالت لا تزال شمسها معلّقة مثل فأس على الأفق. احذري الحرّاس الليليين. تضحك بأسى، كما لو أنها تستعدّ للبكاء.

"هل أنتَ سعيد؟"

"الآن؟"

"دائماً"

"ما الذي يدعوك إلى افتراض ذلك؟"

"تبدو سعيداً حتّى حين تعطي دروساً في العذاب"

قالت إنها تعرّفت على متسوّلة في طريقها إلى تاج محل. جلستُ إلى جانبها على الأرض، وصارتْ تنظر إلى العالم بعينَيها. عيني تلك المتسوّلة. "لم يكن الأمر بمثل ما نتوقّع من السوء" قالت. "حدّثتُها عن ضجري، فلم تفهم ما معنى كلمة ضجر، ولكنها ابتسمت بألم حين حدّثتُها عن سعادتي بجلوسي معها" قالت إن المرأة ظنّتْها مجنونة. قبلتها زميلة في الحُزيّة من غير مقابل. في الرخاء المفتوح على السلام. ما من ترف غير أن الشظف كان رحيماً. كنتُ أُنصتُ إلى سيتار شانكر، وأحلّق بعينَيّ وراء لقالق مرحة. "خلال دقائق، أعدتُ تربية نفسي. تسلّلتُ بين الشقوق، ووصلتُ إلى البنابيع الدافئة. صرتُ أبكي، وأنا أرى ما لحق بروحي من تشوّهات. هذي بلاد تتأوّه. بلاد هي مزيج من الحقول الخريفية الشاسعة والصحارى الصفراء. صرتُ أزيح الغبار، لأرى وجه الأرض كما هو، أحمر بصبغة الجرح. كانت المتسوّلة قد غادرت المكان حين فتحتُ عينَيّ" قالت إنها عادت وحيدة، مرتبكة الجسد، ضعيفة العزيمة، يائسة الفم. "شعرتُ بالحاجة إلى اكتساب عادات جديدة، من أجل أن أكون أخرى. يتجاوز الأمر الرغبة في التمرّد. إنها مسألة تربية".

حدّثتُها عن بيسوا، الشاعر البرتغالي، وعن مبدأ التخلّي. عن الحقائب التي يحملها المسافر معه، متوهّماً أن حياته تفقد معناها، لو أنه فقد واحدة من تلك الحقائب، وحين يصيبه التعب، يبدأ بالتخلّي عنها واحدة إثر أخرى. تذكّرتُ عملاً فنّياً هو عبارة عن حقيبة مفتوحة، مُلئت بالحجارة. الحجارة تسافر أيضاً. غالباً ما نحمل أحجاراً معنا، أحجاراً خفية تأخذ أشكالاً عاطفية وذهنية، نحارب من أجل أن لا يمسّها الضرر. غير أننا لا نبالي كثيراً لو نسيناها في الفندق، ونحن نعيد تجهيز حقائبنا، غير منتبهين إلى أننا إنما نستبدل بأحجار أحجاراً أخرى. في المطارات، نخشى الوزن الزائد. عيوننا لا تفارق الميزان بقلق، ولا نشعر بالراحة إلا حين يتحزّك الحزام تحت الحقيبة. نجونا من الغرامات. ولكننا لا نتعلّم. في كل محاولة سَفَر نكرّر ما قمنا به في المحاولات السابقة. حقائبنا ملاجئ مؤقّتة لأحجار متباينة الأحجام والأنواع، غير أنها تشير إلى لحظة الفساد الذهني ذاتها:

ضعفنا العاطفي إزاء الأشياء، باعتبارها ممتلكات شخصية.

"ولكنك تسعد بها!"

"مثل خيال شبقي مؤقت".

"سأروي لك حكاية. بعد أن غادرتني المتسولة، شعرتُ بالضياع. في الطريق إلى الفندق، سيطرت عليّ فكرة أن يُضاجعني هندي. شخص لا أعرفه، ينتمي إلى الأبخرة التي امتزجت بدمي. عشتُ صراعاً قوياً بين الرغبة في تنفيذ تلك الفكرة سريعاً بأية طريقة ممكنة وبين شعوري المسؤول بضرورة دَفع تلك الفكرة، لما يمكن أن تجلبه من ضرر غير مُتوقّع. وأخيرا انتصرت الفكرة. كان عليّ إذاً أن أصطاد شاباً هندياً من الطريق، لكي يُضاجعني. ولأني كنتُ في حالة عصف دماغي، فقد صرتُ أمشي بغنج مبالغ فيه. لم يلتفت إليّ أحد. سرتُ وحيدة بين عشرات الألوف من الشباب الذين لم يتقاطع خيالهم مع خيالي حتى وصلتُ الفندق. حين رأيتُ صبيّ الاستعلامات من بعيد ممسكاً بقضيبه من وراء بنطاله، قلتُ لنفسي خلّت المسألة. غير أن الصبي ارتبك حين رآني، وأخفض رأسه، وهو يردّد الجملة ذاتها: اعذريني مدام، حاضر مدام. حينها اتحظ خيالي، وصرتُ أتعثر بهزيمتي. لقد أطفأتُ لغته شبقي، وصرتُ أحاول أن أنسى مشهد شفتيه الجافتين.

ربتُ على يدها وأنا أقول:

"أنقذك الصبيّ من مغامرة، ربّما ستندمين عليها"

"أترى ذلك حقاً؟"

ليلة هندية على ساحل بحر العرب. صدقتْ نبوءتي. التقيتُ لي زهانغ في مسقط. الصينية التي تشبه جارتي، ومثلها أيضاً لا يشي وجهها بعمرها. لم تكن صبية غير أن عشرين سنة يمكن أن تضيع في أثناء التخمين. ما بين الثلاثين والخمسين يمكننا أن نعيش عمراً كاملاً. كانت (لي) نضرة وحكيمة، في الوقت نفسه. يمكنك أن تجدها في المزحة مثلما تعثر عليها في التأمل العميق. كانت نموذجاً للمرأة المدرّبة على الإنصات إلى الآخر، مستعملة كل حواسها باستقلال فذ. تلمس يدك بأخوّة عميقة، وتنظر في عينيك، كما لو أنها تقرأ سطوراً نائمة. بلغة إنجليزية ميسّرة، يمكنك أن تشعر بأنها فهمت ما كنتَ تودّ قوله. أنظر إلى قَدَميها الصغيرتين، وأفكّر بملايين الأقدام الأنثوية التي كان الصينيون يلفّونها بالقماط، من أجل أن

تبقى صغيرة. الجمال الصيني يكمن في القَدَمَين.

"أبعدي الفراشة عن فمك"

لا تحزك يدها، وتبتسم حين تقع عيناها على البحر.

مسقط خفيفة على الحواس. يمكنك أن ترى بحرها من بعيد، وأنت على قمة جبل دائماً. بيضة زرقاء، تشفّ عن سفن غاطسة وبخارة يجلسون كل صباح حول مائدة اكتظّت بالخرائط التي سال حبرها. لا يشعرون بالحيرة، وهم يستأنفون عملهم في تحديد الاتّجاهات، غرباً وشرقاً. يُربكني ضوء الشمس الكثيف والناصع الذي ينبعث من البحر. مرآة لمرآتي. مرآة لمرآتها. لم يحلّ الصيف بعد. تضعك جملة وصفية قصيرة من سيف الرحبي في قلب الجحيم. "لا تُصدّق ما تراه. إنها مزحة بصرية"، ولأن الرحبي تُلهمه المشاهد العُمانية صوراً شعرية، سرعان ما يلحق بها النثر، فقد كان يفتح عينيه على وسعهما حين يحدّثني عن أثر قوّة اللامرئي في الحياة العُمانية. كانت الأحداث بالنسبة له تقع دائماً في الجانب الآخر. كلّما رأيتُه تخيّلته قادماً لتوّه من واحدة من تلك السفن الغاطسة في أعماق بحر مسقط. لديه ما يرويه: حكايات مقتضبة، تمتزج فيها لغة الشعر المتوتّرة بعصارة فاكهة خرافية، كانت المنافي قد أنضجتها، وذوّبتها، وخمّرتها، وصقلت زجاجها.

أعرف أنها بلاد تقع خارج ما يُرى منها، ولكن ما يُرى يمكنه أن يجرّ حطب النسيان كله إلى الموقد. يذهب خطّ الساحل إلى الأفق. هناك قلعة برتغالية تظهر متقطّعة من بين أجنحة النوارس البيضاء. سأرى كيف يمكنني أن أكون واقفاً في مكانين في الوقت نفسه. تنزلق نظرتي في اتّجاهَين: سوق السمك على اليمين يلهث في أنفاس شيخ وفد لتوّه من عصر ما قبل الفتوحات، وعلى اليسار، كان البرتغاليون قد أوصدوا أبواب قلعتهم أمام الليل. زيت يسيل من جناحي الطائر، ليرسم على صفحة المياه خطّاً مستقيماً. هي ذي الطريق إلى القيامة تغادر البحر، لتصل إلى اليابسة، فتُشقّ فيها الوديان. تنفصل مسقط، بعضها عن البعض الآخر. يتجزّأ الجسد، ليكون أجساداً مصغّرة، تنظر إلى البحر، كما لو أنها توذ العود إليه.

عصافير مسقط تستيقظ مبكراً. قبل الأذان بقليل. في لحظة من الصفاء المنغم يمتزج الإيقاعان. نعمة الطبيعة كلها في الصوت. يستلّ صوت المؤذّن خيوط سعادته من بين مناقير العصافير، ليفرش سجّادته

للصلاة.

غيمة هناك يطردها الفجر من الشرفة.

في ذلك الصباح، لم يعد النوم زائراً ممكناً بالنسبة لي.

لقد قرّر جسدي أن يجرّ النهار بتحوّلاته كلها إلى سطح لوحته، مثلما كان يفعل الانطباعيون. غالباً ما صرتُ أصل المُدُن الخليجية فجراً. يكون عليّ حينها أن أستقبل نهاراً مختلفاً عن ذلك النهار الذي تركتُه في بيتي. أخرج من الطائرة مثل حطّاب يذهب إلى الغابة، وهو يروي لفأسه حكاية نقّار الخشب الذي أعجبته فكرة أن يحفر له بيتاً في النغم الذي تطلقه شجرة نهار، لم يقع بعد. فراشة حاذقة تضرب عيني بجناحيها. ستحلّ الزخرفة محلّ الواقع.

كانت (لي)، وهي نخّاتة صينية تعرّفتُ عليها في فندق الإنتركونتيننتال، قد اختفت بعد أن أبلغتني أنها ستقضي ساعة في سوق الظلام. كنتُ في وقت سابق قد اقترحتُ عليها أن لا تتحدّث الإنجليزية معي على الأقلّ. قلتُ لها هي فرصة عظيمة بالنسبة لي، أن أستمع إلى الصينية، من غير أن أفكّر بالمعاني. ستكون المعاني الجاهزة بمثابة أغذية معلّبة بالمقارنة مع ما تحتوي عليه الأصوات المتلاطمة بعذوبة من فواكه وخضروات طازجة. كانت لي تضطرّ أحياناً إلى استعمال يديها من أجل أن أفهم. "ليس ضرورياً" حين ذهبتُ إلى سوق الظلام، صرتُ أتأمّلها من الخلف، وأنا أقول لنفسي: "امرأة قادمة من الصين لتوّها، وستعود إليها ما أن تُنهي عملها الفنّي مختلفة تمام الاختلاف عن امرأة، صينية الأصل مثل جارتي غير أنها لا ترى الصين إلا باعتبارها زائرة. المعنى أن هذه المقارنة تصحّ عليّ أيضاً. ما لم أتوقّع حدوثه قد وقع بطريقة تلقائية. حين سألني أحد الأصدقاء، ممّن تعرّفتُ عليهم منذ وقت قريب في مسقط "ألا تعود إلى العراق؟" فاجأتُ نفسي بجواب، لم أتوقّعه حين سألتْه ذلك الصديق "ولمَ أعود إلى العراق؟"

سؤال قاس. كنتُ أود لو أن بحر مسقط غطّاه برمله المبتلّ بالحكايات الأكثر قسوة. ولكن ما كنتُ أهرب منه، لخّصه ذلك السؤال العنيد. غالباً ما يسير المرء إلى الأمام من غير أن يكون له هدف. قد يكون السير بتلك الطريقة في حدّ ذاته هدفاً. ولكن العودة إلى الوراء لابد أن تكون مسبوقة بالأسباب. لنفكّر بطريقة تجريدية، ونقول إنه الحنين. وهي فكرة لطالما تشدّق العراقيون في الحديث عنها حتّى صنعوا منها صلباناً، وصاروا

يدورون بها بين الملاجئ، ولا أقول المنافي والمهاجر وبلاد الغربة. ولكن الحنين هو وصفة شخصية تتباين قوّتها من شخص إلى آخر. الحنين ليس قَدَراً جماعياً مثلما يزعم رُواة المآثر الحزبية المتأثّرون ببلاغة الملحمة الحسينية في يوم ألطف.

في تلك اللحظة، كنتُ الشخص الآخر. صنو المرأة الصينية التي لا تذهب إلى بلادها إلا زائرة. الفرق بيننا أن بلادي لا تقبل زوّاراً من نوعي، مواطنين سابقين مثقلين بالعذاب، بسبب ما جرى لها، تُعذّبهم ضمائرهم، لأنهم كانوا شهود لحظة التيه التي لا تزال تخترع أشكالاً لها، وهي تتنقل بالبلاد من حال إلى حال. كانت (لي) قد ابتعدتْ، وصار بحر مسقط يهبني صوراً عن حياة، لم يعشها أحد سواي. حياة لو فكّرتُ باستعادتها، فإن ذلك يعني أنني قد أُصبتُ بالجنون. محلّة الصنم، سلالم مدرسة البتاوين، القصر الأبيض، عمّتي نوعة، حارس مقبرة الأرمن، ساحة الطيران، سينما النصر الصيفي، مكتبة أمّ علي، كمب الأرمن، سوق حنون، ساحة السباع، حديقة الأمة، جدارية فائق حسن وشارع الشيخ عمر. مفردات طفولة صارت أشبه بممثلي مسرح الظلّ. أغمض عيني، لأرى، أما حين أفتحهما، لا أرى إلا طريقاً بيضاء.

"هل رأيتَ حشود السائحين، وهي تهبط من تلك السفينة العملاقة؟"

أيقظتني لي.

"فجأة امتلأ سوق الظلام بالسائحين. ولكنني كنتُ الصينية الوحيدة في سوق، كل بضائعه صينية" قلتُ لها إن الصينيين لن يشعروا بعد اليوم بالحنين إلى بلادهم، فعبارة (صُنع في الصين) يمكنها أن تُشعرهم كما لو أنهم لم يغادروا الصين. العالم كله صار حديقة خلفية لبلاد التنّين. "ولكنني أشتاق إلى بيتي" قالت لي.

أشتاق إلى بيتي

ضاق بحر مسقط. ضاقت الأبجدية. هبطت ملائكة بابل، وازدحم الهيكل بالرومان المنفعلين بما يقع في الشارع المجاور. مَن رأى ملكة تدمر؟ بين الخورنق والسدير تتثاءب الديكة. مرّ ليل طويل. كانت الأدعية خلاسية هي الأخرى. أخذني ابن ماجد من يدي. تلك بلاد أخرى. لي مثلما لها، وعلينا الاثنان أن نخترع مرآة لهزيمتنا الموحّدة. كان بيتي هناك. الشيء المؤكّد الوحيد أن هناك بيتاً لي هناك. لم يبنه البنّاءون وحدهم، بل

شاركت حواسي كلها في بنائه. أراه على صفحة الماء في بحر مسقط سطراً محلّقاً، تحمل الملائكة كلماته. تعالي، يا (لي) صديقتي النحّاتة الصينية، تعال، يا سيف الرحبي، صديقي الشاعر العُماني، تعال، يا ياسر صافي، صديقي الرسّام السوري، لنحمل ذلك الوليد إلى العرش. بيتي هناك إذاً. على صفحة الماء يبتسم للرهبان القادمين من رانغون. كم صار ذلك البيت يُشبهني. مكتبته تودّ لو أنها تخلّت عن كُتُبها، لتحتفي بهذيان الموسيقى التي تسلّلت من الكلمات إلى جدرانها.

في مسقط رأيتُ بيتي عائماً مثل سفينة فريق سياحي.

كان بلداً آخر، وصدّقتُه.

صارت القنوات في رأسي مفتوحة على بعضها أكثر مما هي عليه في الوضع الطبيعي. يُخيّل إليّ أنني صرتُ أسمع عن طريق فمي، وأشمّ من خلال أذني. من ديفانس بباريس رأيتُ باب اللوفر. خطّ مستقيم في الفضاء، هو تعبير عن معجزة بصرية، صنع الفرنسيون من خلالها فكرة تائهة عن طريقة بعينها في النظر إلى مدينتهم المقدّسة. هي ذي مدينة النور تُقيم في خطّ بصري لا يقبل الخطأ. وقائع كثيرة يمكن للمرء أن ينساها. غير أن ذلك الخطّ يظلّ واقعة لا تُنسى. لقد زرع الفرنسيون عيناً في الفضاء، لتراقب أحوال مدينتهم الجغرافية. حرصوا على أن يهبوها مخيلتهم الجماعية. قدّيستهم التي تمحو خطاياهم. فكرتهم عن عالم يُولد خيّراً إلا من تلك الفتحة التي هي أشبه بالثقب الكوني الأسود. طقس المدينة التي تلوذ بإرثها الجمالي الذي لا يفلت منه الفضاء.

ما يحدث في رأسي أشبه بما وقع لباريس.

ما إن أسمعها حتى تسيل. الأصوات تشبه الأغذية، لها طعم ونكهة في الفم. "انس تلك الأصوات" وهي نصيحة طبيب، لا يبالي بما يعذه مزاج جسد، قرّر أن يستثني سيرته من القواعد المثالية. في مطار فرانكفورت، تذكّرتُ سوق السمك. لن تولد، لكي تكون منسياً. كانت الأمتار غاصّة بالمعاني. كان عليّ من أجل أن أصل أن أمشي مئات الأمتار. بياتريس التي التقيتُها قبل أيام كانت غجرية، غير أن حظّها لم يكن سيئاً. ذلك لأنها وُلدت في بوادبست، ولم تُولَد في الديوانية. في الخامسة صباحاً، على أرض هي ليست أرضاً، فهي مطار، كان لديّ ما أفعله: البحث عن قاعة رجال الأعمال. كنتُ رجل أعمال مؤقّتاً، بل هي الفرصة الأخيرة لي، لكي أكون رجل أعمال قبل أن أصل إلى استكهولم. هناك سأركض بين الناس

العاديين بحثاً عن القطار الذي سيقلّني إلى مدينتي. ولأن المطارات لا تنام، لم أرَ وجهاً مرهقاً بالنعاس أو بالتعب. عفال خالدون، لا ينتسبون إلى صفاتنا. لا يُشبهوننا. الفتاة التي اشتريت منها حقيبة نسائية لزوجتي، كانت تبدو في أوج نشاطها. في الأراضي الطبيعية، يمكنك أن ترى فتاة بمثل ذلك النشاط منتصف النهار. الذين يعملون في المطار يكتسبون صفات الكائنات المحلّقة مع الوقت. رأيت أناساً نائمين، ولكنهم كانوا كائنات طارئة مثلي.

"المطار ليس مكاناً".

ربما لا تصدم عبارتي المعماريين. صار مصمّمو المطارات يتفنّنون في اختراع شكل للامكان أبدي. هناك حيث نكون غائبين، يحدونا الأمل في أن نصل إلى مكان ما، لكي نكون حاضرين بقوّة وجودنا فيه. المطار هو التجسيد الأمثل للخفّة والنسيان. فيما كنتُ أمشي، كانت الأسماك تحلّق في خيالي، كما في لوحة من مارك شاغال. كنتُ في قلب الأسطورة الدينية، وكان الله قريباً، وكانت بلادي تقشّر البطيخ. رأيتُ نبيّ الأموات هناك. هل للأموات نبيّ؟ كنتُ على وشك السقوط من شدّة التعب، لذلك فكّرتُ بأجنحة الدجاج. لن تطير، لكنك على الأقلّ، سترى قريباً من السقف. "مثل دجاجة" لا مثل كلب، كما يقول كافكا في ختام روايته (المحاكمة). أبصر خطواتي على أرض المطار تُطلق أصواتاً، لن يسمعها أحد سواي. أمشي إلى الآخرة. لن أضيع في قفص. هناك عدسات تصوير في كل مكان. حتّى في المراحيض هناك مَن يلتقط لك صوراً. أنت في حضرة الأخ الأكبر. خُيّل إليّ أني سأقابل بعد العذاب كله الملكةَ بلقيس. عثرتُ على مقعد بلاستيكي فارغ، فجلستُ. صرتُ أنظر إلى المسافرات وفق انطباع جماليّ خالص. لم تكن خلاصة تجاربهنّ تهمّني. كان الجسد المرئي هو الميزان. أنتِ كما لو أنكِ لم تعودي أنتِ. يمكنني اختصاركِ في صورة مؤخّرتكِ. في المطارات، نرى الجسد محلّقاً، ويكتسب الناسُ صفات الكائن غير المنتمي.

بعد نفسَين من سيجارة قصيرة، خرجتُ من الزجاجة مضطرباً. كانت غرفة التدخين عبارة عن خزانة زجاجية. في المطارات يستعرض المدخنون جُنحتهم، فيما المارّة ينظرون إليهم بارتباك. ما الذي يحدث هناك؟ غير أن المصادفة جعلتني أنصتُ إلى حوار شابَّين عراقيَّين، وهما تدخّنان. هذه المرّة كان الأمر مختلفاً. كنتُ موجوداً في لحظات الصمت، بين جملتَين لا تلتقيان، في الفراغ بين شفتَين مطبقتَين. كانت اللغة قد

أسرتني. كلمات ممطوطة، توحي أكثر مما تقول. بدأت الفتاتان في حضوري تتكلّمان بطريقة مُلغزة، خالية من الإشارة إلى الأسماء أو الأماكن. لا ذهاب ولا إياب. كثرت الضمائر المتصلة، وقلّت المعلومات المؤكّدة.

"سأقول له إن شيئاً من هذا لن يقع"

"هو وحده من سيكون مسؤولاً"

"بالمصادفة عرفتُ أنه كان موجوداً"

"ليست مشكلته"

"بل هي كذلك"

"لا أرغب في أن تكون سيرته كلها موضع اهتمامنا"

"على العموم، ستفاجئه عودتكِ"

"تظنّين ذلك؟"

"ربما. لمَ لا؟"

كانتا تتحدّثان من غير أن تنظر الواحدة منهما إلى الأخرى. كانتا تسترقان النظر إليّ، وهو ما دفعني إلى أن أدير ظهري لهما. غواية الأنفاس تكفي. للحظات تخيّلتُ أن صوتيهما اخترقا ظهري، وصارا يفتحان ثغرات في جلدي، ليتسرّبا إلى دمي. كنتُ مسحوراً بذلك القارب الذي صار يقلّني بين أمواج الشهوة. صوت امرأة عراقية يصل إلى القلب أسرع من أيّ صوت آخر. عجين من مادة هي مزيج من الحواس ومن الوقائع الطبيعية التي تخطف مثل صاعقة. ما من سلالم، وما من وقع لخطوات متأنية، هناك الأبواب التي تُفتح عنوة، والصفير الذي يعصف بالغابات، وقفزات القنادس على الجسور الخشبية الصغيرة. أغمضتُ عينيّ. كانت بلادي تقع في الأخضر الغامق، وفي المياه العذبة الكثيرة. ضفادع على الساحل، ومقرنصات هادئة النغم، وغزلان تطلب النجدة. كان هناك خنزير وحيد في برّية قاحلة. كنّا خفاة بأقدام مُدماة. التحقت الأشواك بأخطاء الشفاه اليابسة. ما من قبلة إلا على مستوى الإلهام الذي يصل متأنياً مثل أرنب خائف. من محطة غرب بغداد، أستقلّ قطاراً يذهب إلى العدم مباشرة. الفراغ يحيطني من الجهات كلها. نبي على دراجة، وسلطان لا يرفع عينيه عن الأرض، بحثاً عن مؤخرة قَدَم أنثى، عذّبته. نهار فائض بين يومين مسرعَين. الوقت في المطارات لا علاقة له بتحوّلات الشمس. طقس

بخاري. تستلقي الأنثى على سرير صوتها. تنفتح شهوتها على رائحة أوراق اليوكالتبوس العائمة في ماء مَغلي. أخرِجي، أيّتها الجنّية، رأسَك من القارورة. ستراني المرآة حين أنظر إليها. لا يزال هناك حبر في عيني. لا تزال هناك دمعة مالحة على لساني. أمشي بين حقول الألغام، على كتفي ببغاء، وفي قلبي هدهد. لا يزال دعاء الزيارة يسيل على ظهري. السلام عليك، يا كبد الحوت. السلام عليك، يا نهار المَنسيين. السلام عليك، يا شفيع الانتظار. السلام عليك، يا مفرّج الهموم. السلام عليك، يا خفقة الجناح. السلام عليك، يا برد الموجة. السلام عليك، يا لمعة الذهب. السلام السلام السلام. وكانت الحرب قائمة خارج الخزانة الزجاجية. شُهبٌ من نساء شقراوات، أباطرة من رصاص ذائب وقبائل من حقائب تتنقّل بين الواحات. حين التفتُّ لم أجد المرأتَين. لا بأس. بالنسبة لي، فإن البلد المُتخيَّل لا يُنتج إلا كائنات مُتخيَّلة. كنتُ سأخرج من الهزيمة ملثماً في الأحوال كلها. يا صديقي، في بحر البلطيق لا تغضّ الطرف عمّا يحدث في فرانكفورت. ولكن، ندى في أبو ظبي فعلتْ ما يمكن أن تفعله أنت، لو استقبلتني. أخذتْني من النهار الربيعي الساخن، وسلّمتْني بعد ساعات لرخاء أبراج الاتحاد، حيث فندق الجميرة.

"كنتُ معك".

تُصلح ندى لتذكّر بالسعادة. كنّا صديقَين بعمق، من غير أن نُعبّئ حقيبة صداقتنا بالوقائع. ليس لدينا ما نتذكّره. قبّلتُ يدها. سأقبّل يدها. السلام على تلك اليد. تصنع فكرة من هواء، من مرجان، لم يتعزّف عليه أحد بعد. عيناها تستخرجان الحلّ. ليس لديها الكثير ممّا يمكن أن تفعله. تعترف بتواضع. بالنسبة لي، فإن وجودها في ذلك المكان يهب الفكرة معنى. فكرة أن أكون موجوداً معها. المرأة التي رجعت إلى محارتها. كنتُ أتمنّى لو تبقى هناك. لا يزال حليب الطفلة يلوّن بزرقته عينَيها. لا تزال الثعالب تتقافز بين ثنايا معطفها. لا تزال سُورة ياسين تحرسها. ندى كبرت. هذا صحيح، ولكنها لا تزال تتعذّب، لأن العالم من حولها لم يبلغ نضجه. ستكونين وحيدة ندى. لم أقل لها ذلك. "أنا وحيدة" قالت شيئاً من هذا القبيل. ربّما تُنقذنا جلسة في مقهى الحافة بطنجة. سنكون وحيدين هناك، ولن يكون هناك أغراب.

"عبروا قبلنا"

"قبلك وقبلي"

"ولكنهم وصلوا"

"ونحن سنصل أيضاً"

"ولكن، ببطء"

"أموت عليك"

حياتي تسمح بالتفاؤل. هناك هنود كثيرون يصبّون التوابل في الأوعية. هل رأيت أحداً منهم يُشبهني؟ يهمّني أن يكون الغد غداً. ولكنه لن يكون غداً إلا إذا كان يَشبهني. لديّ ما أفعله في اليوم الذي لم يقع بعد. لا يعنيني ترابه في شيء، بل سأحدّثك عن هوائه. صديقتي، لقد كبرنا، من أجل أن نعثر على المرآة التي لن يُفزعها صدقُنا. سترانا، ليرانا العالم من خلالها.

ندى، أنت في عمق المرآة جمرة المرأة النائمة.

قلتُ لها فيما كنّا جالسين في مطعم يطلّ على حوض سباحة: "أحدنا يحلم بالآخر جالساً معه. أحلمكِ، وأنت تحلمين، أو أن هناك مَن يحلمنا معاً. لا شيء من الواقع في لقائنا" تبدو اللقاءات السعيدة كلها خيالية. نعيشها من غير أن نصدّق أنها وقعت. يليق بنا الفقدان أكثر. ما من شيء يعوّض شيئاً آخر.

"باريس هي الاستثناء الوحيد. ما من مدينة تُزار مرّتين" كنتُ قد حدّثتها عن المُدُن. بالضبط عن استحالة العيش في مدينة مرّتين. لن تنجو المرة الثانية من مكياج الزيف. ستكون تلك المرة بمثابة إعادة تمثيل لجريمة، لم تقع. ما من نكهة. ما من طعم. الروائح هي الأخرى تفقد تأثيرها، مثل الصور تماماً. كل شيء كان حياً في الذاكرة يسلّم نفسه للموت. في أوّل زيارة لي للدوحة بعد أن غادرتُها قبل خمس سنوات، تعجّبتُ كيف تأتّى لي أن أسكن في هذه المدينة أربع سنوات متتالية. المعجزات يصنعها الاضطرار أحياناً.

حين هبطنا إلى الجانب الغربي من البحيرة، التفتنا إلى الغابة.

يستحقّ النسيان أن نرتكب من أجله المَعصية. مَعصية الذات التي تأبى الترفّع عن صغائرها البذيئة. الإثم مهما كان صغيراً، فهو وحش، في إمكانه أن يلتهم غابة كاملة ببراءة عصفور. شيء ما في الغابة، في أعماقها يهبني ثقته. يأسرني بعاطفته، ليعترف لي أن ما من شيء يقع بالمصادفة. هناك

خيال على الأرض، هو في حقيقته مرآة، تعكس خيالاً يقيم في السماء. "وما تسقط من ورقة إلا يعلمها" الوقائع تذهب، المعنى هو ما يتبقّى منها. تتذكّر أنك قد عشت. ولكن، هل عشت فعلاً مثلما تحب، مثلما تريد؟ يتساءل صديق وقع في الأسر في أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية، وهو يتذكّر سنواته قبل الأسر، فيقول:"هل كنتُ حُرّاً هناك فعلاً؟" يقصد الوطن. يتذكّر زوجته وأولاده وأصدقاءه والدروب التي كان يمشي فيها وسرير نومه ومكتبته ومائدة الغداء، فيتعذّب، ولكن الحُرّية هي القضاء الذي يضمّ كل شيء بين ثناياه. الحُرّية هي همزة الوصل، الرتاج الذي لا باب من غيره، الدعاء الذي يهب الصلاة قوّة التجلّي. يتذكّر صديقي الخوف الوطني. لا يتذكّر من حياته السابقة سوى الخوف. الغابة لا تُخيف. لو أنصتنا لصديقي جيداً، لعرفنا أن المُدُن هي التي تُخيف. يتمنّى المرء أن يكون برّيّاً، بشرط أن يكون حُرّاً. في لحظة الأسر، تغيب المُدُن، تُصبح الذكريات عبئاً ثقيلاً. يركض الشيطان مثل عذاء أعمى. خسر صديقي حُرّيته يومها. هل كانت الحُرّية من قبل واحدة من مقتنياته؟ يشك في ذلك.

"سلّمني شرطي خفي، كنتُ أظنّه خيالياً إلى شرطي، اكتسب بُعداً واقعياً"

لن أكون حُرّاً بالمصادفة. لن أكون أسيراً بالمصادفة.

أتمنّى أن يتأخّر نقّار الخشب عن موعده اليومي. للطبيعة حماساتها التي ترى في كل ما يقع معنى العيش قريباً من القيامة. باب الجنّة هناك. رضوان لن يغفو أبداً. يكسب الشرطي ثواباً، وهو ينزلق بك عن عتبة الوَهْم. ستكون سعيداً، أيّها الأبله. جرّبْ أن تكون سعيداً مرّة في عمرك.

"ولكن الحياة التي أعطيتها كل ما يمكنني أن أعطيه خذلتني"

نقول الحياة كما لو أنها فكرة ذهنية وبصرية عن العيش الشخصي. عيشنا في لحظة بعينها. وهذا ليس خطأ. غير أن تلك الورقة التي تسقط، إنما تقضي حياة بأكملها، وهي في طريقها إلى الأرض، سابحة في الهواء. يمكننا أن نتخيّل سُبُل النجاة التي يخترعها حلزون، قرر أن ينتقل من جانب في أحد دروب الغابة إلى الجانب الآخر. إذا لم تسحقه قَدَم بلهاء، فإنه سيعيش مغامرته الوحيدة عابراً بين نهارَيْن.

"أنت ذلك الحلزون" أقول لصديقي. لن يقول الحلزون إن الحياة

خذلته، بقدر ما ينتشي بخبرته المضافة. ربما لن يخبر أحداً بأنه نجا، سيهمس لورقة ضائعة بجملة لن يكرّرها. "لقد تمكّنتُ". سيكون الحلزون بعد نجاته كائناً آخر. لقد عاش ذلك المخلوق المكتفي بذاته حياته، باعتبارها مغامرة عيش كاملة. في المتر الوحيد الممكن الذي عثر عليه ترك خيطاً أبيض، يشير إليه. مزت الخفّة متأنّقة. مرّ الجمال متخفّياً. كان هناك خطر في طريقه. ما أعظمها من دراية ومن دهاء، حين تواجه المَعصية معجم الخطر بسعادة. يتصفّح الفقراء كُتُب الرخاء بقوّة التخلّي.

في الغابة أتعلّم النسيان.

هناك أوراق صفراء يابسة، أدوس عليها من غير أن أشعر بالذنب. يُفجعني التفكير في قدرة الإنسان على أن ينسى أن تلك الأوراق ما هي إلا مخلوقات مثله، مخلوقات تستحقّ الرثاء، والعناية بأجسادها بعد موتها. أمم تُسلّم إرثها أمماً، تأخذ مكانها. كان هناك سومريون، بابليون، فراعنة، صينيون، هكسوس، إغريق ورومان، عرب وفُرس، مغول وخلافة عثمانية، وكان هنالك ليل. ليل طويل بخمسة قرون، خيّم على بلادي. عجز الوزّاقون عن تأمّل حبره، وهو يسيل على مخطوطاتهم. جنني باليرقة، لأكون فراشتك. جنني بالزيت، لأكون قنديلك. كنّا يتامى لأمّ غير واضحة. لذلك كان مزاجنا ضيّقاً. كان مزاجاً أبيض. تسقط عليه الضحكة، فيتألم. وكان مَن ينسى من بيننا يحتاج إلى ذكاء مَن يتذكّر. وفي لحظة بعينها، يوافق الاثنان على أنهما عاشا الزمن الخطأ. لقد أنهكنا جنّياتنا بالنبوءات. ليس صحيحاً ما عشناه. كنّا نتخيّل فجراً على النافذة، ذهباً على الضريح، مهرّجاً بين رقّاصي الساعة، وبلاداً تمتدّ مثل بساط لثغاء خروف مُترف.

على الجانب الغربي من البحيرة كانت بلادي تموء.

سأعاقبكِ، أيّتها القطة. لديّ رثاء كثير. البارحة حلمتُ بأرنب، بأذنَين طويلتَين تصلان إلى السماء. كان رأسه صغيراً، بعينَين صغيرتَين. وكان ينظر إليّ صامتاً. شُبّه لي أن ذلك الأرنب هو غريمي، فقرّرتُ أن أقاتله. غير أنه كلّما وجّهتُ إليه ضربة كان يتلاشى. كلّما وجّهتُ ضربة إلى جزء منه، كان ذلك الجزء يختفي، حتّى بتُّ أخشى أن يختفي كله، فتوقّفتُ عن ضربه. ابتسم الجزء المتبقّي من فمه، وسمعتُه يقول لي: "يشفع لك أنك مريض. هل قلتَ إن بلادك مريضة أيضاً؟ سأنسج من حريري وسادة، تتّسع لرأسيكما. ستنام أنت وبلادك في سرير واحد. لنعرف الأنثى من الذَّكَر، ونُعيدكما إلى الليلة المناسبة" حينها اختفى. وعدني ذلك الأرنب بسرير

وملهاة على شكل بلاد.

أفرح لأن تلك البلاد لا تزال أنثى. كم ظننتُ ذلك. منذ الجاهلية يتذكّر الرجل ذُكورته بشيء من الغمّ. لقد أمسكت الأنثى بالعصى السُخرية. كانت هناك المرأة التي رعت النبوّة، صدقت، وملكت العالم بقوّة اليدَين اللتَين تُدثّران. "دثّريني، يا خديجة" ولكن بلاداً عظيمة لم تُدثّرنا. تركتْنا في العراء.

"لم أسمع وقع خطوتك"
"لأنني كنتُ بلا قَدَمَين"

لم أعش حياة الحلزون في رحلة عمره بين شروق الشمس وغروبها، لذلك ليس لي خبرته. لم أعثر على المتر الممكن، فصدّقتُ أن بلادي لا تقع إلا حين يدقّ الجرس. هناك ميت لم يسعفه صوت المؤذّن، فقرّرت الكنيسة أن تُشفق عليه بمقاطع من باخ. ستمرّ الجنازة. لديك ما تنساه. قمر ميت، وأصابع من تين مجفّف، وياقوت يُباغت الأذنَين بهمسه. كانت لنا بلاد في تلك البقعة من الأرض. وكنّا سعداء بها. فلاحين ورعاة ومفسّري أحلام وأباطرة مؤجّلين وحرّاس معان وممولّي أفكار وذُكوراً يقفون على شفا حفرة من الأنوثة وسارقي كمنجات مثقوبة. مُهلهلين، الحياة التي لم نعشها سبقتْنا، فيما الحياة التي عشناها فعلاً صارت تبتعد عنّا، كما لو أنها تُعلن براءتها منّا.

"حين تنتهي الحرب، سنعود إلى بلادنا"
"ولكن، متى تنتهي الحرب؟"
"قل لي أين تقع بلادنا، لأقول لك متى تنتهي الحرب"
"كنّا نتحدّث عن الحرب، في سوق الدجاج.
في سوق الدجاج، كنّا نتحدّث عن الحرب.
عن الحرب، كنّا نتحدّث في سوق الدجاج.
اختفى سوق الدجاج، ولم تختف الحرب"

٢- وقائع مجاورة

بحثتُ عنه في هلسنكي

غالبا ما يُخيّل إليّ أنني لم أعش الوقائع التي أتذكّرها، والتي أرويها لآخرين لا أعرفهم. هناك شخص ما التقيتُه يوماً ما هو الذي عاش تلك الوقائع، ورواها لي، وتوهّمتُ أنها جزء من سيرتي الشخصية. الآن أسمع صوت ذلك الشخص، وأنا أكتب. أراه وهو يمشي في الشوارع التي مشيتُ فيها، يرتدي ملابس النوم التي أفضّلها، ويذهب إلى فراشي بدلاً منّي. صباحاً يجلس على الأريكة نفسها التي أجلس عليها، ويتأمّل النباتات الظّلّيّة التي أتأمّلها كل صباح، وحين أمدّ يدي إلى فنجان القهوة، أرى يده قد سبقتْ يدي إلى الفنجان. يضحك في مرآة الحمّام، ويمشّط شعره، ويُلقي نظرة عابرة على حوض الاستحمام. ربّما يتوقّع أن يرى جثّتي هناك. ألصق نفسي بالجدار خشية أن يصطدم بي حين يخرج من الحمّام. ما كان يزعجني فعلاً أنني لم أكن أتساءل: "ما الذي يفعله ذلك الغريب في بيتي؟" لم يكن يراني إلا حين يرغب في رواية واحدة من حكاياته التي صرتُ مؤمناً أنه سرقها من حياتي، وصار يدّعيها لنفسه. "في بيتي هناك" يقول لي ولا أعترض، بالرغم من أنني أعرف أنه يقصد بيتي. يبدأ بسرد الحكاية التي صرتُ أستعيدها مقتنعاً أنني عشتُ وقائعها. غير مرّة رأيتُه يجلس أمام الحاسوب، ويقرأ ما كتبتُ. يحرّك رأسه موافقاً، ويمضّ شفتَيه تلذّذاً. كان أصغر منّي بسنوات، بل بعقود. أراه يمدّ يده إلى الكتاب الذي أحلم لو أني أستطعتُ أن أمدّ يدي إليه. يفتح ذلك الكتاب، ويبدأ القراءة صامتاً. أراقب عينَيه وهما تتحرّكان على السطر. تقع نظرتي على أبيات من (بيسوا) الذي شُغفت به، ولا أزال. أنساه وأتذكّر صديقي زكي إبراهيم عليّ. كان زكي أشقر الشعر، ويهوى قصيدة النثر. عام ١٩٧٠ كانت قصيدة النثر تُهمة في العراق. على الأقلّ، يمكن أن يُعدّ الاهتمام بها نوعاً من الجنون. صدمني زكي بـ (توفيق صائغ، أنسي الحاج، يوسف الخال، جبرا إبراهيم جبرا، سركون بولص) قال لي إن حسين مردان يكتب هراء. وحين عثر ذات مرّة على قصيدة من بيسوا مترجمة إلى العربية، حملها إليّ، وقال بفرح: "هذا هو الشعر". محوتُ القصيدة بنظرتي، ولم أفهم شيئاً. قال

لي: "ليس عليك أن تحفظها، ولكن، عليك أن لا تنسى سِخرها. الشعر هكذا".

يؤكّد لي شبيهي الشاب أن صديقي كان قد قال لي تلك الجملة حرفياً. يبتسم وهو يربتُ على ذراعي قائلاً: "حسناً. لم تنسَ منها حرفاً واحداً". أشعر بالعجز. في مدينتي سكلستونا هناك قناة مائية حُفرت منذ مئات السنين. على جانبَي تلك القناة هناك حدائق ومقاه شعبية ودروب رُصفت بالحصى وبالحجر. ولأني التقيته أوّل مرّة، هناك جالساً على مصطبة، فقد صرتُ أتوقّع أن أراه كلّما رغبتُ في التمشّي على ضفّة القناة. حين لم أره، صرتُ أتخيّل أنني استعرته من حكاية لبورخس، روى من خلالها وقائع لقاء، تم بين بورخيس الشيخ وبورخيس الشاب، وعدتُ إلى بيتي فرحاً بذلك الاكتشاف. وهم ليس إلا هو. غير أن ما حدث بعد ذلك بدّد أوهامي كلها. ما إن بدأتُ الكتابة حتى صرتُ أسمع صوته، وهو يُملي عليّ وقائع حياتي. يقفز بين كلمة وأخرى، ليصحح مسار الجملة. يقترح عليّ الذهاب إلى مطعم نزار بدلاً من مطعم تاجران، وهو يقول لي: "أنت لم تعبر شارع السعدون من تلك النقطة على الإطلاق. تذكّر أنك بالرغم من كراهيتك للمعقّدين، فإنك كنتَ تنتظر ذهابهم إلى البارات في شارع (أبو نؤاس)، لتجلس في مقهاهم، كما لو كنتَ واحداً منهم. لنقل وريثهم المتخيّل. بطريقة أو بأخرى كنتَ تقلّدهم". رغبتُ في أن أوضح له أن البلاد كانت أكثر سعة من أن نختصرها في تناول طعام الغداء في مطعم والجلوس لشرب الشاي في مقهى. كان يصمت حينها، فأشعر بالراحة. لا يزال في إمكانه أن يصمت، لكي أبدأ برواية حكايتي، مثلما عشتها.

عام ٢٠٠٥ ذهبتُ إلى هلسنكي لحضور افتتاح معرض للفنّانين المهاجرين. كان عبد الأمير الخطيب في استقبالنا، ما إن رست السفينة (سيليا لاين) على الشاطئ الفنلندي. من قبل، لم أكن قد رأيتُ الخطيب، ولم يكن الرجل قد رآني. ومع ذلك، ذهبتُ إليه، وجاء إليّ مباشرة. ذهبنا إلى مَرسمه. كانت زوجتي وابنتي معنا. هناك استأنفنا حوارنا، كما لو أننا صَمَتنا نهارَين، ثم تكلّمنا في النهار الثالث. يضع الخطيب مَن يستمع إليه في المنطقة الحرجة. نحن غرباء. تذكّرتُ وأنا أستمع إليه غربة قصيدة النثر في العراق. وما إن التفتُّ إلى النافذة حتى تذكّرتُ أن صديقي زكي إبراهيم علي كان قد ذهب للدراسة في هلسنكي. عام ١٩٧٤ عرفتُ أن صديقي قد قُبل للدراسة في كلّية الفندقة، فيما قُبلتُ في أكاديمة الفنون الجميلة. كان زكي مستاء. لذلك ذهب إلى هلسنكي للدراسة الأدبية هناك.

سألتُ عبد الأمير عن جامعة هلسنكي، فأشار بيده من غير أن يهتمّ بسؤالي. بعدها أقلّنا إلى الفندق، وقال إنه سيلتقينا صباح اليوم التالي. في الخارج كانت هناك عتمة، وكان هناك ثلج، ولم تتعدّ الساعة الخامسة مساء. خرجتُ من الفندق وحدي، وفي ذهني أمر واحد: البحث عن صديقي القديم. على الأقلّ، يمكننا استئناف حديثنا عن قصيدة النثر. صرتُ أدوس الثلج، وأقرأ أسماء الشوارع. لابد أن يكون صديقي مقيماً قريباً من الجامعة. كنتُ أريد أن أخبره أنني صرتُ مثله مولعاً بأشعار بيسوا، وأن أنسي الحاج صار صديقي، وجبرا إبراهيم جبرا احتفى بي يوم وضع كلمتي عنه على الغلاف الأخير لكتابه (شارع الأميرات). صرتُ أسرع في مشيي، وأنا أرتّب الحكايات. ياه! مضى زمن طويل منذ أن التقينا آخر مرّة. لابد أن يكون صديقي زكي قد مشى في هذه الطريق قبل سنوات. سأصفها له، وسيقول لي إنه كان يرتاد مع صديقته الحانة التي تقع قرب مخزن الأغذية الكبير. سيقول لي إنه نسي محفظة نقوده ذات مرّة في محطة الميترو القريبة من حديقة الحيوان، وحين عاد إليها بعد نصف ساعة، وجدها في مكانها. بلد آمن. كان الثلج يهطل خفيفاً، ولم أكن قد بلغتُ هدفي، حين سمعتُ صوت شبيهي وهو يصرخ بي ساخراً: "أيُعقل أن تكون متحجّراً إلى هذا الحد؟ ذاكرتك يابسة. صديقك التي تذهب الآن باحثاً عنه كان قد مات عام ١٩٨٣ في الحرب من غير أن تسنح لك فرصة رؤيته. يومها كنتُ سعيداً، ولم تكن تصدّق الأخبار الحزينة. أنت تبحث في هلسنكي عن شخص غادرها منذ أكثر من عشرين سنة، ليموت غريباً في بلاد، هي الأخرى ليست بلاده".

كان زكي قد مات في إيران قبل أكثر من عشرين سنة. ما الذي جعلني أبحث عنه في هلسنكي في ذلك النهار المعتم؟ ربما كانت طفلته، وقد أصبحت امرأة واحدة من النساء الفنلنديات اللواتي رأيتهنّ في الساعات التي سبقت تفكيري في الذهاب إلى الجامعة بحثاً عنه. ولو أني التقيتُها الآن ماذا ينفع أن أخبرها أن والدها كان يوماً ما بوصلتي الشعرية. لن تحلّ قصيدة النثر العربية محلّ صورة الوالد الذي اختفى أشقر الشعر خفيفه، في بلد لم تعرفه، ولن تعرفه أبداً. ربما ستقول لي إنه ذهب إلى الحرب، لأنه يحبّ بلده. وهذا صحيح. كان زكي يحبّ العراق، ولكنه كان يفكّر بمصير قصيدة النثر أكثر ممّا كان يفكّر بمصير العراق. لن أقول لها إنه كان يحبّ قصيدة النثر أكثر من بلده. ستكرهني، لا لأنها تعرفه أكثر منّي، بل لأنه أبوها فقط. وهذا يكفي. الآن يُخيَّل إليّ أن من روى هذا كله هو شخص ثالث. ليس أنا. وليس الشخص الذي يُشبهني يوم كنتُ شاباً. قد

يكون هو زكي نفسه، وقد شعر أني فقدتُه إلى الأبد.

نُخفق في العذاب حين نبكي. لن يكتمل الدرس. هناك أصبع ناقص، هو ذلك الأصبع الذي يستر الكلمة المحذوفة. تخدعنا الحقيقة حين تُوهمنا بأنها تتخيّل. الواقع ليس كذلك. الواقع يقع لأنه مريض برغبته في الظهور. يفتك بنا حين يريق ماءه على شفاهنا، على شكل تمتمات واهية. ينقصنا بعض القطع، لتكتمل اللعبة. كل شيء جاهز، من الوقت السائل إلى القَدَمَين الحافيتَين. في كل ما نحاول القيام به، هناك فقرة لا يمكننا سوى الاعتراف بعجزنا عن الوصول إليها، ذلك لأننا لا نعرف أين تقع. نذهب إلى السوق، وحين نعود إلى البيت، نكتشف أننا اشترينا أشياء كثيرة، ماعدا الشيء الذي ذهبنا إلى السوق من أجله. ذهب المال، وبقيت الفضة. لم تسقط ذرّة الرمل على كتف الدقيقة الهاربة، وليس للندم جناحان. أليس من حقّنا أن لا نشعر بالاطمئنان؟ حواسنا ترتاب بنا. نحن في المقابل، نثقل عليها بذنوبنا. تبدو الأشياء التي جلبناها من السوق عديمة القيمة قياساً بالشيء المفقود. كأننا نقسو حين نتذكّر. نطيع موقفاً، لم نتخذه. ما الذي يُخبئه الغد لنا؟ أصرّ على أن الكتابة هي حلّ غامض. هي بالتأكيد فعل غامض. يصرّ الاخرون على أن الحياة ليس حلاً أمثل، ما لم تخترقها الحكايات، طولاً وعرضاً. ننزلق على سطح مرآة أملس، من غير أن نتحقّق من سلامة جلودنا.

خارج الكتابة هناك معنى للحياة أيضاً.

ليس البشر ممثلين دائماً.

أحياناً يكتب الروائيون في الصفحة الأولى من رواياتهم ما يشير إلى أن كل ما سيرد في هذه الرواية هو من اختراع الخيال، وأن أي تشابه في الأحداث، أو الشخصيات مع الواقع هو محض مصادفة. شيء من هذا القبيل يدفعني إلى الشعور بأن كل ما في الرواية التي سأقرؤها سيكون واقعياً. مئة بالمئة. الكاتب هنا لا يخشى الفضيحة، بل يؤكّدها، ويستسلم لها بطيش. والفنان كما هو معروف لص بريء إلا في ما ندر. نحن نُطعم الموتى أجراساً وصلوات ومناديلاً وأدعية وساعات رمادية حين الكتابة.

لحظة الكتابة نتذكر الشيء المفقود، الفقرة السائبة، ولكننا لا نقوى على الذهاب إلى النقطة الحرجة: هناك حيث لا مفرّ من الإخفاق.

ما من شيء يقع خارج ما نعرفه. هذه بداية لمزاج مخيّب.

روى لي رجل بوسني جلس إلى جانبي ذات مرّة في القطار الذاهب إلى ستكهولم الحكاية التالية، قال: "كنتُ جالساً ذات مرّة على ضفّة النهر أشرب النبيذ، فسمعتُ أصواتاً غريبة، جعلتني أشعر بالخوف، فهربتُ، واختبأتُ وراء أكمة من الأشجار، غير أنني اكتشفتُ أني نسيتُ قنّينة النبيذ في المكان الذي كنتُ أجلس فيه. صرتُ أنظر بأسى إلى القنّينة، وقد أمسك بها أحد الجنود الصرب الثلاثة متأمّلاً. قال له زميله وهو يمدّ يده إلى القنّينة: لنشرب نخب انتصارنا؟ غير أن الجندي الذي كان يحمل القنّينة أعادها إلى مكانها، وهو يقول لزميله: سيعود الرجل، ليكمل جلسته التأمّلية، وسيكون في حاجة إلى ما تبقّى من النبيذ. كنتُ أنا الرجل المقصود. حين ترك الجنود الصرب الثلاثة المكان، قرّرتُ أن أخرج من مخبئي، وأذهب إلى ضفّة النهر، لأكمل جلستي، وأشرب ما تبقّى من النبيذ. غير أن ضجّة سمعتُها منعتني من الخروج. لقد رأيتُ عشرات القرويين البوسنيين يقتربون من المكان، وسمعتُ أحدهم يصرخ بفرح: لقد ترك الأوغاد قنّينة نبيذهم. هيا لنشرب نخب هزيمتهم. تنقّلت القنّينة بين الأيدي بسرعة، ورُميتْ فارغة في النهر".

سَكَتَ البوسني، ونظر إليّ بعينين دامعتين.

حكايته الواقعية لا تمتّ إلى الحقيقة بصلة، غير أن أحداثها وقعتْ فعلاً. كان الرجل بطلها الذي خرج من التجربة بخبرة يائسة، وبألم لا يُضاهى. تمنّى لو أنه لم يرَ المشهد. لم يعشه باعتباره بطلاً. وتمنّى أيضاً لو أنه لم يروِ الحكاية لغريب مثلي، التقاه في قطار سعيد.

لقد وجدتْ نفسي حين انتهى رفيق سفري من حكايته، وأنا أبحر في خيال لغة صامتة. موضوعياً فإن المشهد الذي رآه صاحبي ورواه يمكن تقطيع أوصاله، ومن ثمّ إعادة بنائه. غير أن كل محاولة لإعادة البناء لابد أن تصطدم بعقدة: هناك قطع ناقصة من لعبة البازلت. أشفق الصرب على رجل، لم يُكمل شُرب نبيذه، غير أنهم ربّما قتلوا طفلاً، كان يرتوي من ثدي أمّه. ربّما كانوا قد أحرقوا قرية. ربّما أُصيبت الملائكة بسببهم بالهلع. القرويون من جهتهم، لم يهزموا أحداً. لقد شُبّه لهم. غير أن احتفالهم كان عبثياً. ردّة فعل مجانية.

قال لي الرجل البوسني حين ودعني، ونحن نهبط من القطار: "هذه هي المزة الأولى التي أروي فيها تلك الحكاية"، واختفى بين الجموع.

مثل الروائيين كلهم، الكتاب كلهم، كان الرجل فاشلاً في الوصول إلى الحقيقة. بعد هذه المزة، سيروي الرجل تلك الحكاية في استمرار. انحلّت عقدة لسانه، وقد ينسبها إلي، باعتباري بوسنياً، التقاه مصادفة في القطار الذاهب إلى ستكهولم.

تُصرّ فرانشيسكا فيني (فنانة إيطالية ١٩٧٠) على الارتطام بمرآة، هي عبارة عن كرة بلّورية. عارية تدخل إلى عمق المرآة، هناك تتعدد أشكالها. تتعذب لأنها لا ترى سوى ما يسبّب لها الألم. ما من شيء سوى ما يجرح. تخرج من المرآة متعذدة، غير أن شظايا المرآة سرعان ما تلتصق بها، تغطي جسدها. تصبح فرانشيسكا مرآة، لكن: ليست بسطح مستو، بل بشظايا. لعبة البازلت نفسها. ليست هناك حكاية واحدة، يمكن لفرانشيسكا أن ترويها، بل هناك حكايات. كل جزء من المرآة يرى ويُظهر الشيء الذي يراه. لقد تجزّأت فرانشيسكا، لا بسبب النظر إلى المرآة، بل لأنها في حقيقتها كانت كذلك.

كل صباح ننتهي إلى الإخفاق الذي نتوقّعه.

"الحياة يمكنها أن تمز من غير حكايات". هذه كذبة. يمكننا القول إن الحكايات يمكنها أن تكون من غير معنى. تلك جملة تُفسد التاريخ. نحن نكتب من أجل أن نضع المعنى في الماء المغلي، ليتبخّر. حينها ينتقل المعنى من الحالة الصلبة إلى الحالة الغازية. الحكايات هواء. لسنا هواء تلك الحكايات. نحن نتنفّس الحكاية، مثلما نفعل بالهواء. حين نكتب، فإن أصابعنا تتبع أثر زفيرنا. في ذلك القطار الذاهب إلى ستكهولم كان صاحبي البوسني ينظر من خلال زجاج النافذة إلى الحقول الشاسعة التي كان القطار يجتازها، وكان يتخيّل نفسه جالساً على ضفّة النهر، وهو يشرب النبيذ من غير أن تصله أصوات الجنود الصرب. يقول لي: "لو أنهم لم يأتوا، لكنتُ شربت القنينة كاملة بدلاً من أن يشربها القرويون الأوغاد".

لكن الجنود أتوا من أجل أن تكون هناك حكاية. ومن أجل أن لا يكون لك غد. لم أقل له إن كل مستقبل صار وراءه. ذلك لأنه أخبرني أنه ذاهب إلى العاصمة بحثاً عن عمل مناسب لسنّه.

قنينة نبيذ صلبة في خياله. النبيذ يسيل في دمه. أما الحكاية، فإنها لا

تكفّ عن التحليق، وهي في حالتها الغازية. في سياق تلك الحكاية، لم يكن الصرب أوغاداً. كان البوسنيون هم الأوغاد. ولكن الحكاية تكذب، وهو لا يصدّقها، لذلك فإنه لم يروها لأحد.

"هذه هي المرّة الأولى التي أروي فيها تلك الحكاية"

لن تكون الأخيرة. أنا متأكّد من ذلك. مثل فرانشيسكا عثر الرجل البوسني على المرآة التي في إمكانها أن تشظّي روحه. عثر عليّ، لكي أروي حكايته، أو أختلقها.

"الكنز هناك. في المسافة بين نخلتين. تحت الأرض بنصف متر، ليس إلا. سيكون الكنز مخفياً على الأيدي كلها. يدك وحدها حين تمتدّ إليه ستجعله مرئياً" كانت تقول وتشقّ في الفضاء بنظرتها هديلاً لحمامتين، عليّ إذاً أن أتخطّى الذكرى. أن أمرّ مثل حارس ليلي. هناك واقعة لا تزال تُخبّئ رأسها تحت المخدّة. أنقب في عيني الغزال بحثاً عن عناصرها.

في الغابة، يعود الكون إلى مستقرّه.

الماء والهواء والنار والتراب هم ضيوف الرحمن في حفلة شواء. قالت لي في لحظة صلح كوني:"بغداد مريضة" لا أرغب إلا في الورقة الأخيرة من شجرة الصفصاف. سألقي بها في الماء المغلي، وأتنشّق بخارها. يا لشقاء ذلك الملاك الذي سلّمني لضحكات القرويين البلهاء! أقنعني أن أنفاس الخريف ستمتزج بغبار خطوتي، أن ابنة الجيران لا تزال تقف وراء سياج البيت الطيني حاملة رغيفاً ساخناً في انتظار أن نأكله معاً. إن شيخ الجامع ترك على الرازونة كتاب الأدعية، ونام حالماً بكلاب القرية.

"الكنز بعيد، يا أمّي، وأنت مريضة".

سأكذب لأكون قريباً من الوصية. السطر اليابس في قعر المحبرة. سأحمل خطوتي بعيداً عن المطر. لا مظلات في الغربة. رأيتُ جهنّمية في بيت نادرة بمسقط، فاطمأنّ قلبي. لا يزال هناك أمل إذن. الأحمر الناري يصنع أرجوحة، عليها أضع حقيبة المدرسة، لتذهب وحدها إلى النجوم. لن تعود الحقيبة قبل المساء. أنا حُرّ في غيابي. حُرّ في كسلي. حُرّ في الخطأ الذي لم يرتكبه أحد سواي.

لم يكن للتاريخ معنى حين هلك الابن، ونجا الأب. لا عاصم اليوم إلا الله. تصنع الذنوب المعجزات أيضاً. لا يودّ المرء أن يكون ذلك الابن، ولكن الأب سخر من المعنى كله حين استجار بالجغرافيا. لو جلس الأب على التلّ بدلاً من الابن، لكنّا قد تقدّمنا خطوة في اتّجاه اليابسة، ولكان الغراب قد تعلّم الدرس بدلاً من أن يُعلّمه. لا يزال الطوفان ممكناً كل لحظة. ألأن الجغرافيا تجز التاريخ من قرنيه؟ "مثل ثور أعمى، يا صديقي" لن يُنصت

أحد، ولن يتعلّم أحد.

الشيخ الذي قادني إلى السوق في (أصيلة) كان حارساً ليلياً، وكان عائداً إلى بيته حين أوقفته فجراً، لأسأله عن أقرب مخبز. بسعادة صار يروي لي وهو يمشي حكايات ساخنة عن خبز أمه. لقد فقدها قبل ربيعين. كنّا في الربيع الثالث. حين حملتُ رغيف الخبز الكبير مغلّفاً بالورق، رأيتُ ذلك الشيخ يؤمئ لي بيده. التقط لي صورة، حملها معه إلى فراشه. سيروي لزوجته الحكاية ناقصة. لقد التقى عراقياً مولعاً بالخبز المغربي، وحدثه عن خبز أمه الذي لا يزال ساخناً بعد ربيعين من وفاتها. حملتُ الرغيف إلى غرفتي، ووضعته على السرير. كانت صورة الأمّ النائمة توحي برخاء متواضع، يركع له جياع العالم إجلالاً. يومها أغمض العالم عينيه، ونام على سريري. في الربيع الثالث، حضرت أمّ الحارس المغربي إلى غرفتي. تركتها تتلو وصيتها.

حين رأيتُ أمل نصر، وهي رسامة مصرية، في مطعم الطَّلَبَة (كنّا نقيم في المدرسة الفندقية) لم أروِ لها ما جرى لي، باعتباره حدَثاً خرافياً. ولأني رغبتُ في إخفاء الحكاية، فقد صرتُ ألتقط حبّات الزيتون، وأضعها في فمي، لأشارك زميلتي طعام الفطور. لم أكن جائعاً. لقد شبعتُ حين رأيتُ رغيف الخبز على فراشي، وهو يحلم بدلاً من الأمّ التي رحلت قبل ربيعين.

لو أني رأيتُ أمّي، لرويتُ لها تلك الحكاية. غير أن أمّي كانت بعيدة. كنتُ أجلس على صخرة، تطلّ على الأطلسي بعيداً عن أمّي.

لا الحمامة عادت، ولا ظهرت البابسة. لا يزال الأطلسي غارقاً في عتمته.

بحر أسود يُزيّنه قارب صيّاد عجوز. تيرنر هناك يقف على الضفّة الأخرى. أما همنغواي، فإنه يلين مثل سوط حوذي. كان الرغيف قد تلاشى بعد يومين من تلك الحادثة التي جعلت الابن يهلك، فيما نجا الأب، وَظِفَتْ على المياه أقفاص حيواناته.

"غزير مطرك، وقليل دمعي".

بعد المقبرة بشارعين، تقع المدرسة الفندقية. قلتُ للسائق، فظنّ أني معلّم جديد. "عراقي آخر" همس بأسى. هذه المرّة كشفتُ أصيلة عن شعبها. أقفز كما لو أن يدي ستصل. أتلمّس طريقي بين الدروب الضيّقة، فأعثر على ضالّتي: الكنز الذي تؤلّفه صيحات الأطفال ولفتات النساء

وعربات بيع الخضروات والخبز والفواكه وأقدام الشيوخ التي تضرب الأرض باطمئنان، ولافتات البقاليات والحمامات والمقاهي والملابس على حبال الغسيل، ورائحة الباذنجان المقلي والبيض المسلوق وصالونات الحلاقة ومحلات تصليح الدرّاجات الهوائية المكتوبة بخط اليد المسرعة.

ليست أصيلة دروب القصبة البيضاء وحدها. من حقّها أن تكون اثنتين: واحدة لنا، وأخرى لهم. مَن نحن؟ ومَن هم؟ حتى السمك لن ينأى بنفسه عن تلك الثنائية المريضة. سمك للحارس الليلي ولأمّه الميتة منذ ربيعَين، ولعبد العزيز ولي بعد أن فتحت المتاهة لي أبوابها وسمك لضيوف العمدة، ممّن ترتجل أقدامهم الخفيفية أوقاتاً ضيّقة، تلهو في دروبها الجنيّات البيضاء.

وهبتْك أمريكا عالماً افتراضياً، أنت في أشدّ الحماسة له. تحتاجه من أجل نسيان الحقيقة المريضة. "هل تريد أن تقوم بجولة بين قاعات المتحف العراقي من غير أن تغادر بلدتك الثلجية؟" هل تقع الناصرية على الفرات حقاً؟ ألا يزال أصبعك عاطفياً إلى درجة البكاء؟ ما عليك سوى الذهاب إلى (ياهو)، سترى أوتونبشتم هو يشيد سفينته، فيما تحيط به المخلوقات، من كل صنف ذكَر وأنثى. لا تبحث عمّا لا يسرّك. شقي مَن رأى. "ولكن بغداد مريضة" مَن قال ذلك؟

علينا أن نفهم أن الديمقراطية ليست سوطاً. الملّل والنِّحَل لكم، ولنا النفط ومشتقّاته. لنا الجغرافيا، ولكم التاريخ. أوتونبشتم، جدّكم الأعلى طوى صفحات التاريخ بقارب من ورق الجغرافيا، ونأى بنفسه عن الحقيقة. يصله صوت ابنه "يا أبتي" فيعود الصدى حاملاً شهقة ميلاد جديد "يا بني". في المسافة ما بين المدرسة الفندقية والمخبز تُزهر الحدائق الاصطناعية، وأحزاب الصحوة، وأسيجة الضبار، والطائرات الورقية اليابانية، والفنادق العائمة، وشبكات الهاتف النقّال، ومسلسلات الغرام التركي، وموائد القمار، وكوابيس العار، ومجالس العشائر، وفنون ما بعد الحداثة، والمرثيات العشر، وقناديل علاء الدين، وجنائن بابل، ومحميات الخيول العربية، ومحترفات الرسم بالحنّاء والبخور والأفندة.

"لن يكون الكنز بعيداً عن يدك".

لقد امتزجت العناصر، بعضها بالبعض الآخر. ففن يحزر الهواء من النار، ويصفّي الماء من التراب، ويعيد الكون إلى سابق سيرته؟ محض خيال. أبحث عن الكنز، فتضيع يدي، وتستخرج القبائل عثراتها من بئر زمزم.

طعام مسموم على الطُرُق الخارجية. الآرائك مليئة بالمسامير. يُعيد القراصنة السفن مثقوبة. لا يحقّ لنا أن نرى إلا ما يظهر على الشاشة. في المستطيل الأبيض يرقد الأحبّة. إن عبرتَ قبراً، فلا تستعجل العودة إليه. وإن لم يلمسك عطر زهرة، فلن يحدث ذلك إلا بسبب عطل تقني. ضع ياسمين الشام في صيدلية البيت، واحتفظ بأثر جارح على يدك من رازقي بغداد. المُدُن تمرض مثل البشر. الحدائق تمرض. الأنهار تمرض. حتى الموتى يمرضون. ولكن رغيف الخبز لا يمرض. التهمته في يومين، وظلّ ساخناً هناك، يحلم بعينَي المرأة الميتة. لقد اهتديتُ، يا أمّي، إلى الكنز.

يدها على خدّها

"سنة وأعود"

الخبيرة بصوتي عرفت أني أكذب. لم تُحرجني نظرتها. هناك وترٌ ناقص في الكمنجة. لقد قضت العمر، وهي ترمّم، تُزيّت وتُدوزِنُ تلك الأوتار حتى تركت أثراً جارحاً على أصابعها. نوعٌ من نسوة يوسف الذاهبات إلى أقصى الشهقة. "لا بأس، لتكن ستتين، ثلاث ..." لم تقلها. كان اللسان في وادٍ لغوي آخر. كان المطر يتأمّل غيمتها. كانت الريح هي الأخرى تنتظر عصفها. كان الحقل البعيد حيث الأمهات المنتظرات منذ أور الثالثة، يُنصت إليها.هناك خطأ ما في الكون يقع في تلك اللحظة العالقة بالهواء مثل راية. خطأ في البصيرة، فالمناخ لم يعد يحرص على خطواته. كان عليها أن تنسى أنها على وشك الفقدان. تمرّ العربات. صدى عجلاتها ينقب بحثاً عن قَدَمَين ضائعتين، قَدَمي الطفل الذاهب إلى المدرسة لتوّه، قَدَمي العريس المنتشي بفتاته البغدادية ذات الشعر القصير، قَدَمي الشاعر النائم على دفتره الملقى بإهمال على منضدة المطبخ. باردة تلك الأقدام. لمَ يقال إذاً إن الحفى تأتي من القَدَمَين؟! كان الصخب كله وقد هدأ، يراقب النازحين. وقت قصير مرّ. كما لو أنها لم تعشه. كما لو أنها لم تتذوّق زهرته وهي تشقّ طريقها إلى فمها. لم تطع يدها التي امتدّت إلى خدّها. ما الذي تفعله تلك اليد هناك؟ لمست أصابعها. عثرت على الوتر الناقص هناك. "كنتُ أكذب" لم أقلها. الجملة الوحيدة التي كانت لا تثق بها. الخديعة لها لسان.

"ستكون سعيداً".

من حقّها أن تحتفظ لنفسها بحكايات، لم تقع وقائعها بعد.

صدرها مليء بما لم يقلْه أحد بعد. لن تكون الخرائط نافعة حين يذهب الضوء بالعينَين. سأحدّثك عن ليلى، الفتاة ذات القبّعة الحمراء. وكانت تعرف أني أكره اللون الأحمر. إذن لنمضِ إلى النهر، بعد سيّد عاشور بنخلتَين هناك دَفن جدُّك الكنز. يدها محرجة. لم تكن الدمعة مَرئية. الدمعة هي الأخرى مثل الحكاية، فارغة في انتظار وقائع، لم تقع بعد. "كان الشمر حقيقياً" التفتُّ إليها، فلم تعتذر. بعد سنوات، اكتشفتُ بداهة الفكرة. فهي

لم تقل لي "كان الشعر واقعياً". هنالك فرق إذاً. أمدّ يدي إلى يدها، فيرتجف الطائر على الغصن، يترك صيحته، ويختفي.

"سنة وأعود".

"لقد وجدتُ ليلى الذئب نائماً" تضحك بعمق، لأنها تكتشف الشعر في الكذبة. "حين أيقظته بدا غاضباً" لا تريده أن يأكل الفتاة البريئة، فترسم لي دائرة في الهواء. "ابتعدي، قال لها الذئب. لا أريدكِ أن تتلصصي على أحلامي. وعاد إلى النوم" يومها قتل ابنُ الجيران قطتي، فبكيتُ حتى نمتُ. ليلتها حلمتُ بالخبز، الرغيف يلتهمني فيما كانت تضربه بالعصا. في مراهقتي، رأيتُ القمر على شكل رغيف، وتذكّرتُ ذلك الحلم. "لا تقصّه على أحد، ولكن، صدّق الرؤى" كنتُ أضع الكتاب فوق الكتاب، لأبدو أكثر طولاً. "أنت طويل بما يكفي، لكي أضمّك من غير أن أنحني" كانت الدمعة هناك. لم أرها. تخيلتُها على هيأة مكعّب ثلج. "هناك في القطب سأكون رجل الثلج، سيكون أنفي أشبه بجزرة، ورأسي مثل بصلة".

"دثّر نفسك" لم تقلها.

"لا بأس بسنة واحدة من الهواء". كانت الحشرة قد تسلّلت إلى دمي. كانت الرمال قد ابتلعت الوقت كله، وصارت الساعة من غير عقارب. أتكتك، لكي يكون لفمي معنى. الغائب في حضرتها، الإمام الذي لا يُرتجى ظهوره، الوسادة التي ترك عليها القناعُ وجهَه كنتُ. أتأمل الوقت. دقيقة مضتْ. دقيقتان. ولكنني لا أرى يدي. لقد تلاشت أجزاء كثيرة مني. كانت سلّتها تمتلئ بالفواكه. "الخريف ليس لك" لم تقل "لعدوّك". "كان باب السماء مفتوحاً" قالت لي بعد سنوات. كانت تقف قريباً من بيت الله. "أخيراً حظيتُ بلقائه" تصمتُ. "ولكن، متى أحظى بلقائك؟" هذه المرّة صمتُّ أنا. شعرتُ بالحرج. "يالحماقتي! نسيتُ أن الوقت لم يحن بعد. ولكن، متى تنتهي السنة؟" ليس للبرد لسان. "سأنتظرك. إنني لا أكذب" تذكّرتُ حينها أنني قلتُ لها ذات يوم:
"سنة وأعود".

ولكن السنة صارت عشراً. ضعُف بصري، وتسلّل الثلج إلى شعر رأسي، وصارت ركبتي تُؤلمني كلّما أكثرتُ من المشي في الغابة، وصرتُ أشتري الكتاب الذي أحبه مرّتين وثلاث، من غير أن أعترف أنني فقدتُ جزءاً من ذاكرتي. أستمع إلى باخ، كما لو أنه يسترجع وقع خطواتي على سلّم المدرسة. يجلس الطائر على ركبتي وهو يظنّني تمثالاً، وحين أتحرّك ينظر

إليّ باستفهام "ما الذي يحدث؟" هناك خطأ ما في الكون إذاً. لم أبرم اتفاقاً مع الشيطان. لقد تركتُ غواياته كلها على الجسر، وعبرتُ. سأكون كما كنتُ دائماً. صالحاً أنام على سرير الجدّة التي تنتظر حفيدتها. صارت الناقة حكاية قديمة. "مثل ذئب" مَن قال ذلك؟

هل تصدّقين أن أسوأ أيّامي هي التي أقضيها في انتظار أن لا تنتهي السنة. لمَ هذا الوقت المضاف كلّه؟ يكفي أن نكون موجودين في اللحظة ذاتها. مَن قال إن اللحظة ذاتها تتكرّر في مكانَين؟ لا يحتاج المرء إلى ساعته حين تقوم الساعة. في تلك اللحظة حين وقفنا على الميزان، كانت الغيوم لا تُصدّق أمطارها، وكان المناخ يتساءل عن سرّ الأوكسجين الذي صار يأتي من جهة مجهولة. "يا منيتي، ويا عيوني" هل تحتاج إلى منديل أبيض، لكي تلوح به من وراء سياج الدار؟ لقد شفّت عيناها في اللحظة التي توقّعتُ فيها أن تبكي. لن تُحرجني بدمعتها، فانتظرتُ بكائي.

يحتاج المرء إلى أمّ، لكي يكون أباً. ما هذا الاكتشاف العظيم؟!

بأيّة سنة، كانت الأقوام تتصيّد الزمن بأصابعها؟! بأيّة ساعة، نظر شارلمان إلى وجه صديقه الرشيد، فيما كانت الساعة البغدادية تلتهم الوقت؟! فجأة صار للعدوّ والصديق وقت واحد. في المرآة، يرى المرء وجهه، باعتباره وجه ضيف ليلته السابقة. لم يمرّ الوقت ثقيلاً على أهل الكهف. تخيّليني واحداً منهم. كنتُ ساهراً أنظر إلى الساعة في المطبخ. هي نفسها، فلماذا يتحزّك الوقت مثل شبح؟

قلتُ لكِ: "سنة واحدة وأعود".

سَنَتي لا تشبه سَنَتَهم.

الوقت كان بغدادياً، وكان شارلمان يضع على رأسه تاج الفرنجة.

يومها كنّا اثنين. كانت الملائكة لا حصر لعددها، وهي تُحيطنا ببياضها. لنقتسم البياض. منه لك، لتريني من خلاله، ومنه لي، لكي أبقى لصيق خدّكِ. هل قلتُ هذه آخر الدموع؟ ولكنني لم أرَ الدمعة. كانت البلاد تُطلق طيورها من الأقفاص، وكانت الحديقة السرّيّة تفتح أبوابها للعابرين في لحظة غضّة، لا تتكرّر. "أنتِ وأنا" أيّتها الزهرة. يا شجرة الآس. شظية المرآة. سلّم الموسيقى. عين الثعلب. قطرة العنب. دويّ الرصاصة. التفاتة غزال. ورقة خريف. ثنية ركبة. قوس قزح. أنا ألعب في المساحة التي تركتِها فارغة. أستمع إلى يوسف عمر وهو يغنّي "مات اللمنبجي داود

واعلومه" وأدرك أن كل موت عراقي صار يخصنا. البغادلة (البغداديون) يبكون. فطّومة ليست وحيدة في حزنها. ليس لديها مصباح أحمر. لقد كرهتُ اللون الأحمر، لأن مريم الكردية قد ذبحت ديكاً أمامي وهي تضحك.

عليّ أن أعترف الآن أنني كنتُ كاذباً في لحظة القيامة تلك.

قبل ليلة، صارت بلادي ماضياً. كنتُ ماضياً. زرعتُ شجرة الورد في شقٍّ بين حجرَين، وقلتُ سأنام من أجل أن تغمر السعادة الكون. ولكن الخطأ اعترضني. كنّا اثنين. لا، بل كنّا واحداً. كنّا صفراً. ومشينا مبتلّين بمطر وَهمي.

"سنة وأعود، يا أمّي".

خرجوا من ثقب الأبرة

درس البرابرة
هناك برابرة دائماً
.....
.....
لا القلاع بأبراجها، لا القرى بمداخنها
لا الكهوف بأحجارها، لا الخيام بنيرانها
لا الخرائط،
لا الكُتُب المدرسية، لا أنّة الناي
وسط هدير الكمنجات، لا البوق،
لا صيحة الديك تائهة في المراعي،
ولا كسل الذئب، لا غبطة العشب،
لا النوم والباب مفتوحة،
لا الليالي تُهذّب أحلامنا،
علّمتنا
أن نصدّ برابرة بعد، لم يُولَدوا
.....
.....
هناك برابرة دائماً.

١٨ تموز ١٩٩٦

كان البرابرة يتسلّقون سلّم البيت الخلفي. منتصف الليلة الأولى من كانون الأول/ديسمبر ٢٠١١ فيما كنتُ أكتب تلقيتُ رزمة ورق صفراء. كان للريح صوت عالٍ في الخارج. وصلت المخطوطة إذاً. لم يُبلغني نديم كوفي بعثوره على الكنز من قبل. غزت العاصفة الشواطئ من غير تمهيد مسبق، اقتلعت الأشجار، وهدمت الأكواخ، وكان هناك طفل وحيد يبكي تحت السرير. أنا كنتُ ذلك الطفل. تلقّفت يداي الأوراق الصفراء. رأيتُ حبري الأزرق هناك. لا أنسى قلم الباركر السميك ونعومة الفورميكا على منضدة المطبخ المستطيلة. كان ذلك القلم قد أقام علاقة متينة بأعصابي.

ومع ذلك، فقد كانت لديه وجهات نظره الخاصة به، والتي لطالما فاجأني بها، كلّما نظرتُ إلى جملة تقع من غير أن يكون لساني قد تذوّق كلماتها سابقاً. "جملته هي" أقول وأرفع غطاءه عن نهايته، لأغلق رأسه، وألقي به على المنضدة الباردة.

أتذكّر أني كتبتُ ما بين عامي ١٩٩١ و١٩٩٧ وهي أعوام الحصار التي عشتُها في العراق مئات الرسائل إلى أصدقائي. أحياناً كنتُ أكتب رسالتين في الليلة الواحدة. كان ما أفعله تمريناً قاسياً على مقاومة الألم، وأيضاً محاولة لقياس المسافة التي كان العيش لا يزال فيها ممكناً. حتى اللحظة التي وقعت عيناي على الرزمة الصفراء التي بعث بها نديم لم أكن أتذكّر ما كتبت في تلك الرسائل. ذات مرّة قال لي فاضل العكرفي، وقد امتلأت خزانته الزجاجية برسائلي: "إنها أشبه ببريد التائه". وكان يوسف الناصر قد كتب لي في وقت سابق عن أنها (أي الرسائل) تُشكّل مادة لما أسماه بكتاب التأوّهات. كان الصديقان مُحقّين. ففي تلك المرحلة من حياتي، شعرتُ أن البشرية تخون نفسها حين تسمح للقَتَلة واللصوص والآفاقين في أن يمارسوا أعمال إبادة جماعية في حقّ الشعب العراقي، تحت مظلّة الشرعية الدولية.

كان العذاب يومها لا يوصف. حتى يخيّل إليّ أن العراقي، ولشدّة ذلك العذاب، صار يرى عدوّاً في هبّة ريح وانزلاقة حجر وسقوط ورقة من غصنها. هناك يد شريرة تدسّ السمّ في طعامه، وتُربك الأدعية في صلاته، وتُلوّث زرقة السماء أمام عينيه. كانت جنائز الأطفال تتعثّر بحيرة الأمهات. أنصت إلى كبار السنّ وهم يلعنون العمر الذي طال بهم. وكانت بغداد تضيق تحت القَدَم غير أنها لا تكفّ عن التلفّت، باحثة عن صورة لعدوّ خفيّ. لم يكن الموت يحضر بيُسر. كان هناك مَن يهبك فرصة أن لا تموت، من أجل أن تتعذّب أكثر. بالنسبة لي، فقد كنتُ أشقى من أجل أن أحصل على الورق الصالح للكتابة. وأخيراً اهتديتُ إلى الورق الأسمر التالف الذي يفيض عن حاجة المطابع. صرتُ أحضر أسطوانة ورق، وأقطعها، حسب المقاس الذي يلائمني. بدأتُ أكتب على ذلك الورق أشعاري ونصوصي ورسائلي، غير أن لحظة سهو واحدة تتمثّل في نسياني رأس القلم، وهو في حالة تماسّ مع الورقة قد تدمّر كل ما كتبتُ سابقاً. حينها ينتشر الحبر في عروق الورقة، وتأكل زرقته كل ما كتبتُ. كنتُ أحرص على أن يمسّ القلم سطح الورقة بخفّة منقار طائر. كلمة كلمة مثل حبة حبة. أنقر الكلمات قبل أن تختفي، وحين أراها ماثلة أمامي، أشعر بالفرح، وأنظر

بتشفّ إلى ذلك العدو الذي أخفق في منعي من الكتابة.

في لحظة التيه تلك، هبطت عليّ فكرة كتابة ديوان شعري، حمل عنوانه معه: (درس البرابرة). كان المرء يصطدم بالبرابرة كل لحظة، في السوق، والأخبار، والحصّة التموينية، والبحث العَبَثي عن الدواء، والخبز الأسمر المُطعّم بالتراب، والماء الذي صار بطعم ولون ورائحة، والسيجارة التي تنطفئ لذاتها، والكوابيس والفاكهة المتعفّنة، وأطفال المزابل والمعلّبات الإيرانية الفاسدة، وأنباء الموتى، وطوابير الفئانين الباحثين عن فرصة لرسم صورة للقائد، وبذاءات الشعر الشعبي، والباذنجان الذي صار فجأة سيّد المائدة العراقية، والسمك الذي أشيع أنه قد أصيب بداء عضال، ومحطّات التلفزيون المحلّيّة، والكُتُب المدرسية المُمزّقة والأقدام الحافية. كان البرابرة هناك، في السطر الذي لا يزال في طور الكتابة، في النظرة التي لم تقع بعد على ما تريد أن تراه، في المسافة التي قد لا يجرؤ أحد على مَشيها.

لقد نسيتُ ما كتبتُ إلى أصدقائي في تلك الرسائل. حتى (درس البرابرة) نسيتُه لولا رزمة الورق الصفراء التي وصلتني من نديم. أتذكّر أنني حين أكملتُ كتابة قصائد ذلك الديوان، قرّرتُ أن أتخلّص منها. لم أكن في حاجة إليها. يحتاج المرء إلى القصائد من أجل أن يكتبها، أما وقد كتبها، فإنه يكون في غنى عنها. وهكذا صرتُ أرسل تلك الأوراق السمراء التي كتبتُ عليها قصائدي إلى الأصدقاء، فكانت حصّة نديم، كما ظهر لي مؤخراً سبّاً منها. فكّرتُ حين قرأتُ تلك القصائد الستّ في الطلب من أصدقائي، لكي نعيد مرّة أخرى جمع ذلك الديون الضائع، لكني شعرتُ بعَبَثية الفكرة. تلك القصائد ذهبتْ إلى مصيرها، مثلما ذهب شعبي تماماً. لا أفكّر هنا بالوثيقة، بل أفكّر بالعاطفة. لقد انتهيتُ مثلما انتهتْ قصائدي: تائهاً، مضيّعاً، مشرّداً، ملعوناً، متمرّداً، عَصيّاً على الرضا الزائف. لقد رضيتُ أن لا تكون تلك القصائد موجودة خمسة عشر عاماً، بل إنني قد نسيتُها، فهل يحقّ لي الآن التفكير في إعادتها إليّ، باعتبارها ملكاً شخصياً؟ ماذا عن البشر الذين هلكوا، كيف يمكننا استعادتهم؟

كانت بغداد مدينة، فحوّلها البرابرة إلى مزبلة.

لن تكون قصائدي أعزّ عليّ من بغداد. ملكاً بخطى واثقة كنتُ. كان الشرق قريباً من يدي. قلتُ لنفسي ذات مرّة، قبل الحصار: "لأجلس على كرسي الشرق المريح، وأتأمّل العالم". قمر ابن زريق لا يزال منيراً على حبل

غسيل، شدّ بين سياجَين على سطح الدار. الكرخ ليست بعيدة. أذهب إلى الشواكة، وأتلصص على أجساد بائعات السمك. وإن شعرتُ بالتعب، ففي مركز صدّام للفنون هناك الكثير من اللقى البصرية التي من شأن النظر إليها أن يُعيد إلى روحي تألّقها. كان المرء يرى الموسيقيين الذين رسمهم جواد سليم في كل حفلة عرس. يرى زين العابدين طالعاً من لوحة شاكر حسن آل سعيد متأنّقاً بلغزه التاريخي، ليرود الدروب الضّيقة، معطّراً هواءها بأدعيته. لن أنسى ما حييتُ صوت لميعة توفيق وهو ينسلّ من وراء باب بيت في الحيدرخانة معذّباً: "هذا الحلو قاتلني، يا عمّة".

كان هنالك شعر كثير في بغداد، وقد اختفى إلى الأبد.

لَحَسَ البرابرةُ الأرصفةَ، وأسِرّةَ النوم، وعرباتِ السمك، ومياهَ دجلة، وذهبَ الأضرحة، وملاعقَ الشاي، وصحونَ الهريسة، وخطوطَ هاشم البغدادي، وقبرَ الجنيد، وصفصافَ أبي نؤاس، وبوّابةَ المتحف العراقي، وعرباتِ الباعة في علاوي الحلّة، وسيّاراتِ الملك في الزوراء، ومعهدَ الفنون الجميلة، والمستشفى الجمهوري، وتمثالَ (أبو جعفر المنصور)، وسينما الحمراء، وفندقَ بغداد، ومكتبةَ النهضة، وكبةَ أبو علي، وسراي الحكومة،، ومسرحَ بغداد، وأورزدي باك، وبيرةَ فريدا.

خرج البرابرة من ثقب الإبرة، وناموا على سريري، فيما كنتُ أكتب وصيّتي.

وكما يبدو لي الآن، فإنني كتبتُ ما بين عامي ١٩٩١ و١٩٩٧ رسائل إلى أصدقائي، كانت مكتظّة بذِكْر برابرة، لم يُولَدوا بعد. كانت البشرية كلها في ظلّ الظُّلم الذي وقع على العراق تستعيد عصرها البربريّ الزاهر. وإذا ما كان العراق قد عاش، عبر عقدَين من الزمان، تجلّيات البربرية كلها، فإن بربرية مثقّفيه القادمين إليه برفقة المحتلّ كانت هي الأقسى. يتمنّى المرء لو أنهم ماتوا من أجل أن يحتفظوا بكرامتهم، ومن أجل أن يحتفظ العراق بذكرى نظيفة لأبنائه في المنافي. للخيانة رائحة عفنة.

درسُ البرابرة كان قاسياً.

حكاية رجل يفتح أقواساً

التقيتُ في برلين رجلاً مولعاً بفتح الأقواس في أثناء الحديث. كان كلّما فتح قوساً، يرفع يديه، ويحرّك أربعة أصابع، من كل يد إصبعين. وبسبب كثرة الأقواس التي فُتحت وظلّت فارغة، فقد شرد ذهني عن الكلام الذي كان ذلك الرجل يقوله. فكّرتُ في نفسي ربّما تكون هذه هي غايته. أن يوقع بي قبل أن أفهم منه شيئاً. أن أذهب إلى اللحظات الصامتة، من غير أن تُتاح لي فرصة التساؤل. ربّما كان قصده أن يُوهمني بأن هناك مناطق لا يزال فيها الكلام مؤجّلاً. كان بعد كل قوس يفتحه ويُغلقه، لا ينتظر منّي سوى هزّة رأس، ليستأنف جملته الطويلة. وهكذا ومن غير أن أدري، بعد قوس، قوسين، ثلاثة، وجدتني محروساً من الجهتين بأقواس عديدة، لا يمكنني أن أتخطّاها. أما هو، فقد كان يقف خارج الأقواس التي يُلقيها وراءه مثلما يفعل الصيّاد حين يترك فخاخه في انتظار الفريسة.

كان الرجل نوعاً من ساحر، وكان ما يفعله نوعاً من الفنّ.

الحيلة عينها التي جرّبها الفنّانون عبر العصور. من فنّاني الكهوف حتى فنّاني المفاهيم كانت تتمثّل في الرغبة في دَفْع المشاهد إلى مناطق بصرية يائسة تحتدم. حين يُطبق المشاهد عينيه مضطرّاً، تأخذ اللعبة مسارات أخرى. يمكن لنا دائماً أن نتخيّل أننا كنّا مخدوعين. ما نخرج به منتصرين هو في حقيقته ليس سوى فقّاعات الصابون التي تعمي العيون. لذلك فإن أية عودة إلى عمل فنّي، أسرنا من قبل، ما هي إلا بداية جديدة في النظر إلى ذلك العمل. ما بقي من ذلك العمل في الذاكرة هو خيط دخان. نحن نستأنف علاقتنا بالعمل الفنّي الذي سبق لنا وأن رأيناه في كل محاولة نظر جديدة من لحظة صفر. ومع أنني لا أحبّ زيارة المتاحف، فقد كنتُ أجد نفسي مضطرّاً أحياناً إلى الدخول إلى متحف ما، لرؤية عمل فنّي بعينه. لا لأنني لم أرَ ذلك العمل من قبل، بل لأني أدرك أن حواري مع ذلك العمل قد انتهى من قبل إلى خيال جمالي ناقص. مثال ذلك ما حدث لي حين عرفتُ أن لسيزان مستحمّات في الناشيونال غاليري بلندن.

أعتقد أن ما نقوم به في هذا المجال لا علاقة له بفكرة العودة إلى عمل فنّي نحبه. ففي الطريق إلى العمل الفنّي الحقيقي هناك فخ دائماً. يفضّل الكثيرون الوقوع في ذلك الفخ الذي يحضر على هيأة فكرة ذهنية ميسّرة، متعة بصرية ضاربة، نغم مُلحّ يتكرّر مثل جملة موسيقية متأنّية. حينها ننسى ما تبقّى من الطريق، لنكتفي بالجلوس في تلك الاسنراحة، ونحن على يقين من أننا قد وصلنا إلى الهدف. ذلك اليقين هو في حقيقته محاولة للهرب من الاستمرار في المشي في طريق قد لا تؤدّي. شعورنا بالعجز تعبّر عنه جملة مترددة: "رأيتُ ذلك العمل من قبل، غير أنني لم أركّز عليه. كان هناك الكثير من الأعمال التي تستحقّ أن يراها المرء". ولطالما شعرتُ بالندم، لأنني لم أقف طويلاً أمام عدد من الأعمال الفنّية.

شعرتُ ذات مرّة بلسعة من (فيدوفا) وأنا أغادر أحد المتاحف. حاولتُ أن ألتفت، غير أني كنتُ متعباً. يقول المرء لنفسه: "سأعود إليه" غير أنه يعرف أنه يبتكر ذريعة، ليس إلا. لقد تعلّمتُ أن أشتري قطعة الثياب التي تُعجبني ما إن أعثر عليها. أما حين أقول لنفسي بتردد: "سأعود إليها"، فإن ذلك يعني أنني سأغادر البلد من غير أن تكون معي تلك القطعة. بالنسبة للمسافر، فإن هناك دائماً شوارعاً وساحات وأفنية وفضاءات ومطاعماً ومقاه ومحطات وقاعات ومتاحف أخرى. لن تكون العودة إلى المكان نفسه مُسلّية. كما أن علينا أن لا ننسى أننا ننسى.

ما إن أجلس على مقعدي في الطائرة حتى أشعر بالندم. لقد فتحتُ الكثير من الأقواس، وظلّت المسافة التي تفصل بين القوس والقوس الذي يقابله فارغة. لقد خدعتُ نفسي، حين صرتُ أشير إليها بأربعة أصابع في محاولة منّي لتهدئتها. كيف يمكنني أن أغفر لنفسي مثلاً أني وقفتُ مرتبكاً أمام (فتيات افنيون) لبيكاسو مثل رجل هبط لتوّه من سيارة أجرة باحثاً عن فندق، يقيم فيه أصدقاؤه؟ لقد تكرّر ذلك الأمر مع بيكابيا وهانس آرب وديلوني وبولوك وروشنبرغ ووليام دي كوننغ وشاكر حسن ولوكوربوزيه وماكس أرنست وبوسان وكرافاجيو وديغا وغويا. وحده فنسنت فان غوخ لم ينله ذلك الحيف. كنتُ أدخل إلى غرفته (في كل مكان) وأنا أعرف أن صلاتي ستكون طويلة.

"اشبع من فنسنت، يا قلبي".

النظر إلى رسوم فنسنت بالنسبة لي مثل الكتابة. مثل النظر إلى امرأة أحبّها. مثل العودة إلى العراق في الحلم. من أجل ذلك كله، أحتاج إلى

وقت، لا علاقة له بالساعة التي في معصمي، ولا بالساعة التي على جدار المطبخ، ولا حتى بالساعة التي أهداها هارون الرشيد إلى شارلمان الفرنسي. مع فنسنت، يكون المرء في مأمن من الزمن. في الميتافيزيقيا، لا يحتاج المرء إلى أن يفتح قوساً، ويُغلقه. يُقنعك فنسنت برداءة المناخ في الخارج، فيأخذك إلى غرفته في آرل. يلذّ لك أن تمثل دور بول غوغان. طبعاً لن تكون خلاسيات غوغان في متناول يديك. ولن يُطلق أحد الرصاص عليك. ولكنك ستكون الصديق المثالي. لن يخدعك فنسنت. سيجلب لك من المقهى التي رسمها كأساً من النبيذ الأحمر. "بوردو" تبتسم، فقد هيأتْ حالك. حقيبتك مليئة بالقناني. لن يرفع فنسنت يديه، ليفتح أقواساً. حياته نفسها كانت ذلك المكان الصامت الذي لا يحتاج فيه المرء إلى الكلمات. يبتسم فنسنت، لأنك تعرفه. لو لم ينتحر، لكان قد رسمك مثلما فعل مع الدكتور هاشيت.

بالنسبة لي، فإن رسوم فنسنت تخلو من الفخاخ. كل لوحة هي بئر يسقط فيه المرء، ولا يخرج. ما من يوسف، يا أبي. إذاً يحتاج المرء إلى حيوات كثيرة، لكي يتابع فنسنت. ذلك الساحر الذي لم يفتح قوساً في حياته. لم يرمّم جثث الكلام، بل اخترع لغة جديدة. حيلته في الرسم كانت يابانية، غير أن اليابان كلها، بعظَمَة ثقافتها، لا يمكن أن تهب طبيباً بالرسم مثله. يوماً ما سيكتشف الأطباء النفسانيون علاجاً لمرضاهم بفن فنسنت. هل الحاجة إلى فن غوخ مرضية؟ لا أقصد ذلك. وإن كنّا بطريقة أو بأخرى جميعاً مرضى. يشعر المرء وهو يقف أمام رسوم فنسنت بأنه تأخّر في اكتشاف مرضه.

لو لم يفتح صاحبي أقواسه لي في برلين، لما اكتشفتُ أن عظمة فنسنت تكمن في أنه لا يفتح قوساً. سألجأ إليه في كل مزة ألتقيه فيها، لأنظّف بنظراته المسافة التي تقع بين قوسين.

سأصدّق أن فنسنت لم ينتحر يأساً. ذلك لأن رسومه صارت تُنقذ الآلاف من البشر يومياً من الانتحار. ستكون لدى كل واحد من زوّاره نسخة منه. ستمرّ حكاية أذنه المقطوعة، كما لو أنها جزء من خرافة. لا يحتاج فنسنت إلى ذلك الرجل العاشق الذي أهدى عشيقته أذنه، لكي يكون موجوداً بقوّة في تاريخ العاطفة. هي واحدة من خرافاتنا. رسومه مشبعة بالحياة، بما يكفي للقفز على كل الأقواس المتخيّلة. أذنه المقطوعة هي قوس، يمكن القفز عليه. مرّ فنسنت نفسه بالطريق الضيّقة التي تمرّ بها، ولأنه لم يجد أحداً، فقد ظنّ أن مهمّته قد انتهت. لذلك قضى منتحراً.

"أيها الموت، أهبك جسدي"

لو كان فنسنت رجلاً يجيد فتح الأقواس، لكان شبيهاً بذلك الرجل الذي التقيته في مطعم ببرلين. أربعة أصابع في الهواء، وتكون الكذبة كلها حاضرة.

الثلج لا يسأل ولا يجيب. فجأة زهوره تنبعث من أغصان شجرة يابسة في الحقل المجاور. فجأة يلقي صباحه الأبيض السماء على الأرض، ويبتسم مثل مصارع مغرور. فجأة تسقط الوسادة على القم، ويمتلئ الهواء بالريش، وتطير جوقات الحمام. "الحمامة لي. حمامة واحدة على الأقل. في ضلعها تنام أمي. من فمها، أستخرج حليبي" يقول الطفل وما من أحد على الضفة الأخرى من الساقية. "أقفز لتكون معي" تقول له الساحرة. تمدّ عصاها إليه. تلمسه برفق. "بقفزة واحدة سيكون العالم جميلاً. ولكن، إيّاك أن تلتفت. إيّاك أن تنظر إلى الأسفل. انضمّ إلى حاشيتي، وستكون سعيداً" فجأة الثلج يغطي المحيط. كل محيط هو بحر للظلمات. هو قافية من غير شعر. هو يد سائبة، ومفتاح لباب مفقود.

لقد سبقني صياح الديك إليك. سبقني الثلج إلى الموتى. سبقتني شجرة نارنج إلى صحن اللبلبي (حفص مسلوق). يقول العراقيون: "ماء الحفص المغلي يشفي"، وفيه شفاء إذن. شيء من العطر الذي يذهب إلى الطبقة العازلة بين الروح والجسد. الروح هي الأخرى تتنفّس الأبخرة. حين تحلّق وتجد نفسها أخيراً وحيدة، لابد لها من استحضار كل عادات الجسد. أمضي إلى بغداد، محاطاً بتلال من الثلج. أشير بأصبعي، فتنبعث صورة بيت. خزانة العطّار السرّيّة. ستكون العائلة كلها هناك. الأب والأم والأخوات وروح الجدّ الحارسة. أتوهم أني وصلتُ. أتوهم أني دخلتُ إلى الحلم، وأغلقتُ الأبواب من ورائي. أتوهم أني أتسلّق سلّماً، لأصل إلى عيني أمّي. "لا تنظر إلى الأسفل. وإلا سنرى في فم الشيطان قبلة آخر امرأة تركتها من غير أن تلتفت إليها، المرأة التي تنتظرك حائرة منذ ثلاثين سنة".

"متى تعود؟"

"ولكنني عدتُ".

منين أجيب ازرار للزيجه هدل. حينها تدرك أنك صرتَ المهدي. إن خرجتَ من القمقم لن يصدّقك أحد. فللقيامة علامات. وما أنتَ منها. رجل ميت بجناحَي ملاك هارب من غرفة العناية المركّزة. يا شيطان، لا تستعجل

موتك. جيشك قد يقتلُك. ندمُك لن يزيح عن فمك شعوراً عميقاً بالغثيان. كم يلزم من الرمل، لكي تستعيد الساعةُ عصفورَها؟ "أخرِج لسانك، لأقطعه. لا تحدّثني عن جدّك. أعرفه، وقد سقيناه سماً. انزل من الشجرة ولك" يقول لك شرطيّ الحدود. لقد أبديتَ جهلاً مرعباً حين اختبرك أهل الذِّكر. لا تعرف ما الحوزة، ولم تسمع بولاية الفقيه، وليس لديك قريب في المقابر الجماعية. بعثيّ أنت. لم تفهم أيضاً. لديك أجندة خارجية. ها، ماذا تقول؟ لم تفهم معنى أجندة. أنتَ لستَ عربياً إذن. أفغاني؟ اعترفْ. وبشتون أيضاً، وليس هزار. تشرب عَرَق؟ خوش مهدي. كنتَ تريد أن تُخبرهم أن الثلج لا يسأل ولا يجيب. الغابة لا تسأل العصافير من أين أتتْ. ليس ذنب الغيمة أن شجرة وحيدة لم يسقْها مطرها. أوراقك الممزّقة أخذتْها هبّة ريح. "خايف عليها؟" كنتَ خائفاً عليها فعلاً. خائفاً على بغداد من عينيك. من أنفك. من أذنك. من يدك. سنُلقيك مقيّد اليدَين، أعمى وأبكم وأصمّ. يبتسم لك الحظّ أخيراً، فتكون في منجى من الألم. لن يقتلك القهر.

"عدتُ، ولكني أضعتُ الطريق إليك"

كان فؤادي قد أغمض عينَيه. وكانت خرائط عينَيّ قد التهمها الخوف. أفلحتُ أخيراً في العثور على بستانيّ، يجلس على الرصيف. هبّ لملاقاتي ما إن رآني متوجّهاً إليه. "مبين عليك من ناس زمان. عندك شجرة"

"ولكني صاحب الزمان، يا هذا" قلتُ له.

هزّ يدَيه بأسى "مشخوط آخر"، وعاد إلى جلسته.

كانت الوزيرية قد خبّأت أشجارها ليوم ظهوري. في شارع المغرب، رأيتُ باباً أعرفه. كانت الحديقة ملأى بالأعشاب الضارّة اليابسة. وكانت المرأة من وراء زجاج النافذة الواسعة تجلس على كرسيها الهزاز، مثلما تركتُها. تضع منزراً على ركبيتها، ليهبط إلى الأرض. "فدوة" لم تقلها هذه المرّة. كنتُ أرضى بصورتها وحدها. أرضى بيدَيها وهما تحوكان. السنّارة لا تلتقط الخيط، والخيط أعمى، فلا يهتدي إلى الثقب. صرنا في الزاوية، فمَن يُطلق النار علينا؟

أمدّ يدي إلى الباب، فلا تصل.

لقد عدتُ، ولكن، إلى مدينة أخرى. أحدّ ما استبدل مقعدي في الطائرة، وذهب بدلاً منّي إلى بغداد، فيما وصلتُ أنا بدلاً منه إلى مدينته. جنّيّ مرح أراد أن يختبر قوّة خيالي. فجأة تخلّتْ عنّي حواسّي. أبصر في الهواء

كائناتٍ تشعل الحرائق في أشجار مُتخيّلة، وبعدها تطوي الشارع، فتختفي البيوت وحدائقها والمرأة الوحيدة والباب الذي لم يُفتَح. "ما من نار. الحديقة تقع في الجانب الخلفي للبناية" يقول لي الحارس. في الحديقة، عثرتُ على شجرة ريحان. شجرة صغيرة تعلق بالضمير. مباشرة يذهب عطرها إلى حليب الأمّ. قلتُ إنهم يؤدجلون الألم. حلوة. جلستُ وبكيتُ. شبح لشجرة ينحني على شبحي. قلتُ سأؤمن بالأشباح، وأقود غزلاني القطبية إلى بياض مؤتمن. الغزلان فرحت، لأنها سمعت من الراديو خبراً عن وصولها. يحيا الراديو. قلتُ: "صرتُ الكذبة التي تتخذ هيأة سرّ أسطوري". هذا الحاجّ النائم هو سانت كلوز ضائع. كنتُ نائماً قريباً من باب الصيدلية التي تقع بالضبط في المنعطف الذي يقود إلى الأعظمية. سمعتُهم يتحدّثون بالعربية. لم أفتح عينَيّ.

"سانت كلوز بحزام ناسف"

"لا، هو من أنصار جيش المهدي. لكنه متنكّر".

"سُنّيّ من الرمادي. عيونه خضر".

"كيسه مليء بالحلوى المسمومة. القاعدة تُغيّر أساليبها. بلدان الجوار نقمة".

عدتُ إلى الحلم. العراق بلد لا حدود له. قطعة ثلج في الكاس. عالقة بالنظرة التي تراها مرّة واحدة. إنهم أهلي يكذبون. يضحكون ويبكون. يمشون على جمر خيالهم، ويسكرون بخمرة شقائهم. إنهم أهلي، يرتفعون إلى السماء، لا ليكونوا من سكّان الإيرباص المحلّقة، بل ليكونوا أسرى الحوريات المنتظرات في الجانب الآخر من النهر. اقفزْ، ولا تنظر وراءك. قفز أهلي كلهم. المجانين قفزوا، وتركوا البيت خالياً. فقير بيتي. شبحي يجلس في الزاوية بين النباتات الظّلّية التي لطالما رعتها زوجتي بأناقة لافتة. "الملكة هناك" تقول لي وهي تشير إلى نخلة صغيرة. النخلة هي أمّ العراقيين كلهم. تضحك غزلاني. تهمس غزالة في أذني: "ولكنك تأكل تمراً قادماً من السعودية وإيران والجزائر. لم نرَ تمرة واحدة قادمة في طرد بريدي من أمك" عليمن يا قلب تعتب عليمن. قلتُ عذراً. هناك خطأ في التوقيت. لقد أبكيت شجرة الريحان، ولم أر نخلة واحدة. أخوتنا المسيحيون يحتفلون بأعياد الميلاد بحُرّيّة، غير أنهم لسبب ما يشعرون بالحزن. لا يزال الأب أنستاس مار الكرملي ينتظر قدوم اللقلق المهاجر. سأقنعه بأنني الطائر الذي ينتظره. لن أكون المهدي المنتظَر في المرّة

القادمة. في عقد النصارى بحثتُ عنه، فلم أجد نصرانياً واحداً. أخوتنا المسيحيون هم مثل أخوتنا السنّة مثل أخوتنا المندائيين مثل أعدائنا العلمانيين. هل هناك علمانيون في العراق؟ لو عدنا إلى التاريخ، فإن شعب العراق كله لم يعرف التدين المتشدّد. كان العراقيون ضيوفاً دائميين. هم ضيوف العقائد والأعراق واللغات والأرض والغرام. عونج يا كاع. مَن يتوقّع هذا الثلج كله؟

كافور ومسك وعنبر وزعفران. ويابه يابه شلون عيون. أيّة أنوثة تلك؟ تطلعين من السماء السابعة، فيسجد الخَلْق. سيكون الشرك مسموحاً به من أجلك. سيعود الخَلْق إلى رشدهم بعد هنيهة من الدهشة. البلور لا يمكن السكوت عنه. لا بالإنس مثلك، صار لا بالحور. سأقف مثل طفل في انتظارك في المحطّة. ميكفي دمع العين يا بويا. تضحك أمّي، وتقول: لقد وصلتْ أخيراً.

"أغلق القوس، يا حبي. ما من حمامة في القفص والشجرة قد جُنّت. سأكون بلقيسك. مكنسة المطبخ وستارة الحمام. سأكون خادمتك. فقط أغلق القوس من فضلك"، ولكن القوس من حجر. شفة أمسكت بشفة، فاختُصرَتْ جملة، كان لها مقبض فأس، ورقبة نعامة، وحذاء جندي مهزوم، فَقَدَ قَدَميه. أحياناً تكون القبلة عقوبة. سبقَ لي أن عشتُ ليلاً طويلاً. ذات مزة على مشارف مدينة جبلية. رأيتُ الشقّ الذي يقع بين جبلَين وهو يلهث بزرقته. كان ذلك مشهداً غرضياً، المنزل نفسه كان يتداعى. الجمال يهذي، واللغة عارية، كلّما مدّتْ أصبعاً إلى شظايا مرآتها، تعود يدها إليها باكية. أنبكي لأن الجمال يهزمنا في كل مزة نحاول أن نشقيه بشهقات إعجابنا؟ كان بروست قد كتب ذات يوم: "دعوا النساء الجميلات لرجال لا خيال لهم" جملة شرسة ومطمئنة، فيها من اليأس ما يغذّي خراف الوادي كلها حليباً.

"يا حبي، أطلق الحمامة من سجنها إذاً" ألتفتُ، فلا أرى حمامة في القفص. كان الليل قد تكوّم مثل أرملة على حجارة الدرب التي تقود إلى الغابة. أضرب مثلاً: سقطت فراشة ميتة، فيما كنتُ أمدّ يدي إلى جرس بيت الجيران. قبل أن يُقرَع الجرس، سمعتُ بوقَ القيامة. عدتُ إلى البيت حاملاً دورق العسل فارغاً. كان الجنود يُفرغون أحزانهم في قلوب أحبتهم. يحدث هذا كل ليلة على شاشة التلفزيون في المُدُن البعيدة: مصراته، تعز، درعا، صعدة، طرابلس، تلكلخ. هل ماتت الفراشة وهي تهتف: "نموت نموت، ويحيا الوطن" سلّمتنا الثورة العربية الكبرى إلى ملوك، عادوا بنا إلى حروب الردة، وشيّدوا بدل السقيفة سقائف. سلّمتنا الحداثة إلى البياض، فانزلقنا إلى فراغ تاريخي، من تحته جبران خليل جبران، ومن فوقه فضائيات روتانا. أما شركة القاعدة الاستثمارية، فقد كان لها معنا ألف ليلة وليلة، ومن قبلها، أهدتنا الصحراء عوائل عاطلة عن العمل، الكسل هو مهنتها الوحيدة. قريش مزة أخرى. قريش دائماً. هذا الموت كله الذي من حولنا إذاً هو محاولة لفك الارتباط بالوصية. حلحلة الباب الموصد، وخلخلة فقرات الإرث.

قبل أن تموت الفراشة، كنتُ آمل بشيء من العسل الصافي.

يختبئ عصفور في شعرك، يا حبّي. أمدّ يدي بحثاً عن الزقزقة. "يا مريم، من أين لكِ هذا؟" سيقول ذوو القربى. تسع قصص قصيرة من سالنجر تكفي لترميم كنيسة قوطية. تضحك. "الحارس لا يزال هائماً في حقل الشوفان" منذ الخليفة الأوّل، ونحن هائمون مثله. في مقهى بسوق ساروجة، كان عدد الحوريات يفوق عدد الخَدَم الواقفين مثل وعول مُستنفَرة. أينما أولّي وجهي، فثمّ قاسيون. (من قاسيون أطلّ، يا وطني) كان خليل خوري يعدنا برامبو مُستعَاداً، لكن، باعتباره ابناً لعَدَن. وعَدَن كانت يومها شيوعية. حجّ إليها المثقّفون العرب، وكتبوا من أجلها الأشعار، ولا يزال علي سالم البيض وحده يتذكّر مَرآى الدموع في عيونهم. كنّا قاب قوسين أو أدنى من الجنّة، لولا أن قابيل صرخ مرّة أخرى: "خيانة" لم يُغلق القوس يومها، بل فتح فمه مثل نمر جائع، وصار يلتهم الأخوة. هل التفّت الساق بالساق يومها؟! حين عاد الشيوعيون العرب إلى بيت الطاعة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وجدوا في الرجعية العربية نبع خيال، لا ينضب. محلاها عيشة الفلاح في لندن، من خلال الطابق العلوي لباص أحمر عابر للقارّات يرى ذلك الفلاح دودي الفايد، وهو يفتح مظلّته. لندن ممطرة، ومدام توسو في مكتبها تستقبل الموتى. مثل قيس تماماً، قتل الحبُّ دودي غير أنه حمله إلى المتحف، بعكس سلفه الذي ذهب إلى الأغاني، وزوروني في السنة مرّة. لم يُهزَم دودي، بل خسر نزالاً في حرب مستمرّة. دودي لا يعرف ما الذي حدث لنا بعد موته. لقد خرج الرجل من النفق ميتاً، في الوقت نفسه الذي دخلنا فيه إلى النفق، ولا نزال هناك.

"عد بي إلى النقطة، يا حبّي. لقد أهلكتني الفواصل"

ماؤك أسود وليلي أبيض. حين يُعصَر الزيتون، ولا يَشرب الناسُ الزيتَ. حين يُداس العنب بالأقدام، ولا يشمّ الناس رائحة النبيذ. حين يكتب أنسي الحاج، ولا يقرأ الشعراء ما يكتبه. شفيق عبود ميتاً أفضل منه مَنسيّاً. أعود إلى الفراشة الميتة. هل كنتُ عدوّاً مرجئاً؟ في تلك الليلة، رأيتُ موسليني معلّقاً من قَدَمَيه. لمَ لمْ يذهب إلى جدّة؟ حتى بعد أن عُلّق الرجل بتلك الطريقة المخزية، لم يُغلق القوس تماماً. كانت أمريكا قد زحفت، وصار عليها أن تُترجم رخاءها كوارث، تُوزّع بالتساوي على محبّيها. مَن اخترع الحرب كان يفكّر عاطفياً بطريقة جانبية. لذلك لم ينم الوحش ليلة واحدة. عدوّك صديقي، وصديقك لن يكون عدوّاً لي، ذلك لأنه سيكون أكثر خبثاً منّي. تُترجم الصحراء خطواتنا الهائمة رملاً أبيض. ليلاً أعود إلى بيتي

بقبضة زهور برّيّة. أضعها في الأنية على رفّ الشبّاك الداخلي، وأتخيّل عطرها. لا بأس بحقول تهذي، فيما الريح لا تنبس بكلمة. لا بأس ببيت يقع على حافة الوادي، فيما الجنود يلتهمون صهيل فَرَس ضائع. "صارت بغداد مدينة قبيحة بعد ثماني سنوات من الاحتلال" كتب أحدهم، ولا تزال رائحة حليب ماعز الاحتلال تنبعث من شفتيه. ألهذه الدرجة تُتيح الديمقراطية لأبنائها فرص الخيانة المجاورة؟ الخيانة واحدة، والكلمات كثيرة. أخذ المحتلّ الفرنسي الخَوَنَة الجزائريين معه، لكنه رماهم في المسافة التي تفصل بين لغتين. أتخيّل عدد الحركيين العراقيين. لن نكون أفضل حالاً من الجزائريين.

أيّتها البقرة، هزّي رقبتكِ، ليُقرَع جرس القيامة.

*يا حبّي. يا حبّي. لن يكون هناك سوى نهر واحد، سنعبره سوية. لن تكون هناك سوى قبلة واحدة، سنمتصّ رحيقها نحن الاثنان حتّى النهاية. لن تكون هناك سوى كأس واحدة، سنظلّ نشرب من نبيذها، إلى أن تعتذر أثينا من سقراط. لن يرى ليوناردو ابتسامة الموناليزا على جدار، غزاه العشب الأخضر. الأفكار الضالّة جعلتنا ننسى. التاريخ لا يُعمر طويلاً. نحن أبناء الوحدة. "أنت وحيد" "وأنت وحيدة أيضاً" ونمشي بين الجموع، كما لو أننا فقرة من برنامج (غود مورننغ أمريكا).

لم يقلْ لنا الشيوعيون كيف انتهت طقوس حجّهم إلى عَدَن؟ قرأنا المدائح، ولم تصلنا المراثي. هل كانت عَدَن المحرّرة أقلّ قبحاً من بغداد المحتلّة؟ "كان عليك أن تنسى. انسَ عَدَن. انسَ بغداد. انسَ طعم النارنج ورائحة البطنج (نعناع الماء) وهديل الحمامة عند الفجر. انسَ القراءة الخلدونية وجارتك الكردية وطقوس التعميد المندائي. انسَ جسر الأئمّة. مهلاً. هناك فاصلة. أين ذهب المنسيون الألف؟ عدتَ إلى الماضي، يا حبّي. الخيانة ليس لها ماض. سقطوا في النهر جميعاً، وكان النهر يجري. يومها حاولنا أن نُغلق القوسَ غير أنه كان ثقيلاً. الحاضر مرح، لأنه يسمح لـ (سوف) بأن تُعيننا على الكذب. أكذب، وتكذبين. ألم تكن حياتنا نوعاً من الكذبة؟ "أشفقْ عليّ" تقول زوجتي وهي ترى الثوريّ يطارد شعبه زنقة زنقة، فيما يدعو رائد الوحدة اليمنية القبائل إلى تفكيك عُرى البلاد. أما الصامدون، فقد نفد صبرهم مع أوّل كلمة، خطّها طفل على جدار اليأس. أكثر من أربعين سنة صمود، لم تصمد أمام ابتسامة سخرية صغيرة. "والآن، يا حبّي. هل ترغب في أن تكتب الشعر، مثلما يفعل البرابرة؟!"

في ظلمات ثلاث. أمس، اليوم، وغداً. الجندرمة وقد تاهوا بين أزقة الشواكة الضيّقة. الفيصيلية، وقد نسيت على كرسي في مقهى الزهاوي. سيخ وقريشيون وشيبك وطورانيون ومعدان وكرد ومندائيون وسريان، وقد امتزجوا متسوّقين في أوروزدي باك، وفي المربعة مصريون، وسوادنيون في البتاوين، وهنود في باب الشيخ، وهنري زفبودا في الكرادة، وقريشن بابن قريشن بابن قريشن. انظز إلى ساعتك قبل أن تُسرَق. تلمَّس يدك قبل أن تُقطَع. اضغطِ الألف على نقطتي الياء قبل أن تلحس البقرة قيمر اللغة. حليب على حليب، ومَن يشرح الله صدره للسؤال، فقد كُتب عليه عذاب عظيم. له شفتان من فلفل. له قلب من قصدير. العبد والمعبود. أنت تسأل والحزب يجيب. مَن سيربح المليون إذاً؟ الحزب طبعاً. مليون سؤال ظلّت من غير إجابة. ذهب الحزب، وامتلأت السلّة عنباً، وصار الجرخجية ينامون بين ثورَين مجنّحين، نُسيا في علاوي الحلّة. لو أحصينا عدد الأحزاب الثورية، اللاثورية أيضاً، لمَ لا؟ لفاق ذلك العدد عدد الكوسترات في ساحة النهضة. كل حزب بما لديهم فرحون، ونحن نأكل فلافل أبو سمير، ونلطم. أبو سمير فلسطيني من حيفا. لا فَرَسَ له ولا حمار في شارع الخيام. ترنتي يُرينا الفلقة في سينما الرصافي. سادي آخر في بلد تسبق فيه الرصاصة جرس الإنذار. ألم تحن الساعة؟ أيّان مجراها ومستقرّها وفجورها وتقواها. حينها يكون الناس في حيرة من أمرهم. والعراق عراقان: عراق الجادة وعراق المحتجبة. وجيب ليل وأخذ عتابة. فأما عراقيو الجادة، فقد افتضّوا بكارة الطريق، ونفضوا عن أيديهم غبار العتاب، وصرتَ ترى الواحد منهم مَغشياً عليه من كثرة ما سُئل: "دو يو سبيك إنكلش؟" ألا ليت الشباب يعود يوماً، لأتعلّم الإنكليزية. وأما عراقيو المحتجبة، فقد اختفى منهم جيل، وظهر جيل، من غير أن تسقط الريشة من على رؤوسهم. هم الأقربون. مرّة إلى الحزب، وأخرى إلى الله. ولا فرق بين (في سبيل البعث) و(دعاء كميل). أيّتها العير، مَن سرق صواع الملك؟

ملك للطير، ويداه فراشتان. طار كلقلق.

كان الماء غير الماء. حين اهتزّ المركب، استيقظ نوح مذعوراً. هل حفر الغراب قبراً لأخيه؟ قيل له شجرة آدم تحت، وبيت إبراهيم وتوراة موسى وشيخ لم يسم بعد، تقتله الخيانة. سأل وهو يتذاكى: شرّ من رأى؟ قال الملاك الحارس: بل كرّ وبلاء. تأمّل السماء، وقال: هوذا شعب، لن يكفّ عن البكاء. سجع كهّان. قصيدة نثر بقافية. وهو ما بشّر به أحد الشيوعيين العراقيين. يومها لم يعد النغم إلى الربابة. فرّت الحمامة من القفص. تهنا، وما تبنا. صار للرذيلة ذيل، وللوقاحة فم، وللفقر وشاح. هل قلت التفّاح؟ العدوّ هناك. قال نوح. مدام توسو لا تتذكّره. حين احترق الورق، وأغلق العطّار دفتر حساباته، وانهمك النجّار في البحث عن الشجرة التي أنتجت الكرسي. صار على النبيّ أن يُعيّن أشعاره في قنان، يلقيها في بحر العرب. "للذكرى هيبيي" حلّت الهاء محلّ الحاء، وصار الهُبّ تلمودياً. في كل واد يهيمون. واحد منّا على الأقلّ بينهم. أن بورك من في المركب. يا نوح، انتهت الرحلة، فاكسر الأسطرلاب، وتم قريباً من النافذة. حين غفا، رأى غودو، وكان يومها إنسياً. قال: "ما الذي أحضرك، يا غودو؟" قال: "دعاني القوم لأكون حكَماً في ما اختلفوا فيه. ولكنهم رموني بالسهام ما إن فتحتُ معطفي، وبان قلبي، وعادوا إلى بيوتهم ثملين" هكذا هبط منطق الزبد من الأعالي، ولم تردع السحب فقاعات الصابون، وهي تشتعل في قلب المرآة. خفية ترك نوح مركبه متبسماً، وهو يقود حشد الإنس والجنّ والحيوان، وما بقي من البهائم إلى الثكنات. كانت الدنيا حرباً. ولم يكن الهدهد سعيداً. "سأذبحك" تضحك النادلة، وهي تقدّم كأس بيرة لمسافر غريب، حلّ في المولان روج باحثاً عن تولوز لوتريك. "جئت متأخّراً" "بعض الشيء" "أقلّ من رمشة عين" "بل مثل فكرة عن مكعّب ثلج".

الخطوة مفتاح. إن وقعت تلك الخطوة على الأرض أم حلّقت مع الغيوم. ولكن الشعر عدوّ اللغة، لا يكتفي بتهذيبها، بل يقتض منها. لغة الشعراء ناقصة إذاً. لغة تمزج الخلّ بالنبيذ، وتُفسد الحنجرة. لغة عصية مثل قازة سابعة. رسم حسب الشيخ جعفر خطا على الجمر، واختفى تحت الرماد. مثل قازته السابعة لا يزال محتشماً. شمسه من رحيق، وصخورها أوراق حندقوق. يا قارباً سومرياً، احملني إلى المعبد قبل أن تنقلب. يا قارباً ورقياً، حلّق بالأسماك. مياه الهور ساكنة، وغوديا يمحو ما كتبه. هدأت في اللوفر قازته السابعة تحت الدوش، فيما كان الشاعر نائماً. لنضحك قليلاً بعد أن بكينا كثيراً. ماذا عن النسوة اللواتي مشين حافيات، ولم يصلن طوبريج؟ كان المارثون قد بدأ. اركض، لتطوب قديساً. اركض، لتحصل على بيت في الجنة. امرأة فرعون والمجدلية والزهراء وزبيدة

هناك، وهناك طغراء أموية وناي عباسي ونعال أندلسي. اركض بالهال والزعفران والكافور وحبات البركة. اركض، لتعجن الريح لحينك بعرق أفخاذ الحوريات. اركض، لتسبق ادم إلى السدرة. الطائر الخشبي أبوك وأمك مومس عمياء. عصا الأعمى تلتفت إليك. اضحك، القيامة صارت وراءك. لا تسقط، فالميزان انكسر. والماعون صحا على الخبز اليابس. تساوت الأمم. نقشبند هي نقش وبند. زخرف بلاغي، ويد لا تصل إلى الضريح. زبد على زبد، وما من أحد يقاسم نوحاً سأمه. النثر يبكي، فيما الهدهد قد ابتلع القازة السابعة مثل حبة إسبرين، ونام في خان التجار.

أعطني يدك لأهش بها على غنمي. أعطني وسادتك، لأملأها بريش الطواويس.

مرّوا على السهل، وكانوا خفافاً. الرواة شعراء، خفافيش، مناذرة، نجّارون، وحذّاءون، وبستنجية، ونفطجية، ومهندسو مساحة، خطّاطون، وقد محوا بالأسود ما اخترعه السطر الأبيض من معجزات في الخَلْق. غوّاصون أشعلوا في البذرة نزق الحكمة، وهبوا الفراشة درع سلحفاة، كشوانية قلبوا الكشيدة، فصارت أشبه بمبولة دوشان. مَن قال إن الحداثة ليست لها صلوات؟ الحداثة دين، والدين ليس له صاحب. الصاحب وُلد في أصفهان بعينَي ثعلب أزرق. تغلب. جرس المدرسة الجعفرية يرنّ أم جرس كنيسة اللاتين؟ دمبلة. صرخ الإقطاعي الذي قبل جبهة بريمر. "هو الكذاب الأشر" قال الكاوبوي، وعبأ طائرته ذهباً، وحلّق. طار اللقلق. اللقلق طار. لقد عبدت الأمّهات طريق كربلاء بدموعهنّ، هناك مقابر جماعية، لا يكفي عمر واحد للكشف عنها. الفكاهة ممكنة حتى الرمق الأخير. حسين حسيننا، ونفطنا نفطهم. هي قسمة ضيزى. ألم تك تلك البلاد مسرحاً للسواد؟ منذ أور، منذ فوزي رشيد، منذ جبل حمرين، منذ تكليف، منذ كردمند. سنصعد الجبل. خذ السواد إذاً، واركض من طويريج، لكي تكون بريئاً من حملة بني أمية. لقد نجوت أخيراً. الباقيات ستعثر عليهنّ في الآخرة. لك الخرزة، وليس صواع الملك. لك الخيط الأخضر، وليس المزرعة. لك المعركة، وليس الجمل.

مذنب أنت مثل ميت. مذنبون همو، ولكنهم أحياء.

اجلس، لتكون غوديا. الكاتب يتأمل. الكاتب أعمى. يقع مثل حفصة في الماء المغلي. عباءته مفتوحة للريح، ولسان الثور في فمه يطحن الحصى. لقد مرّ الإسكندر، مرّ الفُرس، مرّ المغول، مرّ البويهيون، مرّ الخروف

الأبيض، مرّ العثمانيون، مرّ الإنكليز. فلمَ لا يمرّ الحوذيون الجدد؟ غوديا ليس بغودو. لكن غودو يريد أن يكون غودياً. ولو في متحف اللوفر. الحسد يأكل لساني، ومعدتي فارغة. ليس للعراق أب. أمّه عشتار، وهي التي تسلّلت إلى العالم السفلي، لتبكي. ولكن، مَن سرق صواع الملك حقاً؟ لدينا أطفال رضّع، وما من مُرضعات. لدينا قازة سابعة، وما من شعراء. لدينا مركب، وما من نوح. الشعر يخون اللغة.

"غدك وراءك" يقول نقّار الخشب. الطائر يبتسم. في الخامسة مساء، يبدأ عمله. مساء الأمس ومساء الغد هما مساء واحد. الساعة تعمل بأصابع متوتّرة غير أنها لا تندفع إلى الأمام. تمسك الساعة بعقاربها، لتدور في الفراغ الميت. وضع علي بابا الصخرة على فم الكهف، ونام في انتظار المعجزة: أن تنبعث المياه العذبة من جوف بئر مُتخيّل. يابس منقارك، أيها الطائر، فما من نشيد. جذع الشجرة نشفت براعم أغصانه، فما من مرج في الجملة الطارئة. "من يقولها؟" ستقول النحلة: "أنهار من عسل لا تكفي إذاً" ستقول البقرة: "أنهار من لبن لا تكفي إذاً" ستتساءل شجرة العنب بيأس: "وهل تكفي أنهار من خمر؟ تبدو الأمور كلها وكأنها صارت خارج السيطرة". نحن نرمي بحجر أيّاماً، لم يعشها أحد. نتسلّق شجرة لا تزال تقيم في قلب بذرتها المبتلّة بالأسى. نُقلح في القبض على غيمة، فيما البخار لا يزال يتصاعد من فم الإبريق. أيها الصاعدون، ألا تخبروننا ما الذي يقوله الرّبّ عن أحوالنا؟ أيها النازلون : كفّوا عن التلويح بأكفان الموتى، كما لو أن الحياة كلها صارت مشروعاً فرعونياً. في الغابة، نقّار خشب وحيد، وأنا، وزلاجة وردية، تركها طفل، عالق حبلها بصخرة، غطّاها الثلج.

أقلّ من الصفر. صفر الكتابة وصفر الحقيقة وصفر الشهوات. قالت لي الفتاة التي تتبع آثار أقدام كلبها اللاهث: "بعد الساعة الواحدة، ستهبط درجة الحرارة إلى مستويات لم نختبرها من قبل" ضحكتُ، وأنا أفكّر بالعصر الجليدي. كان هناك بشر إذاً. وكانت هناك حضارة من نوع ما. وكان هناك غذاء بلوري. أتخيّل شكل المائدة على السفوح الجرداء، لا مضمونها. أفكّر في ما ينقص منها، لا في ما يفيض: لا بحيرة زرقاء، لا ورق أخضر، ولا نقيق ضفادع، ولا غزلان ترتجل خطوات عشّاق مهجورين. النقصان يشبع نَهَم الغابة إلى ما يجعلها مخبأ سرّياً للأوهام الصيفية. عليك أن تتخيّل ضالّتك، وستجدها. شيّد مسجداً في اسطنبول، على البسفور تماماً. سيكون شبيهاً بـ (آيا صوفيا)، لكن، من ثلج أبيض، تسعد أهلّته بخيوط شمس ناعمة، تُبعثر مراياها على الأغصان الصامتة. ستجد مهراجا هندياً يتبعك ويناديك باسمك، ثمّ يسحبك من يدك، ليتجوّل بك في شوارع كلكتا

المغمورة بالناس. يتركك جالساً على الأرض، في مشهد لن تنساه، حيث تتسلّل إليك من بين الأقدام صور لعالم يقفز بخفّة من طفولته إلى شيخوخته، وبالعكس مثل كرة من يقطين. سترى بائع (كشري) في العباسية بالقاهرة يقول: "أوعه. البنت اللي قدامك خطّافة رجاله". فتضحك. تفكّر في الأقلّ، وقد صار أسلوب عيش لملايين الكائنات السعيدة بخفائها. "لا تقرب تلك الشجرة" قال لي الحطّاب ذات نهار صيفي، أضاف: "قد تُخيفك الأفعى المقيمة في جوفها، فيفزعها خوفك، ويردّها إلى صفاتها الأولى" الأفعى نائمة الآن، أيها الحطّاب، ولن تقلق خطواتي المنزلقة أحلامها.

لا ينبعث الوقت من مكان ما. للثواني أقدام لا مرئية. ليست للصخور مرايا متقابلات، ولا الأعشاب تحمل أجراساً. ما من ذكرى، وما أحد يتذكّر. ولكن، لمَ الذكرى، إذا كانت القيامة قد وقعت، وانفضّ الناس، وعرف القادمون من الغيب مصائرهم؟ جُنّ الجميع، وما عرفنا. يمرّ الذئب وديعاً مثل شاة. لن يقف في انتظار الفتاة ذات القبعة الحمراء. سوف تبقى جدتها نائمة. مرحى. لن يحكم بينك وبين تجلّيات الطبيعة أحد. فما من عقد لتوقّعه، وما من وثائق، لتعود إليها. الميزان ضائع، والصمت يُملي هدنته على الكائنات. ولكن ما يحدث هنا ليس صمتاً. ما من أحد كان قد تكلّم، ليصمت. كما لو أن ثقباً أبيض قد ابتلع الأصفار كلها. سأسلّم على نفسي. لديك ما تفعله هنا إذاً. للأفعال هنا معنى مختلف، كما للأقوال، حيث يدرك المرء أن هناك مَن يُنصت إليه، بل إن هناك مَن يتخيّل هيأته، ومَن ينتظر لقاءه. ليس للرياح هنا سوى مهمّة واحدة: أن تهب المخلوقات أصواتاً. هذا غصن وحيد نابت في الجليد، ينزلق عليه صفير كمنجة. تلك الأخشاب على الجسر الصغير تنئ تحت قَدَميك مثل جوقة نايات. هناك طبول خافتة ترقد في نهايات الأشجار. تغرس قَدَماً في سطح البحيرة، وترفع قَدَمك الأخرى في الهواء. لا شيء أكثر. في الأقلّ، تومض عيناك. صورة تذكارية لرجل عالق بحبل مشدود بين قمّتين. في اليوم التالي، سيكون للحكاية معنى الكرامة الإلهية.

لا تلتفت إلى غدك. أمسك اليوم. الدقائق لا تهرب، بل تختبئ مثل تلك الأفعى. لك رصيد عظيم من الزمن، يا صديقي. مُدّ يدك إلى الخزانة، تخرج مزدانة بالثواني التي ترقص من حولها الفراشات. يبدو جسدي مثل عمارة زجاجية. سيتداعى ويتهشّم في أيّة لحظة. لن أرمي أحداً بحجر. بيتي يسهر على رهافته أبيض، يملأ موقده حطباً من خشب معطّر. الغابة

بيضاء. شجر السرو وحده يملأ الفضاء بمصابيح، ينبعث ضوءها من مادة لا تفنى. أجراس العيد بعيدة. الأرجوحة تعلو تهبط. ذلك الطفل الذي غادرها لتوّه كبر مُسرعاً. يعذّبه أن يداً خفية مَحت يد أمّه من على الحبل، وصارت تموء ساخرة من ابنة الجيران التي وعدها الطفل بنزهة فضائية. كبر الطفل. كبرت ابنة الجيران. وسدّ الثلج أبواب الحديقة. "هير هير نسيت قبّعتك" كانت النادلة تلوّح بقبّعة خضراء، تشبه قبّعتي. تحسّستُ رأسي بيدي. لم تكن القبّعة في مكانها. أتذكّر أن محمّد سيف قال لي حين اشتريتُها من متجر في باريس: "ستكبر في أثناء الاستعمال"، وكبرت القبّعة مثلما كبرتُ أنا.

قبّعتي خضراء، والشجر أبيض.

الشجر يهبني ما تبقّى من النهار الفائض. أين اختفت ساعات الفجر والغروب؟ أخطّ على الثلج اسمي. بالعربية طبعاً. تلمع الشمس في الأثر المحفور. هناك ما يكفي من الضوء لرؤية الحقيقة. الحقيقة لا سراب لها، ولا مرآة، ولا ظلّ. "لن تصل إليها" ينبعث الصوت من شقّ بين صخرتَين. العشبة لا تزال خضراء، وهي التي تكلّمت. لم ألمسها خشية أن أخدش كبرياءها. أعرف أني لن أصل. أمشي، لكي لا أصل. حتى لو قلتُ للثلج: "ألف حيف وألف وسفة" فإن الثلج لن يأخذ ما أقوله مأخذاً جدّياً. الثلج هو أكثر المخلوقات عبثاً. يتصفّح كُتُبنا، ويرميها إلى النار كتاباً بعد آخر. لا يفكّر أحد أن أفكاره ستذهب مثل هندوسي نبيل إلى المحرقة. الثلج يتخيّل أيضاً. أنظر إلى قَدَمَي، تحتهما حياة لا تزال ممكنة. لأهذّب خطواتي إذاً من أجل حياة مُتخيَّلة. أتذكّر نقّار الخشب في الخامسة مساء. النغم يبدأ من هناك، لينتشر مثل حريق. يومها أدركتُ أن قائد الفرقة الموسيقية يوزّع بانتظام المهمّات على أعضاء فرقته من مكان خَفي في الغابة. "أكذب من أجل أن أصدّق" أخبرتُ صديقتي البلغارية. قالت: "يمكنني أن أصدّقك. لقد رأيتُ قندساً ذات مرّة توقّف عن العمل في بناء بيته فجأة، وصار يُطلق أصواتاً نقية، كما لو أنه كان يملأ بصوته فراغاً ما في الكون".

"أيّها السيّد. قبّعتك" أتلمّس رأسي. قبّعتي في مكانها. أتلفّتُ من حولي. ما من أثر للنادلة. صوتها وحده يقع فجأة، ليذكّرني أنني أنسى. يشقّ عليّ النسيان. يُشقيني. ولكن الثلج يُعلّم النسيان. هانا صوفيا، صديقتي كتبت كتاباً، كنتُ أحد أبطاله، سمّته "المَنسي" وقد استوحت ذلك العنوان من جملة، قلتُها لها في سياق حواراتنا التي استمرّت سنتَين. قلتُ لها: "أحلم

في أن أكون مَنسياً، لكي أنسى". على الثلج، لا ينسى المرء قَدَمَيه ويَدَيه وشَفَتَيه. أما فؤاده، فإنه سيظلّ ساهراً مثل وديعة، في إمكانها أن تُفزع الأفعى النائمة، لو أنها شعرت بالخطر. قلتُ لصديقتي الأسوجية: "سأقابل ربّي بشهود، هم أشبه بحرّاس المُدُن القديمة الليليين. الصافرة في الفم مثل حَكَم في مباريات لكرة القَدَم. قبل أن تُضرَب الكرة في اتّجاه الهدف، هناك نفخة هواء حذرة. "ستقع" تقول المرأة التي تتبع آثار أقدام كلبها اللاهث، فأفتح يدي، كما لو أنني أمشي على حبل مشدود بين قارّتين. "هذا الحلو ما أريده/ ودوني لهلي" أصرخ، لتنزلق رمّانتي مثل فقمة، وُلدت لتوّها. لم يكن الوقت مساء. لم يكن فجراً. كنتُ في الدقائق الفائضة أنسج حكاية رجل، خُيّل إليه أنه يتجوّل في غابة ثلجية، تقع بعد شارعَين من القيامة.

أراها تجمع الملاقط، وثبقي الثياب على الحبال. أنظر إليها من تلّ في القرية المجاورة. هناك حيث ترك الجنود أسلحتهم، واختفوا. كانت الحفلة صاخبة. أشباح، وما من خطوة. أقنعة، وما من وجوه. لم يخرج الفجر من مخبئه بيسر. مَدّ يده اليسرى أوّلاً، ليكتب على الماء جملاً غامضة. بولتانسكي كان هناك أيضاً. الطفل المتلفّت. يمدّ شبكه يداً خائفة إلى قميص أمه. أبيض. القميص من ورائه الفجر. القميص عالٍ، والعشبة اليابسة تجرح. تعود القَدَمان إلى الأرض بلا أجنحة. النسوة قد حلّقن. الرجال ينتظرون الصيحة في مقابض الأبواب. الأطفال اخترعوا بجعاً، وركبوا عليه. لن يجد البرابرة غير دمى حافية، وأسِرّة عارية، وقدوراً فارغة، ومصابيح مُطفأة، ووسائد من ريش. هنالك ريش أبيض كثير تساقط عند الفجر. ريش يتخيّل شكلاً طائراً. ريش تشير نهاياته إلى جهة المنفى. ثياب الغائبين وحدها ظلّت تُنبئ بالفراغ. جملة لم يقلها أحد بعينه، ظلّت تقفز بين الحصى. تعلو وتهبط. تعلو وتهبط، تعلو .. أمسك بها الطفل أخيراً. يا أمّي، لمَ تركتِ قميصكِ على الحبل؟

للثوب قَدَمان
له ابتسامة تملأ الكاس
له قبلة تخترع شفتَين
وله أغنية

عند مصبّ النهر الصغير انتظرتني أمّي. انتظرت سلّة، ملأها الله بالفاكهة. مزّت غيمة، وأمطرت فوق رأس تلك المرأة الجالسة في ظلّ شجرة. أزهرت الشجرة، وارتمت الأزهار في حضن أمّي. كنتُ ميتاً، يا أمّي، ولم يُنبئك أحد بموتي. كان البرابرة قد حملوا رأسي إلى ملكهم، فيما كنتِ تضعين ابتسامتي على فم الحجل. قال المعلّم: "مشهد الأمّهات المنتظرات وحده ما يؤجّل القيامة. تخجل الملائكة، فتكفّ عن تحريك أجنحتها".

استعار كريستيان بولتانسكي (وُلد في باريس ١٩٤٤) قرية. أرضاً ما من أرض بعدها. متاهة بيضاء، لكي لا يسأله أحد عن اسمها. عن هويّتها. هي

كل مكان، وهي اللامكان معاً. مَن يمرّ بها يجتازها مثل نهر وَهمي. لا تراه. فهي لم تعد مَعنية بأحد. صفحة من اليابسة يمكن طَيّها، لكي يحملها المرء معه إلى أيّ مكان يشاء. وهذا ما فعله بولتانسكي نفسه مرّات عديدة. "تجهيز" سيقول لي أحدهم. أعتقد أن الذاكرة شيء أكثر تعقيداً من أن يتمّ تجهيزه في كل لحظة. هناك فراغ روحي، هو أوّل ما نواجهه، ونحن نرى إلى الثياب معلّقة على حبال الغسيل، من غير أن نأمل في رؤية أصحابها المغادرين. ومع ذلك، فنحن نفكّر بالغائبين، ونخذل الصورة. يكون العمل الفنّي في هذه الحالة أشبه بالباب الذي ننساه حين ندخل إلى الحديقة. ولأن الحديقة غير موجودة، فقد كان علينا أن نخترعها. ولأن اختراع بشر هو فعل أكبر من قدراتنا، صار علينا أن نتخيّل أشباحهم، وهي تملأ المكان. كل مكان، ولا مكان. أشباح لا نرى منها إلا ظهورها. من الحمق فعلاً أن نسعى إلى اللحاق بها. لا لأنها قفزت إلى هاوية سحيقة من العدم، حسب، بل لأنها أيضاً تعيش زمنها الشخصيّ. وهو زمن يقع خارج التاريخ. لا طُرُق تصل بيننا وبين تلك الأشباح. لم تعد تلك الكائنات مضطرّة للعيش، لتفسير سُبُل ذلك العيش، لتأهيله وتأثيثه بالمكائد، وترويض وعورته. لم تترك أثراً يشير إلى تعاستها المحتمَلة. الثياب نظيفة، بيضاء تنزلق عليها الشمس، وتمرح بين جوانبها الريح. مَن جهز إذاً؟ مَن؟ الخوف الذي وهب تلك الكائنات أجنحة؟ أم البشر الذين نشروا ثيابهم النظيفة على حبال الغسيل؟ أم البرابرة القادمون في لحظة تيه مصيرية؟ أم بولتانسكي المتلفّت مثل طفل ضائع، شمّ رائحة حليب أمّه بين عشبتَين؟ ما يثير في هذا العمل أنه يجهّز الموت، من غير جنائز. لا قبور ولا دموع ولا ربطات عنق سوداء ولا يافطات. الملابس بيضاء كلها. رائحتها تُذكّر بمساحيق الغسيل والمنعّمات المحلّقة. من شأن المرء المتفائل أن يقرّر البقاء في انتظار عودة الغائبين. في الحظائر ثغاء، يُلهم الغزل، والمحراث لا يزال يشقّ طريقه وسط خوار بقرة عاشقة. لن يهبط الليل فجأة.

أختار ثوباً، يلائم حجم جسمي. أقف إلى جانبه، لأبصر من خلاله ديكاً. يشفّ ذلك الثوب عن صديق المؤذّن، رسول الفراشة ونبوءة النهار. منذ متى لم أسمع صيحة ديك، يا أمّي؟ منذ عينيك، منذ الكتاب الذي تركتُه مفتوحاً، ولم أعد إليه، منذ الفتيات اللواتي تجرح حوافُ تنوراتهنّ جفني. أنا حزين ووحيد ومتألم. تتردّد يداي، وهما تمتدّان سوية إلى الثوب. الأبيض نداؤك للفطور الصباحي. الأبيض خطوتك الضائعة بين دروب الغابة. تخترق يداي الثوب إلى الجهة الأخرى. لا شيء يُمَسّ، لا شيء يُرَى. أنا في الفراغ الكوني إذن، في براءة اللغة من معاني كلماتها، في الميزان،

حيث لا يسخر ثور من نملة أبداً. يبدو الشقاء أشدّ صفاء حين يتخلّى عن بذاءاته البشرية. سيرتفع الألم مثل نبيّ، في طريقه إلى الله. أعلى، فأعلى، فأعلى. تحت سدوم. انسها. تحت الصليب. انسه. تحت المتأمرون من أجل نسخ خارطة لبلاد، لن تكون موجودة إلا في الكُتُب المدرسية. انسهم. سيكون عليك أن تتركهم يلهون بالقنبلة التي لم تنفجر بعد. تلك بلاد تركت ثيابها على حبل الغسيل، واختفت. تلك المرأة التي تتوارى، وهي أمّي، تحمل في حقيبتها سرّ الطبخة الأخيرة. ذلك المحراث يتبع أثر نغم يهبط بوَلَه شاعريّ من السماء. "أنت مهاجر إذن" قلتُ لإبراهيم، وكان أوّاهاً حليماً. تذكّرتُ أن شعبه كان قد اختفى كله. السومريون اخترعوا أرض السواد. دمية دمية، طائراً طائراً، زقورة زقورة، أسطوانة أسطوانة. ولأنهم شعب لا يجيد الوصف، فلم تكن أرض السواد تلك إلا مزيجاً من شقّ، يقود إلى العالم السفلي، وطوق نجاة يُلقى في لحظة النبأ الأعظم. فكرتان متناقضان، تكمل إحداهما الأخرى. بلاد تهبط إلى العدم، لتنظّف عينيها من الليل. مَن قال إن السومريين لم يتركوا ثيابهم بيضاء على حبال الغسيل؟ جاهزة للشمس. أرى الفراشة، وهي تضرب بجناحيها صخرة مبتلّة. المطر هناك مرّة أخرى.

أنا شبيهك
أنا دمعتك
والنبع الذي تنبعث منه الأغنية

منذ صيحة الديك الأخيرة، وأنا أشقّ المرآة، لأصل إلى ثياب الغائبين. انتظريني، يا أمّي، سأخرج من فم الحوت، بيدي قبضة زعفران. لن يرافقني الموتى. فما من موت حيث أقيم. لقد انتصرنا على الموت أخيراً. مثلما تحبّين. هي ذي بلادنا أخيراً بيضاء. تشفّ، فتكاد لا تُرى.

رأيتُ مسافراً. رأيتُ مسافرين. نساء ورجالاً، فتياناً وفتيات، طَلَبَة مدارس وعمّالاً. المحطّة لا تفرغ. لا تكفّ المحطّة عن إفراغ محتوياتها البشرية. ماكنة لإنتاج النظرات المتلفّتة والحائرة والباحثة عن شيء ما، والأكف التي تُومئ وتتحرّك بانفعال، والظهور التي تنوء بثقل الحقائب والأقدام القلقة التي لا تستقرّ على متر بعينه من الأرض. المشهد يتحرّك ويتغيّر باستمرار. ما من صورة ثابتة. وحده يصعد المسافر إلى القطار، وهو ينظر إلى حذاءيه. لا غبار ليحمله إلى ذلك اللامكان الذي ينتقل إليه، لينقله بين أمكنة، لن تُشكّل بالنسبة إليه إلا خلفيات لمشاعره المضطربة. يختار مقعده عبر نظرة شاردة، ويتجه إليه. يقف بجواره، ثمّ يُلقي حقيبته على المقعد المجاور، إن كان ذلك المقعد شاغراً، أو يرفع حقيبته، ليضعها على الرفّ المخصّص للحقائب. يفضّل المسافر أن يجلس قرب النافذة، إن وجد مكاناً شاغراً هناك، وإن لم يجد، فإنه يظلّ ينظر بحسرة إلى أقرب النوافذ إليه. لم تعد النوافذ تُفتح في القطارات الحديثة. نوافذ واسعة، يشعر المرء من خلالها أنه يجلس على جناح، يحلّق به فوق الطبيعة. هناك أمامه (تحته) الأشجار، البيوت الريفية، السواقي، الجسور الخشبية، الأبقار، حقول الشعير، البلدات الصغيرة المبهمة، الطاحونات، وشوارع صغيرة مبتلّة، كلها تظهر وتختفي بسرعة ٢٠٠ كيلومتر في الساعة. تحلّ صور محلّ صور سبقتها، فيما يأمل المسافر أن يرى صوراً، تُناسب خياله الذي صارت علبة تتكسّر. حين يكون المرء مسافراً يتّخذ هيأة أسطورية. بسببها يكون في أثناء الوقت الذي يستغرقه سفره نوعاً من يوليسيس، جلجامش، الإسكندر المقدوني، المشّاء الهائم، والفاتح المشدود إلى بقعة ضوء غامضة. كما لو أنه وحده مَن يسافر يرى باستغراب إلى من حوله، ما الذي تفعله هنا كائنات ضائعة، بوصلتها صامتة، وعيونها ساكنة؟ عزلته من زجاج شفّاف، يرى من خلالها إلى تلك الكائنات، وهي تصعد إلى القطار، وتهبط منه في محطّات الطريق، باعتبارها لقى طريق مؤقّتة. غرباء، حقائبهم مَحشوّة بقصاصات ورق، ونشارة خشب، وقطع قماش ملوّنة. ألا يمكن أن يكون الغريب إلا هامشياً؟ تنبعث الأصوات من مكان خفيّ. أصوات الغرباء تلتصق بباطن الحلق، وتُحظم أرقاماً قياسية في قدرتها

على أن تختزل. يقول لك جارك كلمة واحدة، بعدها، إما يضحك، أو يتجهّم. لا أخبار لدى المسافرين. الخبر الوحيد المشترك بينهم أنهم ينتقلون من مكان إلى مكان اخر. القطار فضاء، تنعدم فيه الجاذبية. وقت مقتطع من الزمن، غير أنه لا ينتمي إلى التاريخ. لا أحد إلا في ما ندر يودّ أن يُنظَر إليه باعتباره مسافراً. السفر ليس مهنة. ماذا عن سائقي القطارات، قباطنة السفن والطائرات، البحّارة والمضيفات ومفتشي التذاكر؟ مسافرون أبديون. لا تقع أقدامهم على الأرض حتى تلسعهم الرغبة في التحليق. هامشيون لا يصنعون أخباراً إلا إذا تبدّل مزاج الغَدَر. حينها يكونون صنّاع مصائر. كأن يصطدم قطار بقطار آخر، تقع طائرة، أو تخفق في الهبوط، تذهب سفينة إلى التيه، وتتحطّم. يأتي ذِكْر طاقم الطائرة المنكوبة عادة في آخر الخبر. المسافرون أوّلاً، كما لو أن ذلك الطاقم لم يكن مسافراً.

أندي دينزلير (رسّام سويسري وُلد عام ١٩٦٥) يسافر بين الصور بسرعة القطار العادي (٢٠٠ كيلو متر في الساعة) أو أكثر قليلاً. يهرب من الرسم، كما نعرفه، الرسم الذي يُلقّن مخلوقاته درساً واقعياً، في كل لحظة وَلَهٍ جمالي. هناك واقع مختلف يراه ويعيشه المسافر بحواسه كلها. الصورة في ذلك الواقع لا تُرَى من أجل أن تظلّ موجودة، باعتبارها أيقونة ثابتة. تلك الصورة، يساهم النظر إليها في إرباكها واهتزازها والشك في كونها موجودة. العين التي ترى هي التي تُملي الواقع. سيقول المسافر: "هذا ما رأيته"، ولن يكون ذلك واقعياً من وجهة نظر إنسان يضع قَدَميه على الأرض. من وراء زجاج نوافذ القطار، هناك حواس مهذّبة، تنفصل حساسيتها عن المنفعة، غير أنها تُتقن المكر أيضاً. حساسية يغلب عليها الشعر قادرة على التخلّي عن مسؤولية ما تؤكّد حدوثه. ولكن، هل هناك ما هو مؤكّد؟ كثيراً ما يثني المرء على أوهامه. يرى دينزلير إلى وقائعه بطريقة مخاتلة: "كما لو أن تلك الوقائع لم تقع بعد، أو أنها في طريقها إلى الوقوع، أو أنها وقعت، لكن، ليس بالطريقة التي يمكن الاتّفاق على وصفها. الصورة هنا لا تُثبت شيئاً، ولا تنفيه" كما المسافر، يستند الرسّام إلى خَلَل ضروري في الحواس، يبني من خلاله موادّ صورته، وهي موادّ مستعارة من عالم يزول في كل لحظة. فم الماضي مفتوح بشهية، لكي يلتهم كل ما يمرّ بنا. صناديق الذاكرة مفتوحة. "الأمس كان غداً" يَعِدُ الرسّام نفسه بغدٍ مختلف، غير أن رسومه تخدعه. تخدع الرسم أيضاً، وهو ما يرغب فيه. "هي ذي رسوم، لا تقول الحقيقة مثلما نودّ أن تكون. فهي تخلص إلى خبرة شخصية. خبرة أن يكون المرء مسافراً" هنالك شيء ضروري في الرسم: أن يُقنعنا بقوّة جمال، لم نره في ما نرى من حولنا. جمال يفاجئنا،

لا لأننا كنا متخلّفين عنه، حسب، بل لأنه أيضاً يكشف عن حالة العمى التي غالباً ما نُصاب بها. هذا ما يفعله الفنّ الجاهز. يُعيدنا الفنّ الجديد إلى حياتنا، لتكتشف فيها مواقع جمال، كانت متاحة بين أيدينا. لا يزال في إمكان الفنّ أن يُعلّم. دينزلير لا يراهن على خبرة رسم يعرفه. تقنياته تنحاز إلى عاطفة المسافر، لا إلى بداهة الرسام. ما يقع فعلاً إنما يصدر عن حواسّ مضطربة. العين التي ترى هي مصدر سوء الفَهم. ولكنه سوء فَهم ينال بضرره الشكل والموضوع معاً. من أجل الالتحاق بركب الفنون الجديدة لن يتأخّر الرسّامون عن الاعتراف بعجز الرسم. صورة المسافر التائه عن حواسّه المؤكّدة هي مرآة، تنعكس عليها صورة الرسّام الذي اكتشف في لحظة تيه وهن لغته. يستسلم دينزلير لنوع غير تقليدي من العمى، ليُبعد عنه الشبهات. يرى بعين المسافر ما لا يمكن أن يراه الرسّام واقفاً وراء حامل لوحته. الفد الذي صار أمساً هو بالنسبة لدينزلير موعظة.

أين تقع مدينة أين؟ وصل إليها سركون بولص من قبل، وكان مسافراً أبدياً. وُلد في كركوك، ليموت في برلين، وما بين المدينتين هناك مُدُن كثيرة، هي ذاتها (شبيهاتها) التي تمرّ بها القطارات كل لحظة، عاش فيها، وتنقّل في ما بينها قلقاً. يقف القطار، فأقول لنفسي: "هي ذي مدينة أين" غير أن حواسّي المباشرة تكذّب ظنّي. أعود إلى كرّاستي. أكتب: "رأيتُ مسافراً" لن يكون ذلك المسافر أنا. أعد ذلك المسافر بمدينة لأين مرّة أخرى. يتحرّك القطار. تتحرّك المشاهد خارج القطار، في الطبيعة، حول أفكارنا، بين أسنان عاطفتنا. ما من شيء يقع، والحقيقة لا تستقرّ في موضع معيّن. سيكون عليّ أن أنام، وهذا ما لا أقدر عليه، في كل مرّة أسافر فيها. سركون كان ينام في أثناء سفره، ليحلم. تلك معجزته التي أنجز من خلالها وصوله إلى مدينة أين. "لن أصل" أرى إلى عدد من المسافرين، وقد غادروا القطار، فأقول: "هي كذبة أخرى. لم يصل أحد" سركون الآن ميت. قصائده لا تقول الشيء الكثير عن المسالك التي يجب أن نتبعها، لنصل. فجأة يصل المرء، ليكون مواطناً. رأيتُ مسافراً، وتأمّلته. جلس قرب النافذة بعد أن وضع حقيبته على الرفّ، ونام. ما أسعده! "سيصل حتماً" قلتُ. ولكن، إلى أين؟ أغمض عيني على عينيه، أبعد كأسه عن فمي. لن تقول الشيء نفسه لو استيقظنا. نحن مختلفان. أما الرسم، فإنه سيعدنا بنهارات مختلفة. المسافر يفكّر بالرسم، لكي يمحو الصور. حين تنعدم الجاذبية لا يبقى أي أثر للصور. النغم الذي يصدر عن البيانو يسبقه، ويبقى بعده. ما من شيء ثقيل. يستعدّ المسافر للمغادرة. نمتُ ذات مرّة قبل أن تحلّق الطائرة، وحلمتُ أن الطائرة قد حلّقت، ورأيتُ في

حلمي الغيوم تحتي، وحين استيقظتُ رأيتُ المضيفة وهي تسألني عن نوع الشراب الذي أحبّ تناوله، نظرتُ من النافذة، فرأيتُ الغيوم. كان المسافر يرى وهو يحلم.

كنتُ أجلس في مقهى (الحياة حلوة) الذي يقع على ضفّة قناة (سنغل)، وهي القناة الأقرب إلى مركز مدينة أمستردام (دام). لم أكن متعباً، ولا أشعر بالعطش، لكن، أعجبتني فكرة أن يجلس المرء في مقهى، يحمل اسم (الحياة حلوة). يمكنها، أقصد الحياة، أن تكون حلوة، وأنت تجلس في الجزء الخارجي من ذلك المقهى، في انتظار أن تُقبل عاملة المقهى. ستسألك عمّا تودّ أن تشربه. "إكسبرسو كبير" ستقول، وتعود بعدها إلى النظر متأمّلاً الأجزاء السفلية من المارّة. معنى الوقت يكمن هناك. كان النهار مشمساً. حقيبة نسائية كبيرة خضراء تسدّ المشهد. أخضرها، لا تُرى درجته الشفافة في الطبيعة إلا نادراً. فيها الكثير المتشظّي من الأصفر، القليل المنضبط من الأزرق. كان نديم كوفي في وقت سابق قد حدّثني بانبهار عن تقنية دافنشي وهو يرسم وجه ويدَي الموناليزا. قال "لقد وضع رسّام عصر النهضة الأخضر أوّلاً، ثمّ وضع بعد ذلك لون البشرة. اللون الأخير وحده لا يُنتج إلا شمعاً. الأخضر كان أساسياً في اختراع لون اللحم الحيّ الذي لم يكن تمثيلياً. السرّ الذي لم يكتشفه أحد من الرسّامين إلا مؤخّراً" كان هناك أخضر دافنشي إذن، وهو الأخضر الذي لم نعرفه من قبل، في الوقت الذي كان الكثيرون ينظرون بصخب إلى أزرق إيف كلاين. غير أن أخضر دافنشي كان خفياً. بلاغته صنعت لوناً للبشرة، لم يتمكّن مخترعو الأصباغ الصناعية من الوصول إلى معادلاتها الكيماوية.

اقتربت المرأة التي تحمل حقيبة خضراء من منضدتي. ستمتران على الأكثر كانت تفصل بين يدي النائمة باستسلام على المنضدة وبين فخذها العاري، بالنسبة لها، أقصد تلك المرأة التي صارت حقيبتها الخضراء تسدّ أمام عينيّ مشهد القوارب والبيوت والعابرين، لم يكن سؤال الحياة مُستلهَماً من اسم المقهى، الذي لم تقرّر بعد أن تجلس فيه، فهي قد تجهل اسمه. كانت الحياة حلوة بالنسبة لها، بسبب الشورت القصير الذي كانت ترتديه. بسبب ذلك الشورت، كان الجزء الأكبر من جسدها خراً. دَرَسَ من شأنه أن يعطّل عمل ماكنة التفكير بالجسد، باعتباره واقعة حسّية. استدارت المرأة، وهي تمدّ يدها بانفعال داخل حقيبتها الخضراء، لتُخرج

هاتفا نقّالاً، كان يرنّ. جرسه ذكّرني بسوني أركسون، فيما أطلقت مؤخّرتها العنان لخيالي للتفكير في التماثيل الإغريقية. كان المشهد الذي رسمه ابن دلفت (فيرمير) يظهر متقطّعاً من خلال تفاصيل جسدها. من بين ساقَيها المفتوحتَين، وحول ذراعَيها وخصرها ورقبتها، من خلال خصلات شعرها. بيوت التجّار الهولنديين، رجال البحار البعيدة، أبواب وشبابيك وسلالم وقوارب ومياه، لا تكفّ عن الهذيان. زخارف الزمن القوطي، باروك وروكوكو، وستائر من دمشق، وسجّاد من فارس، وحرير من الصين. حياة مترفة، وإن كانت ضيّقة بسبب ضيق المكان. كانوا يسطون على أمتار من البحر في مغامرة العيش المزدوج بين مملكتي المياه واليابسة، لتكون الحياة حلوة.

كانت الحياة تمرّ بين فخذَين ورديّين. فيما صاحبة الحقيبة الخضراء كانت تبتعد عن منضدتي، وهي لا تزال تتحدّث من خلال تلفونها النقّال. كانت تصغر، وهي تبتعد، فيما تظهر مشاهد فيرمير أكثر وضوحاً. فقدتُ اهتمامي بها حين اكتشفتُ أن عاملة المقهى كانت تقف إلى جوار منضدتي. لم أكن قد سمعتُها تسألني عمّا أرغب في شربه، غير أنني افترضتُ أنها فعلت ذلك، فقلتُ لها مباشرة "إكسبرسو كبير" ابتسمت الفتاة بحياء، وقالت "لقد سألتُك هل أنتَ مرتاح في مكانك؟ هل تحتاج إلى مظلّة تقيك حرارة الشمس؟"

مرّت الحياة اذاً سريعاً. في أثنائها لم تكن حواسّي تعمل. اعتذرتُ من الفتاة. لم أسمعكِ. لم أركِ. لم أشمّ رائحتكِ. كنتُ هناك في العالم الذي اقترحتُه على نفسي. ما بين صاحبة الحقيبة الخضراء وفيرمير مرت جوقات سنونو. رفعتُ يدي مستسلماً، وأنا في حالة اعتذار. حين ابتعدت الفتاة، كان فيرمير واضحاً كله. بيوت القرن السادس عشر على حافة القناة، مثلما تركتْها يداه. لقد اختفت الحقيبة الخضراء. لم يكن لديّ أيّ شعور بالأسى أو الفقدان. كانت الحياة لا تزال حلوة. أنا في أمستردام. في نهار، شمسُه رائعة. المارّة يتركون ظلالهم، ويمشون. لا يزال الوقت مبكراً للتفكير في النوم. هناك متّسع للتسكّع المتفائل. يكفي أنني أجلس بهدوء ودعة في انتظار قهوتي، لكي يكون العالم من حولي جميلاً. فجأة وقف أمامي رجل، يبدو محترماً. معلّما متقاعداً، ربّ أسرة، تخرّج أبناؤها في أرقى الجامعات. رجل ببدلة رمادية قديمة، غير أنها نظيفة، ولم تكن رثّة. لم يتأخّر في وقفته الصارمة. أخرج من جيبه ناياً، وصار ينفخ فيه. كان ينفخ الهواء متقطّعاً بصعوبة. لم يخرج أيّ نغم. ما من هفيف، ولا حتى

طنين. كان الرجل في أرقى حالات اندماجه، وهو يُرسل حشراته، لتقرص الهواء. أعجبني فكرته. راقبتُ جمله الهوائية. صنعت تلك الجمل من حولي مساحة مخزمة، هي أشبه بلعبة الكلمات المتقاطعة. أصعد عمودياً، فيخذلني الرجل حين يمتدّ أفقياً، وبالعكس. دانتيلا من الهواء. لم يكن الرجل ينظر إليّ، ولا إلى أيّ شخص آخر من الجالسين خلفي. كان كمن يرعى خرافاً خيالية، عيناه تنظران إلى السماء، وفمه في الناي"صيّاد عواصف" قلتُ لنفسي وأنا أحاول أن أصف أو أختصر المشهد الذي صرتُ مَعنياً به وحدي، من غير أن يترك أثراً على أحد سواي. أشرتُ إلى الرجل بيدي، رغبة في استضافته، فتوقّف عن النفخ . عاد فيرمير إلى واجهات القرن السادي عشر. اقترب الرجل منّي، كما لو كان يرغب في مصافحتي، غير أنه لم يصافحني. كانت يده اليمنى لا تزال ممسكة بالناي، الذي لم يكن سوى قصبة صغيرة. قلتُ له "اجلس، من فضلك. الحياة حلوة" ابتسم بصرامة. وسحب كرسياً، وجلس. أخبرني أن الموسيقى فنّ صعب، فَهْم الموسيقى هو الأصعب. وأنه لم يكن يوماً ما موسيقياً، غير أنه يفهم الموسيقى، وأنه قرّر أن يُعلّم الناس فَهْم الموسيقى، من خلال الإحساس بها نفسياً. أخبرني أن الكثيرين يسيئون فَهْم مهمّته، ومع ذلك، فإنه مُصرّ عليها. "تخيّل صورة العالم، لو لم يظهر باخ!" قال لي، وصمت متجهّماً. جانبياً نظرتُ إليه. كان حزيناً.

حين جلبت الفتاةُ فنجان قهوتي، طلبتُ منها أن تجلب للرجل ما يرغب في شربه. قال لها مفخّماً الحروف "إكسبرسو صغير" بعدها التفت إليّ، وقال "الموسيقى تحتاج إلى وضوح في الحواس" وصمت ثانية. لم أكفّ عن النظر إليه. غير أنه كان مُصرّاً على أن يكون عبارة عن دراسة جانبية لرجل يجلس في مقهى. كان وحيداً، بالرغم من أنني دعوتُه للجلوس إلى جانبي. ما إن شرب الرجل قهوته حتى نهض وانحنى لي باحترام ملقياً عليّ تحية الوداع بعد أن شكرني. "كنتَ نبيلاً" قال ومضى في طريقه. صرتُ أنظر إلى ظهره، وأنا أفكّر بنوع الحياة الحلوة التي تنتظره كل مساء. بعد جولة عبثية بين مقاهي وحانات وأزقة العاصمة، يعود هذا الرجل وحيداً إلى غرفته، من غير أية فكرة عن حياة مُحتفلَة، تقع خارج الموسيقى. مثلما خرج يعود. نايه يُخفق في كل مرّة يحاول فيها أن يقول شيئاً مختلفاً. الحكاية تتكرّر كل يوم، لكن الرجل لا يتكرّر. نحن لا نتكرّر. فقد لا تكون الحياة حلوة، لو أنني عدتُ إلى امستردام في المستقبل، وجلست في مقهى (الحياة حلوة)، وربّما قد تكون الحياة يومها أحلى. مَن يدري؟ حين تركتُ المقهى كنتُ متأكّداً من أنني سأهتدي إليه بيُسر، غير

أنني بعد شارعين، صرتُ أفكّر بقلق بجغرافيا المدينة.

كنتُ أتأمّل صوراً لورقيات من زاووكي (رسّام صيني ١٩٢١) حين سمعتُ ضربات خفيفة على باب البيت. ضربات خفيفة مثل همس ناعم حتى خُيّل إليّ أن هناك قطة ضائعة صارت تحك جسدها بالخشب. حين فتحتُ الباب، رأيتُ رجلاً صينياً. صار يحدّثني بالصينية، فصرتُ أضحك. لم يغضب الرجل، بل أوضح لي بالإنجليزية أنه كان يسأل عن صديقه. "وماذا قلتَ؟" سألتُه. قال "اسم صديقي" قلتُ له مستغرباً " كل هذه الجملة الطويلة هي اسم صديقك؟" لم يجب على سؤالي، بل اكتفى بأن انحنى بتهذيب، وهو يقول "آسف. أزعجتُك. يبدو أنني قد أخطأتُ البناية" وذهب.

حين عدتُ إلى زاووكي، صرتُ أنظر إلى رسومه بطريقة مختلفة. تغيّرت.

زاووكي نفسه لا يقول إلا جملاً طويلة، لكن، بنغم تقفز درجاته من لوحة إلى أخرى. صيني يقلّد الطبيعة. يفعل بروية ما تفعل. لا يتلصّص عليها، ولا يستولي على جزء منها، ولا يمارس عليها سطوته. إنه يتعلّم منها. تلميذها وهي أمّه حين الولادة. مُرضعته ومُربّيته في السنوات الأولى لنشأته، ومعلّمته حين تتسع هوامش حواسه، ويكبر العالم. كنتُ أظنّ في الماضي أن الرسّام الصيني يكتفي بالخلاصات، كأن يدعوك إلى أن تشمّ العطر، لتتخيّل شكل الزهرة. الأمريكي سي تومبلي رسم الزهرة، ليوهمنا بعطرها. الصينيون يرسمون الزهرة، باعتبارها الجزء المرئي الممكن من خيال الطبيعة. لكنهم لايزعمون أن العطر صار ممكناً، لأن الزهرة صارت جاهزة للنظر. لا تزال المسافة طويلة. يمكنك أن تتعلّم بهدوء، أن ترى مثلما أن تشمّ، مثلما أن تتذوّق، مثلما أن تُنصت.

الجملة طويلة إذن. بين حروفها يتنقّل الألم.

حبريات زاووكي ذكّرتني بتبقيعية الشاعر الفرنسي هنري ميشو (١٨٩٩ ـ ١٩٨٤). من حيث المبدأ، فإن ميشو قد تعلّم كيف يكون صينياً. غير أنه كان ضجراً. يومها كانت الصين غارقة بالمخدّرات. كان ميشو يرسم، ليجد

مركباً. يأوي إلى شمس ضالعة بين مناديل الوداع. يتمهّل لينام في الليلة التي لم تحل بعد. الغد عن النافذة. كنتُ ذات مزة أمشي في الغابة، فأوقفني حطّاب، وسألني "لمَ هذا المطر كله؟" كانت فأسه نائمة قرب جذع الشجرة، وعيناه تلمعان، وسؤاله لم يكن مفهوماً. ليكن. قلتُ لنفسي لابد من وَهم. لابد من سبب للذهاب بالاستفهام إلى حافاته. قلتُ الطبيعة تتماهى مع ما ترثه من بداهات، غير أنها لا تستسلم بيُسر للخديعة. ليكن ذلك السؤال مركّباً. لمَ هذا المطر كله؟ الآن بالذات. ولكن، ما معنى الآن؟ في التاريخ لاشيء يمكنه أن يكون حاضراً. ولكن، هل هناك طبيعة مطلقة؟

للحبر تقنيته. نوع من الماء المنخفض بالعاطفة.

علينا أن نسبقه بالخيال. وإلا فإن الإخفاق سيكون في انتظارنا. بقعة الحبر لا يمكن التحكّم بها. سلطتها لا تُرى. الماء نفسه يتسرّب بين عروق الصفحات، تحت البشرة، في القبلة بين شفتَين، في المخدّة، بين فكرة وأخرى. الحجر الذي وُلد صامتاً، يمكنه أن يتغذّى على الماء أيضاً. يمكنه أن يتكلّم. في الرسم، كما في الحياة، هناك مَن يرث دائماً. ولكن، مَن يرث مَن؟ يمكنك أن ترث ماء، ولن تكون صينياً. يمكنك أن ترث صينياً، حينها ستكون ماء. الحطّاب الذي سألني عن المطر كان يعرف أن المطر لن يكون إرثاً. زاووكي يفكّر بطريقة مختلفة تماماً. بالنسبة له، فإن المطر ليس احتمالاً تصويرياً. ما من لقطة، ليُحتفَى بها، وما من مشهد، ليُرى. الرسوم تُمطر. كان الحطّاب يتساءل عن مطر بعينه. ذلك المطر الذي يُشعره بالضجر. كان يجلس مستسلماً على حجر صامت، من غير أن يفكّر برسوم صينية، يُمكنها أن تضعه في سياق جملة طويلة، لا تنتهي، ينسى من خلالها ضجره. لم أخبره بأن الضجر يمكنه أن يكون ممتعاً أحياناً. أخبرني أن المطر يعبث بالزمن. "مضى على لقائنا ساعتان، هما دقيقتان من عمر المطر" أللمطر عمر؟! صرتُ أسأل نفسي. في المائيات والحبريات يعيش المطر طويلاً. يمدّ نهاره على مناضد المقاهي، ليلتقي ليله، باعتباره حارساً وفياً.

كان زاووكي واحداً من أسباب شغفي بالرسم. كنتُ أظنّه شخصاً قابلاً للاختفاء في أيّة لحظة. مثلما الرسم باعتباره وَهماً. سنجد البئر بعد مترَين. يقول البدوي، وهو يقصد بعد نهارَين طويلَين مثل عصا. لقد تأخّرنا. ستكون الطبيعة سواها. يترك الحطّاب مكانه على الحجر. حين يختفي، يكون الحجر قد ابتلّ، وانمحت هيأة الحطّاب. لم يبقَ إلا شبحه. يلذّ لي أن أدرس شكل الورقة في الشجرة. ورقة كبيرة، كما لو أنها خُلقت،

لكي تُدرَس. أندسّ في خضرتها، وأنسلّ إلى عروقها، وهناك أصبح خفيفاً، أملساً وناعماً. أمتزج بخضرتها المركّبة، مبتهجاً بجلوسي المشمس عند ينابيعها. يكون هذياني حينها بمثابة جملة طويلة، يُمكنها أن تكون ملخّصاً لخرافة قديمة. إن سقطت في الخريف، الورقة تُلهم حياة مؤهّلة للانبعاث في كل لحظة. إنها هي. حياتي التي تركتُها تحت المطر. لن يسمعني زاووكي وهو يمسّد بفرشاته الحبر بحنان على سطح الورقة. هناك كائنات مرحة تغادر النوم لتوّها. تخرج من الحديقة إلى العمل. يتثاءب الحجر. كم كنتَ شقياً، لتصل إلى المدخنة. هذه صورتك، وقد أحاطت بها الغيوم. ستبتلّ، يا صديقي. ستعلو مثل فقاعة. تمرّ من بين الأغصان. ضحكتك تبرق، وأسنانك آهلة ببقايا الرائحة. بين قوسَين، ستضع المطر. والخريف هو الآخر بنفسجيّ وبرتقاليّ، كما تراه، وكما يُعيدك إلى نفسك. تحبّ الرسم، لأنه يصفك، بل قل إنه يُنصفك.

سأعود دائماً إلى حبريات زاووكي، لأغرق في البحيرة.

كان الوقت يمرّ. حلزونه يسعى بين وسادتَين، فيما الدرب تُهذّب خطوات العابرين. ترك الحطّاب على الحجر أثراً منه، سيمحوه المطر. ولكن ذلك الأثر سيذهب مباشرة إلى الرسم. ما من شيء يذهب هدراً. أجدكِ في الفراشة، أيّتها اليرقة. أجدكِ في العسل، أيّتها النحلة. أجدكَ في الحجر، أيّها الطريق. الرسم يفتح الأبواب بين الحدائق السرّيّة. ننزلق غامضَين مثل الملائكة، كما لو أننا خُلقنا ضيوفاً عابرين. نصمت من أجل الكلام، ونتكلّم من أجل الصمت. كنّا نرتجل أناقتنا الفائضة، من أجل أن لا تشعر الغزالة بالغربة. جسد على جسد، ويدان نافرتان، وصوت يُطبق على الشفتَين. "كنّا نلهو" يقول المغنّي، فلا تصدّقه. كانت كلمات النشيد تقضّ الأوراق، لتحرّر الشجرة من أمومتها. كان هنالك شيء ناقص، في زقورة أور، في جنائن بابل المعلّقة، في هرم خوفو، في الغانج، في سور الصين العظيم، في خزانة بترا، في معبد باخوس ببعلبك. شيء ناقص يُبقي الباب مواربةً. هنالك ما لم يُقَل بعد. لا يكتفي الرسم بالأبخرة. يمكننا أن نكون جميلين في لحظة النقص تلك، لكن، ليس إلى الأبد. الحبر، وهو ماء، يمكنه هو الآخر أن يكون إنسيّاً.

٣- ثلاث ملاحظات في الكتابة ملاحظة أولى

جالساً في حديقتها أتأمّل أشجارها. كما لو أنني لم أعشها. حياتي التي تدير شؤون حديقتها مثل امرأة مُسنّة. لقد اكتشفتُ أنها مضتْ من غير أن تحملني معها. تركتني في انتظارها. قل إنني أوهمتُ نفسي بأن حياتي هي المسؤولة عن تلك الانتظارات كلها التي اكتشفتُ متأخّراً بأنها لم تكن مُجدية. كان الزمن ضدّي. هناك مَن حرّضه، لكي يكون عدوّي. كان الزمن يقع بين نهارَين، لم تخرج الشمس فيهما من مخدع الدجاج، بين ليلتَين، هيأ لي فيهما الأرق كرسياً على الشاطئ. سأملأ سلّته فاكهة، لأحدّثه عن أرق ما في إرثي من حكايات. أنا وحيد في قعر الكأس. ما معنى أن تكون وحيداً؟ الوحدة. لقد قرّرتُ في لحظة تأمّل عظيم أن لا أكون إلا معي. شيء أشبه بالمَعصية. مَعصية ذلك الإرث الذي لا يزال ساكناً في عتمة صندوق خشبيّ صغير، كانت جدّتي نشمية تُخرجه بين حين وآخر من خزانة ثيابها، لتتأمّل محتوياته: مشطاً خشبياً، مرآة صغيرة بمقبض وإطار من الفضّة، مفتاحاً لباب، ربّما يكون الآن موجوداً في الجنّة، أربعة أكواب صغيرة بصحونها التي زُيّنت بصورة الملك غازي، وصوراً صغيرة تأكسدت أجزاء منها. سأمحو من عينيها دمعتَين، لأرى البحر المجاور من خلالهما. هل كانت جدّتي وحيدة؟ تلتفتُ إليّ، وتبتسم معتذرة. تحاول كفّها أن تمحو الأجزاء التي تأكسدت من الصور. تستعيد المشهد كاملاً. هناك فصول تتعثّر بتحوّلاتها في سنة عشوائية. لم يكن الربيع جاهزاً لاستقبال هذا العدد كله من الأشجار. تبتسم، لأنها تدرك أنني سأكون سعيداً حين أرثها، لأروي حكايتها. بدءاً من نهار، لم يقع بعد، نهار بعيد، ماذته ظلال سعف النخيل في الطريق إلى النهر، حيث يستقبل السيّد في ضريحه النسوة القادمات بالحنّاء وأغصان الآس وأطفالهنّ.

تُغمض عينَيها على مشهد قَدَمَين حافيَتَين. "كان أبوك يتبعني. بقَدَمَين حافيَتَين يدوس على العشب بقوّة، ليُخيف الأفعى المختبئة في الطين. لا تفارق نظرته الأرض، لذلك فقد كان يرتطم بجذوع النخيل. في كل مرّة يصرخ فيها، ألتفتُ إليه، فأجده محتضناً جذعاً. وكانت الأفعى تضحك. يُنصت إلى كركراتها، فيضرب العشب بقَدَمَيه غاضباً. لم تكن الأفاعي

المسكينة لتُخيف أحداً" في ما بعد، أدركتُ أن الخوف كان يومها مادّة حياة. يُحسب المرء إنساناً نسبة إلى حجم الخوف الذي يشعر به. كانت جدّتي خائفة ممّا حدث، وليس ممّا يمكن أن يحدث. كان الماضي بالنسبة لها خزانة المعاني الممكنة كلها. ما يحدث فعلاً أنها كانت تجرّ ذلك الماضي، لتضعه في المتر المربّع الذي تعثر عليه في نهاية سَفَرها. ما نسمّيه المستقبل لم يكن له وجود في ذهنها. تقف هناك لتتأمّل أشباحاً. تبكي وتضحك، تُنصت وتتكلّم، تسعد وتحزن، ترضى وتثور في سلسلة متلاحقة من الانفعالات التي هي خلاصة لقاءاتها السرّيّة بتلك الأشباح. دائماً يلذّ لها أن تقول لي: "لنبدأ الحكاية من أوّلها". لا أتذكّر أن واحدة من حكاياتها قد وصلتْ إلى نهايتها. لقد تعلّمتُ أن النهايات يمكن إرجاؤها إلى الأبد. حين نصل إلى النهاية، فهذا معناه أننا قد ضجرنا، وقرّرنا أن نضع حدّاً ليأسنا. "أعدك بحمامة، إن بقيت صامتاً في انتظار ما سيفعله أخي بعد أن تسلّلت أفاعي الماء إلى زورقه" أصمت، ولكنها تترك أخاها في محنته، لتقول: "كان خلف قد غادر قريته تاركاً خمسة أولاد وامرأته، وقد قيل يومها إنه وصل إلى الجزيرة التي لم يعد منها. هناك وراء الضباب، في أقاصي المياه جنّة، لا يصل إليها إلا الصالحون. خرج رجال القرية بحثاً عن خلف" ما إن أغفو حتّى يحلّ خلف محلّ الأخ الذي تركتْه جدّتي، ليُواجه مصيره بنفسه.

لم تكن جدّتي تروي، بل كانت تعيش.

سأقلّدها بعد أربعين سنة.

سأروي لنفسي الحكاية التي لم أعشها، كما لو أنني عشتُها، وفي الوقت نفسه أتخلّى عن التفكير في الوصول إلى نهاياتها، مدّعياً أن هناك حكاية أخرى، قد فرضت نفسها عليّ حين اعترضتْ طريقي، وهذا ما يحدث معي فعلاً. ألهي نفسي بما سيقع، من غير أن ألتفت لما وقع، وقد صار حَدَثاً مشكوكاً في وقوعه. لذلك فأنا أسأل نفسي دائماً: "تُرى هل وقع فعلاً ما كنتُ أظنّه قد وقع؟" سأروي لكم هذه الحكاية: على ضفّة القناة التي تخترق البلدة التي أقيم فيها، هنالك مصطبة خشبية اعتدتُ أن أجلس عليها كلّما أتيحتْ لي فرصة المرور قريباً منها. غالباً ما يمرّ بي أناس مُسنّون، نساء يمشينَ بكلابهنّ، حوامل يدفعنَ عربات أطفال. لم أرَ في ذلك الممرّ الذي يفصل بين الشريط الأخضر الذي أجلس على واحدة من مصاطبه وبين القناة شاباً أو شابّة يوماً ما. أطفال المدارس لا يمرّون أيضاً. لذلك كنتُ تقريباً أشبه بالكائن غير مَرئي، بالرغم من أنني كنتُ أجلس تحت الشمس. لا أحد ممّن يمرّون دفعه الفضول إلى النظر إليّ. ذات

مرة فيما كنتُ أتجه إلى مصطبتي التي كنتُ أجدها فارغة دائماً، رأيتُ شاباً يصغرني بعشرين سنة تقريباً قد سبقني إليها. جلس ذلك الشابّ على طرف المصطبة الأيمن، ورفع يده باحترام مشيراً إليّ بأن أجلس على الجهة اليسرى من المصطبة. الأمر الذي أثار دهشتي. فهل كان ذلك الشابّ ينتظرني؟ ثمّ من أين له أن يعرف أنني لن أجلس على مصطبة أخرى؟ حين جلستُ مندهشاً، لم يلتفت إليّ الشابّ، بل ظلّ ينظر إلى مياه القناة، كما لو أنني لم أكن موجوداً إلى جانبه. كما لو أنه لم يقترح عليّ الجلوس إلى جانبه. جانبياً صرتُ أنظر إلى وجهه، فذكّرني بوجه أعرفه. وجه له ملامح، لطالما تأمّلتُها. أكاد أقول إنني على دراية بتلك الملامح، كما لو أنني رسمتُها أو تخيّلتُها مرسومة في الماضي. غير أنني لم أتذكّر لمن كان ذلك الوجه. أعرفه جيداً. تكاد صورته تفلت من الليل الذي تراكمت صفحاته في خيالي. ذلك الوجه رأيتُه كثيراً. أحتاج إلى محراث، لأقلب صفحة الأرض. أحتاج إلى إبرة، لأنقب في قطعة الخبز. صارت العجلات تتحرّك في ذاكرتي، من غير أن تنجح في السير. كانت تدور في مكانها. حرّكتُ يدي في مختلف الجهات، من أجل أن أثير انتباهه، ليلتفت إليّ، فأرى وجهه مستديراً، غير أن ذلك الشابّ ظلّ لاهياً عنّي، وهو ينظر بتأمّل عميق إلى النوارس التي صارت تضرب المياه بأجنحتها، كما لو أنها جُنّت فرحاً. بعد وقت، لا أعرف أكان طويلاً أم قصيراً، نهض ذلك الشابّ، ومشى بعيداً عنّي، غادرني، من غير أن يقول لي كلمة وداع. لقد فاجأني بقيامه، فلم أقل شيئاً. كانت مشيته قد أعمتْ عينيّ، وكفمتْ فمي. كان لديّ ما أقوله لذلك الشابّ، ما أودّ النظر إليه منه. في أثناء حيرة أحوالي وارتباكي، كان الشابّ قد اختفى، وعرفتُ أنني قد خسرتُ واحدة من أعظم الفرص النادرة، التي كان من شأنها أن تهبني معرفة بحياتي السابقة.

قبل عشرين سنة، تركتُ ذلك الشابّ جالساً على أريكة خضراء، من خلفه، كانت ستارة وردية شفّافة تهتزّ، بسبب هواء المروحة. لم أقل له كلمة وداع واحدة. كنتُ قد حزمتُ حقيبتي، ووضعتُها قريباً من الباب بعد أن يئستُ من إقناعه بالسفر معي. بعناد ثور، كان مصرّاً على البقاء. "وطني" أو "بلادي" الواحدة تلو الأخرى. حاولتُ إقناعه أن ياء التملّك لم تعد له، ولم يعد يليق به أن يكرّر ما يقوله البلهاء والمعتوهون والمساكين وقليلو الحيلة. لم ينفع (خير البلاد ما حملتك). لم تُقنعه فكرة أن بلاد الله واسعة. "إذا كنتُ أنا أهرب، وأنت تهرب، وأصدقاؤنا يهربون، فهذا يعني أننا نترك البلاد للأوغاد" "لنتركها لهم. ما الذي تبقّى منها؟ في القريب العاجل، سنكتشف أننا كنّا فائضين في هذه البلاد الطاردة" في المستوى الخفي

من الحقيقة، فإن ما كان يُخيفه، كان يخيفني أنا أيضاً. سأفقد المكان الذي هو من حقّي، لأكون رَقْماً، مجرّد رَقْم في كل مكان أذهب إليه. "سأكون مواطناً" "ولكن المواطنة ليست الأصل" "معك حقّ. سأستعيد كرامتي" "وستفقدها، كونك لاجئاً، لن تربح إلا الشفقة" في السنتيمتر الأخير، لن يغلبني. كانت حقيبتي تُلامس الباب، وجواز سفري في جيب معطفي، وكان مشهد بيتي يُؤلمني. أنقذتني الساعة حين دقّت. الخامسة فجراً. موعد حضور السائق الذي سيقلّني إلى عمّان. على عجل، حملتُ حقيبتي، وفتحتُ الباب، ولم ألتفت. لقد انسحبتُ من النشيد كله. في تلك اللحظة، صرتُ الأغنية التي تبحث عن كلماتها المَنسية. لم أحمل معي حجراً من شارع الموكب ببابل، ولا دمية سومرية، ولا ختماً أسطوانياً. كان ثغاء الخراف المطيعة قد ملأ جسمي قرفاً واشمئزازاً.

لم أقل له وداعاً. قبل أن يرتقي المؤذّن سلالم الملوية، قبل أن يُخرج الديك رأسه من القنّ، قبل السلام الجمهوري والنشيد الوطني، قبل سورَتي الفاتحة والإخلاص، خرجتُ، وأنا أنظر إلى السماء باستماتة رجل يؤمن أن الله سيكون معه. فجأة أرى صاحبي، بعد عشرين سنة، وهو كما تركتُه على الأريكة الخضراء. لم يكبر يوماً واحداً. ولا ظهرت تجعيدة واحدة تحت العين على الأقلّ. بظهر مستقيم مشى، وبساقَين قويّتَين وذراعَين تحتفيان بالهواء. لم أرَ ظهره من قبل. لم أنصت إلى وقع قَدَمَيه وهما تضربان الأرض بثقة.

في الطريق إلى البيت، انحرف خيالي بي إلى الحكاية، ونسيتُ خسارتي.

صار لديّ ما أرويه لزوجتي. سنتسلّى بخبر، لو انهمكنا سنوات في البحث عنه، لما استطعنا استخراجه طازجاً. سأقول لها: "حدث وأن التقيتُ الشخصَ الذي كنتُه قبل عشرين سنة. ذلك الشخص الحالم الذي تركتُه في بيتنا مُصرّاً على البقاء في الوطن. هل تذكرينه؟" تذكره جيداً، وتلومني لأنني كنتُه. كنتُ المستسلم لبلاهة أفكاره وفوضى خياله. لم تعد اليوم تتحدّث عن الزمن الضائع. لقد تساوت قوّتا الندم: بين ما كنّا عليه، وما نحن فيه. "لن أندم على ما خسرتُ، ولن أندم لأنني لم أربح" من وجهة نظرها، فإن المعادلة تُقيم خارج ميزان الربح والخسارة. لم تعد تلك البلاد تصلح للعيش. فكرة ساذجة، غير أنها تلخّص علاقة الإنسان بالأرض التي يُقيم عليها. لن يكون في إمكاني أن أجبرها أن تكون وطناً، وهي التي أخفقت في أن يكون مأوى آمناً بالنسبة للملايين. ستكون تلك البلاد محض

مساحة على الخارطة العالمية. نقطة ضوئية عمياء تُعذَّب في أثناء الطيران. من فرانكفورت إلى أبو ظبي، قال الطيّار: "نحن الآن فوق العراق" سأصبر على جملته التي تمرّ في ثانية، غير أن العراق طويل إلى يوم القيامة. إلى يوم يُبعثون. تمرّ ساعة، ولا يزال العراق تحتنا. تُعذّبني فكرة أن أراه من فوق، كما لو أنه عبارة عن يابسة، تحجبها الغيوم. أردتُ أن أقول لجارتي الآسيوية: "انظري تحت. وطني هناك" تردّدتُ. ما معنى جملتي؟ ما المناسبة؟ لتكن بلادك تحت، كل بلدان الدنيا تحت. ما الفرق؟ وما المدهش؟ ما من خبر مفاجئ. بالنسبة لنا، نحن الاثنان، تبدو الحكاية مختلفة.

بالنسبة لي، فقد كان هناك شعر كثير في الحكاية.

لن يرسم أحد أحداً. وقف فيلاسكز في مَرسمه، وكانت الطفلة الأميرة تلهو. هل علينا أن نصدّق أنها جاءت، لتُرسَم؟ لتكون موضوعاً للوحة؟ في عصر فيلاسكز، لم يكن هناك مواطنون. لا فيلاسكز، ولا الأميرة. غير أن الرسّام الإسباني رسم بقوّة الجمال. لا خيانة. البلاد التي جمعتهما، فيلاسكز والأميرة لا تزال موجودة. غير أن البلاد التي جمعتني بذلك الشابّ، لم تعد موجودة. لقد هربتُ من صورتها أوّلاً. ومن ثمّ هربتُ من معانيها. سيضحكون علينا مرّة أخرى: بلاد ما بين النهرَين. موطن الحضارات. نبع المِلَل والنِّحَل. آخر إمبراطوريات العرب والمسلمين. بيت الحكمة، حيث التقت اللغات، واستعادت بابل مكانتها عاصمة للعالم. ولكن الصورة تخون المعنى. المعنى يخون الصورة. ما من جسد للفظ، وما لفظ للجسد. لقد صرنا، كما لو أننا نؤلّف معاجم لما يُمحى. أرى الصورة على الجدار، وحين ألتفتُ عنها تختفي. إما أن تنسى الجدار، وإما أن ترى في الجدار ثغرة، هي في حقيقتها نوع من الأمل. عليك أن تكون متفائلاً. يا لقسوة ذلك التفاؤل. رخامة هي شاهدة قبر تُقرأ من جهتَين: وُلد ميتاً، ومات قبل أن يُولَد. أيّهما نُصدّق؟

"جلست في حديقتك" أقول لجدّتي. كانت سينما النصر الصيفي تعرض أفلاماً. "كاوبوي؟" تتساءل جدّتي. لم ترَ جدّتي فيلماً واحداً، غير أنها تعرف أخبار ناتالي وود، وكلوديا كاردينالي، وجينا لولا بريجيدا، ومارلين مونرو، وصوفيا لورين، وبريجيت باردو. بالنسبة لها، كنّ نساء واقعيات خارج عتمة السينما. "لكل واحدة منهنّ حكاية، لم تُروِها بعد" كانت تقول لعمّي صبري الذي كان متحمّساً لرواية قصّة الفلم الذي رآه قبل ساعتَين. بعد سنوات، قلتُ لسيّدة رأيتُها للتوّ في إحدى القاعات الفنّية بدمشق: "كأني

أرى كلوديا كاردينالي" ابتسمت السيدة مسحورة بالتعبير، غير أن خيالي وقد أسرته تلك السيدة، التفت فجأة إلى المكان الذي تجلس فيه جدّتي، وصار يتودّد إليها. "هل ترين حفيدكِ؟ إنه يُقلّدكِ". انتبهت السيدة الدمشقية إلى أني كنتُ مشغولاً عنها، فتركتني مرتبكة. في مواقع كثيرة خذلتني جدّتي. لا تزال تقنياتها تأسرني حين أكتب. ولكنها تُفسد عليّ محاولاتي حين أرغب في العيش، وحيداً كما أنا. كما أرى نفسي في المرآة، رجلاً مُسناً، لا يُصدّق صورته في المرآة. جدّتي تضحك. "لا تزال صغيراً" سأقول لها إنك تقصدين الشابّ الذي بقي هناك، ولم يغادر البلد. تضحك أكثر "هذه لعبتي. لن تكون ماهراً أكثر منّي في استخراج أشكالها. كنتَ هناك ميتاً، وأراك الآن هنا حياً. هذا خبر عظيم، بالنسبة لي. أنت كما أراكَ طيّباً ووديعاً وصالحاً، لكي تكون حفيدي".

لم أخبرها بأنني أصبحتُ كاتباً. ستقول لي: "أكتب فيلماً لكلوديا كاردينالي".

خدعتني جدّتي نشمية.

صارت واقعية حين تعلّق الأمر بمصيري. سيكون عليّ أن أذهب إلى هوليود، كما لو أني نورمان ميلر، لأكتب سيناريو فيلم مصمّم على قياس جسد كاردينالي، لأنها المرأة الوحيدة في الأرض التي في إمكانها أن تهب المرأة معنى أن تكون موجودة، باعتبارها أنثى. واقعية جدّتي تمسّ الأرض. تلاحق القَدَمَين. الأنوثة كما لو أنها لم تكن من قبل. ستُريك تلك المرأة المجال الحيوي للأنوثة. يمكنني أن أتخيّل واقعيّتها وهي تطيح بي. "معاً سنكون هناك" تقول لي وهي التي لم ترَ فيلماً واحداً في حياتها. كانت تتخيّل حياتها مصوَّرة على شاشة السينما. كانت كلوديا كردينالي هي جدّتي الحالمة.

ملاحظة ثانية

"عش حياتك"

لا أتذكّر مَن هو أوّل مَن قالها لي. في أوقات كثيرة، كنتُ لا أشعر بقيمة تلك النصيحة. أو بالأحرى، لم أكن أعرف كيف يمكن أن يعيش المرء حياته بالمعنى الذي تنطوي عليه النصيحة. في دورة الانهماك اليومي بتفاصيل العيش، ينسى المرء أين تقع حياته. هل هي مجموعة الخيوط التي يتشكّل منها نسيج أفعاله وأقواله، صداقاته وعداواته، حالات الصفاء والنكد مجتمعة، جولاته بين المُدُن والغابات، ولحظات تأمّله الساكنة؟ أم أن حياته تقع في مكان منعزل، وحيدة تتأمّل ما يقوم به؟

كنتُ جالساً في غرفة الانتظار بالمركز الصحّي حين رأيتُ امرأة أجنبية، ترتدي ثياباً رياضية تقترب من جاري، وتُلقي عليه بالعربية السورية تحيّة جافّة، ردّ عليها الرجل بجفاء، من غير أن يُظهر حماسة لاستئناف حديث انقطع. ومن غير مقدّمات، صارت المرأة تهذي، وهي تشكو أحوال الغربة والعزلة التي تعيشها، فلم أتابعها، غير أن أذني التقطتْ جملة واحدة، كانت بمثابة خلاصة كل الهلع الذي تعيشه تلك المرأة. قالت: "كلّما أقف على شرفة البيت، أفكّر بالقفز منها. يوماً ما سأفعلها" يوماً ما ستقفز تلك المرأة الرياضية من الشرفة، لتغادر حياتها التي لم تعشها. وهي لا تعرف أنها ستكون يومها وحيدة أكثر ممّا توقّع.

"لم تعش تلك المرأة حياتها كما يجب" جملة ميسّرة، نقولها ونمشي. الجثّة على الرصيف. لقد رأينا عشرات الجثث على الأرصفة. شاشة التلفزيون لا تكفّ عن تزويدنا بمئات الصور لبشر تحوّلوا إلى جثث مجهولة بالنسبة لكل الجالسين في بيوتهم المطمئنّة في انتظار النعاس. أولئك البشر، أتراهم لم ينتصحوا، فلم يعيشوا حياتهم؟ أم أن القَدَر لم يُهيّئ مَن يقدّم لهم تلك النصيحة المجانية؟ لقد عاشوا حيواتهم مضطرّين، عاجزين عن اتّخاذ القرار الذي من شأنه أن يحسم موقفهم من حياة لا تستحقّ العيش: القفز من الشرفات. تخيّلتُ عملاً لم يرسمه البلجيكي رينيه ماغريت. حشود من الناس تقفز من الشرفات والنوافذ، من غير أن تصل

إلى الأرض. لقد رسمهم من قبل بقبعات ومظلات وسط الفضاء. في لوحتي المُتخيَّلة، سيرسمهم، وهم يتّجهون إلى الأرض. لن يكون فعل التحليق مقصوداً لذاته.

هذه المرّة لن يكونوا ملائكة.

لا تحتاج تلك المرأة إلى مَن يخفّف عنها عبء ما تعيشه، بل إلى مَن يحثّها على تنفيذ خطّتها. سيكون عليها أن تعيش التجربة كاملة. الفصل الأهمّ من حياتها. تلك هي مأثرتها الوحيدة التي ستُذكَر بها. في البلدة المجاورة لبلدتي، وقف شابّ أمام قطار، ليؤكّد أنه قد عاش حياته كلها، ولم يبقَ لديه ما يفعله سوى أن يُغلق الباب بعنف. ولكن، لا أحد في إمكانه أن يكون على يقين كامل من أنه قد عاش حياته مثلما هي تماماً. "عشنا ما تيسّر منها" نقول باستسلام، يشوبه قَدْر من العناد. كان بابلو نيرودا ذكياً كالعادة حين اختار عبارة (أشهد أني قد عشتُ) عنواناً لمذكّراته. لم يكن هناك شاهد آخر. نيرودا هو الشاهد الوحيد على أن الشاعر التشيلي قد عاش حياته حقاً.

ربّما عاشها من خلال الشعر. من خلال السياسة، ربّما. علينا أن نُخفّف عن الحبّ ضَجَرَه، فنقول إن الرجل عاش حياته عاشقاً. كتب قصائد عظيمة، كانت المرأة موضوعها. غير أن الحياة كانت دائماً أقلّ صَخَباً من الشعر والسياسة، وحتّى الغزل. الحياة في مكان آخر. آهة رامبو الشقيّ، وهي تنزلق مثل ضربة ملعقة على صحن فارغ. هذا الدويّ كله من أجل حياة، لم يعشها أحد.

في مدينة تاريخية، اسمها بغداد، التقيتُ ذات نهار رجلاً تاريخياً، هو الآخر. كانت مقهى البرلمان تعجّ بالزبائن، وكان الرجل سعيداً بكل ذلك الإهمال الذي يُحاط به. "لا أحد يعرفني. ما أسعدني" كان يرتدي بدلة أنيقة، تعود إلى عقد الأربعينيات. "قابلتُ هتلر وأنا أرتديها" قال لي بعد أن رأى نظرتي وهي تنزلق على بدلته التي لا تُذكّر بالأزمنة السعيدة. تخيّلتُ صوته القديم يوم كان يظنّ أن العالم كله صار يتثاءب ضجراً من الحرب. "لقد عشتُ حياتي، باعتبارها خطوة قادمة. تزوّجتُ نساء كثيرات، وأنجبتُ ما لا يُحصى من الأولاد والبنات، وشربتُ أغلى أنواع النبيذ، وكان الكافيار مؤنتي، ونمتُ في أرقى الفنادق، غير أنني كنتُ أنتظر اللحظة التي يمكنني فيها أن أعيش حياتي. الكون نائماً بين صيحتَي ديك" كان ذلك الديك يجلس إلى جانبي، وهو ينظر إلى واجهة جامع الحيدرخانة بضجر.

كان عليّ أن أتذكّر الشخص الذي قال لي ذات مرّة: "عش حياتك".

تسقط فراشة من الغصن. "أتراها ماتت؟" ما هذا الدور التعيس الذي ألعبه في حياة الكائنات؟! شاهد موت كان يفكّر قبل لحظات في الذهاب إلى بروناي، ليسأل سلطانها: "هل عشتَ حياتك؟"

لو أنها أنصتَت، تلك الحياة المسرعة مرّة واحدة لما يمكن أن أقوله. لو أنها أبطأت قليلاً من خطواتها، لكنتُ أجلس بين قَدَمَيها مثل قنفذ. لو أنها تخلّت عن الغصن، لما ماتت الفراشة. سيضحك سلطان بروناي. بين القنفذ والفراشة هناك أكثر من حياة، في إمكانها أن ترى النور، وتغادر بخفّة. يتخطّى الأمرُ الموتَ المباشر. هناك مَن يؤمن أن حياته ما هي إلا مجموعة من الحيوات، وليست مجرّد حياة واحدة. أنا أتكاثر من خلالي. موهبتي الفريدة من نوعها هي التي تحفظ لي القدرة على البقاء في منأى عن المصائر العاثرة. سأنام وحيداً مثل ملك على سرير، يقع قريباً من شرفة، تُطلّ على الجهة الأخرى من الكون. لا يابسة هناك. لا مياه. فقط الحياة باعتبارها إرثاً إلاهياً. في ذلك الفراغ الكوني، سأرى كائنات كثيرة، سيكون من الصعب عليّ العثور على صديقي القادم لتوّه من برلين. ببدلته الرمادية عينها، أراه واقفاً يعدل نظّارته. سيقول لي: "التقينا سابقاً. أين؟ ذكّرني" لن يصدّقني حين أخبره أننا التقينا في بغداد. بالنسبة له، فإن التاريخ لا يُعاش مرّتين. الحياة كذلك. "لقد كنتُ هناك ذات مرّة، يومها لم تكن أنت مولوداً، ولأن هتلر صديقي لم يصل إلى بغداد، فإن نظريّتك ليست سوى محض خيال"

لم تكن حياتي إلا اختراعاً.

سأصدّق النظرية التي تقول إننا نضع خطوة خيالية بين خطوتَين واقعيتَين. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. الخطوة الخفية التي لن تكون نافعة لأحد بعينها، ربّما ستمشي بنا في المسافة التي سيكتمل من خلالها معنى الحياة. المتر الناقص الذي لا يعرف أحد أين يقع هو الذي يدفعني إلى البحث عن تلك الخطوة الفائضة. لا بأس. كانت لديّ حياة، وأهملتُها، تركتُها في المطبخ، تحت منضدة الطعام، في الوقت الذي كنتُ فيه أودّ القفز من شرفة البيت. كنتُ أرغب في التحليق تشبُّهاً بكائنات ماغريت، ولم أكن قد التقيتُ بعد المرأة السورية التي ترغب في القفز من شرفة بيتها، رغبة منها في استرجاع ما تبقّى لديها من شجاعة.

الآن في هذا البلد البارد الذي أقيم فيه يمكنني أن أرى في كل نشاط

شتوي نوعاً من الإلهام. كان ذلك الشابّ الذي وقف أمام القطار باحثاً عن الدفء، عجزت الإنسانية عن حمايته، فسار بقَدَمَيه إلى المعجزة. سأتأمّل البدر، لكي أكون في نهاية كل شهر قَمَري نبياً. "كان كل شيء واضحاً" قال سائق القطار "غير أن القطار لا يقف بيُسر" كانت محاولة.

بالنسبة لسائق القطار، فإن حَدَثاً مؤسفاً لن يعطّل مجرى حياته. هنالك فرق كبير بين أن يجلس المرء وراء مقود قطار وبين أن يقف أمام القطار. غير أن سائق القطار سيكون مضطرّاً إلى أن يأخذ ذلك الشابّ إلى أحلامه. هناك حياة قد سحقتها عجلات القطار الذي كان يقوده. بطريقة أو بأخرى، فإن معنى القاتل سيتحقّق من خلاله. في اللحظة التي رأى عجزه عن إنقاذ حياة، صار على سائق القطار أن يحمل على عاتقه عبء حياتَين: حياته وحياة الشخص الذي قتله. سيلوم القَدَر، لأنه اختاره، لكي يكون قاتلاً، لنقل شاهداً على القتل. ستهبه تلك الحياة التي سيعيشها بدلاً من ذلك الشابّ الكثير من الأسرار. "لمَ اخترتَني شاهداً على موتك؟"

ربّما يسأل المرء حياته بالطريقة ذاتها "لمَ اخترتِني، لأعيشكِ؟"

كنّا اثنَين دائماً. أنا وحياتي. حياتي التي لم يعشها أحد سواي، وهي في الوقت نفسه الحياة التي لم يعشها أحد. لقد تذكّرتُ أن أحداً ما قال لي يوماً ما "عش حياتك" ولم أكن حتّى تلك اللحظة أفكّر إلا في الظلم الذي يمكن أن تنطوي عليه فكرة أن يُحرَم المرء من أن يعيش حياته. أمر طبيعي أن يعيش المرء حياته. ولكن، على مستوى التنفيذ الواقعي لن يكون حقيقياً دائماً. غالباً ما نحيا خارج الحياة التي قُدّر لنا أن نحياها. لا تهمّني هنا المصائر المجانية، سأذهب إلى الجوهر. لقد تركتُ ورائي حياة طازجة، من غير أن أمدّ يدي إلى فاكهتها. هي حياتي التي لم أعشها.

كانت امرأة الشرفة لا تزال جالسة في مكانها، فيما كان جاري قد اختفى.

"هل أنتَ يوناني؟" سألتني.

"لا. أنا عربيّ" أجبتُها.

"إذن، سمعتَني وأنا أحدّث الرجل الذي كان يجلس إلى جانبك عن رغبتي في القفز من الشرفة. طبعاً أنا كنتُ أمزح. ولكن، هل تشعر بالسعادة هنا؟"

"أين؟"

"في السويد".

"لا يمكنني أن أحكم بيُسر. الأمر يعتمد على معنى السعادة".

لم تُعجبها جملتي، فزمّت شفتَيها بطريقة مبتذلة. يبدو أنها كانت تمنع كلمات من الخروج من فمها. عادت، لتقترب منّي:

"ولا مرّة فكّرتَ بالقفز من الشرفة مثلاً؟"

"ولا مرّة" ضحكت.

"عجيب".

اقتربت منّي أكثر، وهمست: "حضرتك خيالي، بالتأكيد".

"سأكون واقعياً من أجلكِ" أعجبها ردّي، فجلست إلى جواري.

قالت: "في البدء، أعجبتني الحياة في هذا البلد. هدوء وعصافير وناس تمرّ بخفّة وبحيرات وبطّ، غير أنني مع الوقت بدأتُ أفقد أعصابي. ما من شراكة. كل شيء وَرَقي. حتّى في المقابلات الرسمية، كنتُ لا أرى سوى الشفقة في عيون مَن تقابلني. ثمّ ما معنى أنكَ كلّما ذهبت إلى لقاء رسمي تجد امرأة في انتظارك؟ أنا أكره أن أتحدّث إلى النساء. لقد صرتُ أشعر بالسأم. كانت القرية في سورية واسعة، أشعر أن السويد ضيّقة".

في تلك اللحظة، ظهر طبيبي.

"سامحيني" قلتُ لها، ومضيتُ.

ملاحظة ثالثة

"أغلق عينيك لترى"

كانت الموسيقى تنبعث من العشب خضراء. تعود يدي مبتلّة كلّما مددتُها إلى العشب. أنصتُ إلى ياسر صافي، وهو رسّام سوري. كان يحدّثني عن أشياء تقع، من غير أن يكون لها معنى. أسأله عن المعنى الذي يفكّر فيه. يتأمّلني بصمت، وهي طريقته في الصداقة. كانت وحوشه لا تزال نائمة. "لقد أحضرتُها لتوّي. لم تنم منذ ليلتَين. سيكون نومها متقطّعاً، لأنها تشعر بالغربة" سأنام إذاً، ومن حولي كائنات تحاول النوم. كائنات بريئة، سيكون نومها متقطّعاً. لم يكن في إمكان صديقي أن يطردها. فهو يعرف أن لا بيت لها، لا في الشام وحدها، بل في العالم كله. كائنات تائهة، جزء عظيم من خبرتها في الحياة يكمن في ذلك التيه. لقد جعلته تلك الوحوش خادمها، بعد أن كان خالقها. "ولكنها ليست وحوشاً إلا بالمعنى الاستعاري" يقول ياسر ضاحكاً. "صدّقني، إنها أكثر رحمة منّا" يضيف. "في الصباح ستكون صديقها" وهذا ما حدث فعلاً.

لقد حلمتُ بأنني استرجعتُ حياتي التي تركتُها تتدحرج مثل قبّعة في يوم عاصف.

كان عليّ أن أعيش حياتي وحيداً، باعتباري مالكها. وهذا ما لم يحدث.

"يتعلّق الأمر بإعادة تأهيل كائنات لامرئية" قلتُ له مازحاً. ولكن شيئاً من هذا القبيل كان يحدث دائماً. في الرسم، كما في الحياة، يبدو ياسر مسيطراً على توتّره، ومن ثمّ على علاقته بتلك الكائنات المتوتّرة، شكلاً ومضموناً. يصل ياسر إلى الصورة، لا بحثاً عن الفكرة، بل تلذّذاً بما يمكن أن يعنيه العيش في فضاء تلك الفكرة. يلذّ لياسر أن يُنافس كائناته، يُزاحمها، يكيد لها، بل ويغزر بها أحياناً، لكن، من غير أن يحرمها حُرّيّة الحركة. لهذا تبدو الصورة، كما لو أنها مقطع من حياة، التُقط فجأة، من غير أيّ تمهيد مسبق. هكذا يستخرج صديقي الرسّام من البداهة حكايات لا تزال ناقصة. وستبقى كذلك، بعد أن تكون قد احتلّت مكانها على سطح اللوحة. فما لم يكتمل في الحياة لن يجد له في الرسم ما يُعينه على

الوصول إلى الكمال.

لم أغلق عيني، حسب نصيحته، فيما كنتُ أتساءل: من أين يستخرج الرسّام كائناته؟ ألقيتُ اللوم عليه بدلاً من أن ألوم نفسي. أمَا كان حَرياً بي أن أسأل نفسي أوّلاً؟! لقد عبَدتُ طُرُقاً بلهاث خطواتي الراكضة، ذهاباً وإياباً، بين زمنَين مُتخيلَين. أمدّ يدي بيقين إلى دمية، كنتُ قد رأيتُها، فتقبض يدي على هواء. ما من دمية. لا ينفع القول إنني رأيتُها من قبل. وعليّ في الوقت نفسه أن أصدّق أنني رأيتُها. لابد أن تكون تلك الدمية موجودة في مكان ما. لا تزال نظرتها تلتهم ما أضعه في صحنها. دمية تأكل.

"قطعة البازلت الناقصة تهزم الحدس"

"هل قلت الحدس؟"

الحدس هو الذي يدفعنا إلى اختبار حواسنا مزة أخرى. سنُخطئ الطريق ذهاباً إلى بلد الأشباح. هناك تعيش الكائنات المهمَّشة، المحرومة، المضطَهَدَة، المَنسية، المعذَّبة مثلنا تماماً. أصدقاؤنا في النفي، غير أنهم كانوا أذكى منّا حين اختاروا أن يختفوا. يومها انتهت الشفقة. ربّما الألم لا يزال يسري في تلك الأجساد الشفّافة. سيقال إنك تستقصي أحوال أرواح هائمة. منذ فجر الخليقة، كان هناك هواء تُعبئه الطبيعة بالآهات و الهمسات المغدورة والتأوّهات المأخوذة بنغمها المعذّب. الأصبع الذي يشير إلى الخطأ في الحواس. كانت هناك يوماً ما حقيقة مثالية. أعتقد أن الوحوش الصغيرة ليست راضية عمّا يفعله صديقي بها. صحيح أنه لا يرغب في ترويضها، غير أنه يضعها في جنّات بديلة. أتخيل لو أنها نجحت يوماً في اصطياد صديقي، ما يتيسّر لها اصطياده منه، لما وضعته في حديقة مُسيّجة، من أجل أن يكون موضوع فرجة. شرفها الحربي يحتّم عليها أن تلتهمه، فيكون حينها نوعاً من الذكرى.

لتتذكّر أنها التهمتْ يوماً أنسياً.

كل يوم نلتهم حيوات متعدّدة، كانت تجمح بأحلامها، مزوّدة برؤى غدها، لنستولي من خلالها على طاقة مُتخيّلة. (أوميغا ٣) هو خلاصة أرواح هائمة، زيتها وأثيرها وعصارة خيالها. تبدو المطاعم البحرية مثل مجازر، تتكوّم الكائنات البحرية في خزاناتها الزجاجية بأناقة، تُفصح عن إهمال مقصود لمعنى فكرة الخَلْق. هي ذي الوحوش المأسورة، ومن ثمّ

الميتة، وقد استسلمث لخيالنا. سيعيننا الحدس على ارتكاب المعصية. معصية أن نكون واقعيين، فننظر بإنصاف إلى الحياة، باعتبارها حقاً للكائنات كلها.

القوقعة تُغلق فمها على أصبعي. ما الخطأ لو أنها جرحتني قبل أن ألتهم محارها؟

أصدق نصيحة صاحبي. أغلق عينيك، لترى.

القوقعة عمياء، السمكة عمياء، الضفدع أعمى، غير أن الموسيقى التي تنبعث من العشب ليست عمياء. إنها تُجبرني على الاعتراف بأن الحقل واسع. البحر واسع. الصداقة واسعة. الأرض واسعة. كيف يمكننا أن نكون أسيري خطوات، لو سقطت أقدامنا عليها الآن لما اتّسعت لها؟ لقد ضاقت الخطوات، فيما كبرت أقدامنا. لقد كان لنا لنا في لعبة الظلّ درس عميق، غير أننا لا نتعلّم. ولكن صديقي الرسام يريد لوحوشه أن تحيا بدلاً منه. لقد قرّر أن يهبها لوعته، وهي زاده، في حياة صار هو مادّة عملياتها المختبرية.

حدّثني صديق عراقي يقيم في أبو ظبي عن الرحمة. حينها تذكّرتُ أن الله كتب على نفسه الرحمة. وبهذا نكون أقلّ. أدنى من أن نُوصف بالرحمة. على الأقلّ، من أن نتمكّن منها. بالنسبة لنا، نحن البشر، فإن الرحمة ليست فعلاً بطولياً، حسب، بل هي البطولة زائداً التنزّه عنها، بمعنى التخلّي. مسحة يد المسيح التي تشفي من الأمراض، الجبل الذي تصدّع من غير أن يغادر مكانه، الخيط الذي يهب الزمن نسيجاً واحداً، فلا يعود هناك سوى شكل واحد يتجلّى من خلاله المستقبل. وهذا ما قاله صديقي الذي كان مختصّاً بالطّب النفسي. بالنسبة للإنسان الإيجابي ما من ماض، ما من حاضر. هناك المستقبل وحده. الرحمة هي مخّ المستقبل. بشرط أن نكون إيجابيّين. ولكننا ملأنا حياتنا ظلماً، يا صديقي. وإذا ما كان صديقي الرسام قد أنقذ بقايا وحوش هائمة حين أسرها، فإننا لا نكفّ عن تأليف دعابات للتعبير عن تفرّدنا بالملكية. هناك إرث كوني هائل السعة يعاني بسبب بلاهتنا، خيالنا المريض بالقوّة، ضعة أخلاقنا.

ولأن الطبيعة لا تزال تُغدق علينا من نعمها وحسناتها، فإن حواسنا لا تزال تنعم بالخيال. لن يكون هناك ربيع ماض، هناك دائماً ربيع مقبل. الفصول لا تستنسخ أحوالها، كل فصل جديد له موهبته، الخاصّة في التجلّي. في إمكان الرسم أن يكون كذلك. الكتابة في إمكانها كذلك. بهذا

المعنى، فإن المسافر، أيّ مسافر، سيكون عليه أن لا يُثقل نفسه بالحقائب، هناك دائماً حقائب جديدة في انتظاره. عليّ هنا أن أعترف أن مفهوم حقيبة المسافر قد تعرّض هو الآخر لنوع خطير من الإزاحة. لقد صرتُ أجد في غرف الفنادق كل ما أحتاج إليه من مناشف وأدوات حلاقة ومعجون وفرشاة أسنان وخف بيتي ومساحيق لترطيب الجلد وتزييت الشعر، إضافة إلى العدّة التقليدية من أنواع الصابون. ولكن الوحوش الصغيرة التي استضافها ياسر صافي، لا تفكّر إلا في عزلتها.

توذ تلك الوحوش أن تُغلق عينَيها، لترى.

كنتُ أسبح في بحر من الجاز، حين تذكّرتُ أن العالم قد تخطّاني. كان مزاجي الموسيقي نوعاً من الفرار. "أنا حُرّ في حياة، لم يعشها أحد سواي" ولكن، هل عشتُ تلك الحياة حقاً؟ أتخيلها حين الكتابة. أنا ملكها، وهي البرّيّة التي تسيل عليها تربيتي العاطفية. كان لديّ ما أفعله، من أجل أن يكون لحياتي معنى. بهذا المعنى، فإن صديقي ياسر صار يأسر تلك الوحوش، من أجل أن يكون لحياته وقع المعنى.

ولكن تلك الوحوش لم تكن إلا كذبة، اخترعتُها في أثناء الكتابة، وصدّقها الآخرون.

لدى ياسر صافي أصدقاء في عالم الغيب، هم ماذته التصويرية. هذه هي الحقيقة.

ولكن، ماذا عن حياتي؟ هل كانت مُتخمة بكائنات واقعية؟

هكذا، بكل بساطة، أنتقل إلى حياتي.

يُخيَّل إليّ أن حياتي لم تُصنَع من مادّة صلبة أو متجانسة. دائماً كنتُ أقع على مواقع هشّة، لا يمكنني إخفاؤها أو التغاضي عنها. وإذا ما حاولتُ ذلك، فإن محاولتي كانت تأتي دائماً متأخّرة. وعلى مستوى آخر، فإن التناقضات التي تنطوي عليها ذائقتي الجمالية، كانت تصدم الآخرين (الغرباء طبعاً) كما أتوقّع. فعلى الرغم من شغفي بالموسيقى ذات المنحى الرفيع، الغامض والمتسامي، كما هو الحال في تعلّقي بموسيقى باخ، فإن أغنية شعبية قادمة من ستّينيات العراق، قد تطيح بخيلائي، وتجعلني أبكي بعمق. وكما أرى، فإن حياتي ظلّت تمدّ بصيرتها في تلك الطُرُق المتشعّبة التي كنتُ أمشي فيها طوعاً، بل بشعور عظيم من النشوة. حتّى الكائنات التي ارتبطت بها من خلال صداقات، هي في حقيقتها خزائن

عاطفية وفكرية غاصة بالرؤى، كانت لا تتسم بالاستقرار الفكري المبني على أساس الايمان العقائدي المتين.

كان هناك يأس، قوامه شعور عميق بعد الانتماء.

لم أكن أميل إلى أن أكون ابن مرحلة بعينها. وإذا ما كان قد قُدر لي أن أظهر أدبياً في مرحلة السبعينيات من القرن الماضي، فأنا في قرارة نفسي، لم أكن النموذج المثالي الذي يمكن أن يكون ممثلاً لتلك المرحلة. كنت أفكّر بطريقة أكثر تعقيداً، بسبب شكوكي في إمكانية الفرد، أي فرد أن يكون مرآة لعصره. لقد كانت هناك ثغرات، ما إن أضع يدي عليها حتى أشعر أني قد غادرتُ زمني، وصرتُ أتنفس هواء زمن آخر. ولم يكن الارتباط بالمكان ليشكّل لي هاجساً مقلقاً. في سن مبكّرة، أخذتُ بسخر السفر، فصرتُ أفرش خارطة أوربا على المنضدة، وأغمض عيني، ثم أسقط أصبعي على موقع في الخارطة، ليكون ذلك الموقع محطّتي الأولى في سفرة، تستغرق شهرَين. غير أنني لسبب أجهله الآن، لم أقرّر البقاء في أوروبا يومها. الآن لا يمكنني تقييم ذلك القرار. فأنا بحكم تقدمي في السنّ لم أعد ذلك الشاب الذي ربما قد أخطأ في تقديراته. بالنسبة له، فقد كان العالم ممكناً ومفتوحاً، ولم يكن العراق جزيرة معزولة، كما صار عليه الحال بعد سنوات قليلة.

كانت الوحوش لا تزال نائمة.

نقرة على جدار الصندوق الخشبي كانت كافية لإطلاق تلك الوحوش إلى الشارع. ولكنها لم تبقَ هناك. لم تبقَ في الشارع، بل ذهبت إلى المطبخ، لتقيم في صحون الطعام. في كل وجبة يتناولها المرء، كان هناك وحش يتسلّل إلى معدته. لقد امتلأت أجسادنا بالوحوش. كل خلية من خلايا الجسد تعهّدت بتربية وحش صغير، إلى أن يبلغ أشده. صار جسد العراقي معملاً لإنتاج الوحوش الكاسرة. لم يكن الوقت ليسمح بالأنسنة. الحذر يُفسد الحواس. كان التلقّف قد صنع معجماً بلاغياً، اختزل اللغة في مجموعة محدودة من الإشارات. على قاب قوسين، أو أدنى من الفقر الخيالي والعاطفي، كنا نقف، إلى أن استجاب العالم لدعاء الوحوش، فوقع الحصار عام ١٩٩١، ولن ينتهي، إلى أن تقوم الساعة.

كانت حياتي خشبة رطبة، حاولتُ أن تطفو فوق سطح مستنقع، تقيم الوحوش في أعماقه حفلاتها اليومية. لقد حاولتُ النوم في انتظار أن ينجلي الكابوس، ولكن الزمن كان يمرّ بطيئاً. "قال: كم لبثتم" لم تعد أدوات

القياس صالحة، لكي تُنبئ بالحقيقة. بل إن الحقيقة نفسها لم تكن إلا ثغاء خروف، ظلّ طريقه إلى المجزرة. كان هناك من حولنا نداء قيامي يصرخ (عدنا وعادوا). مَن هم؟ لا، بل مَن نحن؟ كانت الملحمة تجترح معجزاتها بعيداً عن ذلك النوع من السؤال صوراً لقتلى، يُشبهونني. كان ذلك زمن الأمَهات. سأنتظرك إلى أن يظهر المهدي. تقول الأمّ، وهي تنظر إلى صورة، تأكسدت جوانبها.

الأمَهات لم يتأخَرنَ، نحن تأخَرنا.

كان هناك سباق بين الأمَهات وبين المدافع. وهنا وقع الخطأ التاريخي. لأن الأمَهات لم يبكينَ، فقد علت أصوات المدافع، وحين كفّت المدافع عن الثرثرة، توقّع العالم أن يتصاعد صراخ الأمَهات. غير أن الأمَهات وقد دُهشنَ بصمت الكون، كان لهنّ رأي آخر. سيظهر الإمام الغائب محاطاً بأبنائهنّ الغائبينَ. وقفنَ بين نجمتَين، في الدمعة التي تخضع الذئب في ليله الموحش. الصورة من غير فكرتها تكفي. كانت حياتي تمرّ في محيط تلك الصورة، لتكون حياة أخرى. لا يكفي أن أقول: "لقد نسيتُ" لأتحقّق من أنني سأكون الآخر الذي أحلم أن أكونه. صحيح أن ذاكرتي قد تهدّمت. مُحيت سطور، لتحلّ محلّها سطور جديدة، غير أن خفقة جناحَي فراشة في إمكانها أن تُظهر كل ما اندرس من السطور الخفية. بهذا المعنى، فإنني لا أتذكّر، لأنني أرغب في التذكّر، أو لأن ذاكرتي قوية، بل لأن خيال الكتابة صار يُملي عليّ ذكريات، عاشها إنسان، بالمصادفة، كنتُ أنا ذلك الإنسان. الكتابة هي التي تتذكّر، مثلما الألم هو الذي يتخيّل.

أتذكّر أنني كتبتُ قصائدي الأولى في دفتر صغير.

ذات سفرة، نسيتُ ذلك الدفتر في قطار.

ومن يومها، وأنا أحلم بأن قصائدي التي لم يقرأها أحد، لا تزال تسافر.

الكاتب

شاعر وناقد فنّ. وُلد ودرس الفنّ في بغداد. يقيم في لندن.

له كُتُب في الشعر، هي (أناشيد السكون، الملاك يتبعه حشد من الأمراء، لنعد، يا حصاني إلى النوم، إرث الملائكة، غنج الأميرة النائمة، هواء الوشاية، رأت مسافراً).

في النقد الفنّي (أقنعة الرسم، تمائم العزلة، سيرة اللامرئي في الرسم، محمّد الجالوس: ثلاثون سنة من الرسم، غسان غائب: وسادة الملاك. الفنّ في متاهة، فادي اليازجي: خبز الآلهة، قوّة الفنّ).

في أدب اليوميات وأدب السيرة (لا شيء لا أحد، مائدة من هواء، لاجئ تتبعه بلاد تختفي، فردوس نائم، فاكهة صامتة).

في الرواية (القيامة بعد شارغين، فسيفساء الجمال الدمشقي، تلك البلاد).

شارك في تأليف عشرات الكُتُب الفنّية.